

كليلة ودمنة

عبد الله بن المقفع



تحقيق

عبد الوهاب عزام وطه حسين

كليلة و دمنة

كليلة ودمنة

تأليف
عبد الله بن المقفع

تحقيق
عبد الوهاب عزام وطه حسين



كليلة ودمنة

عبد الله بن المفع

رقم إيداع / ١٥٩٤١ / ٢٠١٤
٦٧٨ ٩٧٧ ٧٦٨ ٠٧٧ تدمك:

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٤ عمارت الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تلفون: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ فاكس: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خططي من الناشر.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

Copyright © Taha Hussein 1941.

All rights reserved.

المحتويات

٧	التصدير
١١	المقدمة
٤٥	باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع
٥٣	باب توجيهه كسرى أنو شروان بربزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب
٦١	باب بربزويه الطبيب
٧٣	باب الأسد والثور
١٠٧	باب الفحص عن أمر دمنة
١٢٣	باب الحمامنة المطوقة
١٣٧	باب اليوم والغريان
١٥٣	باب القرد والغيلم
١٥٩	باب الناسك وابن عرس
١٦١	باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند
١٧٧	باب مهرابيز ملك الجرذان
١٨٥	باب السنور والجرذ
١٩١	باب الملك والطير قبرة
١٩٧	باب الأسد وابن آوى
٢٠٥	باب السائح والصواغ
٢٠٩	باب ابن الملك وأصحابه
٢١٥	باب اللبؤة والشهر
٢١٩	باب الناسك والضيف

التصدير

للكتور طه حسين^١

هذه طرفة قيمة تُهديها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر إلى قراء العربية، فتتمتع بها عقلهم وذوقهم وشعورهم وحسّهم معاً، وتقديمها إليهم في هذه الأيام المظلمة المؤللة التي قلما يظفر الناس فيها بهذا المتعال الممتاز الخالص الذي ينعمون به في أيام السلم، فضلًّا يضاف إلى فضل، وإحسانٌ يُضاف إلى إحسانٍ.

في هذه الأيام التي لا يلتقي الناس فيها إلا تحدث بعضُهم إلى بعض عن آلام الحرب وأثامها، والتي لا يخلو الناس فيها إلى أنفسهم إلا فكروا في سيناثات الحرب وموبقاتها، والتي لا يصبح الناس فيها ولا يمسون إلا على أنباء، منها ما يسُرُ ولكنه سرور فيه حمرة الدم وريح الموت، ومنها ما يحزن ويسوء؛ ولكنه حزن لا كالحزان؛ حزن عميق كثيف مطبق، يُعرف أوله ولا يُعرف آخره.

في هذه الأيام التي يُحاول الناس فيها أحيانًا أن يُفرووا من أنفسهم، وأن يفزعوا إلى القراءة وإلي غيرها من وسائل المتعال العَقْلِي؛ لعلهم يجدون فيها راحة من أنباء الحرب

^١ القاهرة في ٥ أبريل سنة ١٩٤١.

وخطوبها الباهظة، فلا يقراءون إلاً ما يتصل بالحرب، ولا يجدون من لذات الفن إلاً ما بينه وبين الحرب سبب قريب أو بعيد.

في هذه الأيام المؤذية المضنية يحمد الناس مطبعة المعارف ومكتبتها أن تقدم إليهم هذه المتعة القديمة الجديدة، التي مضت عليها القرون والقرون، وستمضي عليها القرون والقرون، وهي محتفظة دائمًا بشباب نضر غض لا يعرض له الذواء، ولا يدركه الذبول، وهم ينظرون فيها كما تقدّم إليهم الآن، فيجدون لذة لأبصارهم، ولا يكادون يقراءون فيها؛ حتى يجدوا هذه اللذة الفنية المتازنة النقية التي تترجمهم من هذه البيئة الثقيلة البغيضة التي يُكره الناس على الحياة فيها الآن؛ فهي منفذ يخلصون منه بين حين وحين ساعة من نهار أو ساعة من ليل إلى جوًّا نقِيًّا طاهرٍ فيه للقلب رضا، وفيه للعقل غذاء، وفيه للحسن راحة، وفيه للنفس روح.

ويروّقني أن أرى في هذه الطبعة الجديدة من كتاب «كليلة ودمنة» رموزًا سامية صادقة لمعانٍ ساميةٍ نحبها أشد الحب، ونطمئن إليها أشدَّ الطموح.

ففي هذا الكتاب حكمة الهند، وجهد الفرس، ولغة العرب، وهو من هذه الناحية رمزٌ صادقٌ دقيقٌ لمعنى سامٍ جليل، هو هذه الوحدة العقلية الشرقية التي تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهرة الأجيال والقرون بين أمم الشرق على اختلافها، والتي حققتها الحضارة الإسلامية على أحسن وجه وأكمله أيام كانت هذه الحضارة حية قوية مؤثرة في حياة الأمم والشعوب، والتي نُريد الآن أن نردد إليها قوتها الأولى وجمالها القديم.

هذه الحكمة الخالدة الساذجة التي أفضّلها روح الهند، ونقلها عنهم جهد الفرس، وصاغها في هذه الصورة العربية الرائعة ذوق العرب، وتوارثتها الأجيال بعد ذلك، فنقلتها من بيئتها إلى بيئتنا، ومن شعب إلى شعب، حتى جعلتها جزءًا من التراث الإنساني الخالد، هذه الحكمة في صورتها العربية رمزٌ لما نحبُّ أن يكون من تعاون الأمم الشرقية على إشاعة البر والتقوى، وإذاعة الخير والمعروف، ومقاومة الإثم والعدوان.

وفي هذه الطبعة التي تقدمها مطبعة المعارف ومكتبتها إلى الناس رمز آخر صادقٌ دقيقٌ لمعنى آخر سامٍ جليل، نُحبُّه أشد الحب، ونطمئن إليه أشدَّ الطموح، وهو هذا التعاون المنتج بين قدیمنا العربي القيم ونشاطنا العصري الخصب؛ هذا الجهد الذي أنفقه ابن المفع في نقل «كليلة ودمنة» إلى العربية، وهذه الجهود التي أنفقها المسلمين بعده في درس الكتاب وتصحیحه وتنقیحه والاستفادة منه والانتفاع به لم تذهب سدىًّا، بل لم تقطع ولم تقف عند حدٍ محتوم، ولكنها اتصلت بين الأجيال، يضيف إليها كل جيل ما

قصرت عنه الأجيال الأخرى؛ حتى وصلت إلينا فلم نُعرض عنها، ولم نزهد فيها، ولم نأخذها كما هي في قناعة وكسل وفتور، وإنما أقبلنا عليها مشغوفين بها راغبين فيها، وأخذنا نضيف إليها ما عندنا كما أضاف إليها الذين سبقونا ما كان عندهم.

فالجهد القيِّم الذي بذله الأب شيخو حتى أخرج للناس أقدم نسخة ظفر بها لم يقف عند الحد الذي وصل إليه الأب شيخو، ولكن زميلاً الدكتور عبد الوهاب عزام يضيف إليه جهداً جديداً قيِّماً، فينشر نسخة جديدة أقدم من نسخة الأب شيخو بأكثر من قرن من الزمان، ويمكِّن التاريخ الأدبي والنقد الأدبي من أن يُعيداً نظرهما في هذا النص القديم، ويستخلاصاً منه نتائج جديدة لها قيمتها وخطرها. ومن المُحَقَّق أنَّ هذا الجهد الذي بذله الدكتور عبد الوهاب عزام لن يقف عند هذا الحد، ولن ينتهي إلى هذه الغاية؛ فقد كان يُريد — وكانت مطبعة المعارف ومكتبتها تريده — جمع أكثر عددٍ ممكِّن من النسخ المخطوطة لهذا الكتاب، ومحارضتها، والموازنة بينها، واستخراج أصح نص ممكِّن من هذه المعارضة والموازنة، فحالات الحرب بينهما وبين ما كانا يريدان، ولكنها لم تمنعهما من أن يُقدِّما إلى الناس أقدم نص لهذا الكتاب عُرِفَ إلى الآن.

والحرب منقضية يوماً ما، والسلم مقبلة يوماً ما، وجهود الذين يحبون العلم ويعلمون على إحيائه وتنميته وإذاعته إن وقفت الآن فهي مُسْتَأْنَفَةً غداً أو بعد غدٍ، وما أشُكُّ في أنَّ الدكتور عبد الوهاب عزام سيستأنف الجد والبحث، وسيجمع النسخ المخطوطة التي لم يظفر بها بعد، وسيمضي في المعارضة والموازنة، وسيتقدم بنص «كليلة ودمنة» إلى الصحة والدقة والقدم خطوات أبعد من هذه الخطوة البعيدة التي خطتها بطبع هذه النسخة، وما ينبغي أن نُسرِّف في الطمع، ولا أن نتعجل الرِّمَنَ، ولا أن نجاري طموحنا الجامح، ولا أن نغض مما يُتاح لنا من التوفيق والفوز؛ فليس قليلاً، بل كثيراً جدًا أن يخطو الدكتور عبد الوهاب عزام، وتحطُّ معه مطبعة المعارف ومكتبتها، فإذا خطوطهما تقدم كتاب «كليلة ودمنة» نحو الصحة والدقة والقدم أكثر من قرن من الزمان. وفي هذه الطبعة رمز آخر صادقٌ دقيقٌ لمعنى آخر ساميٌ جليل، نحبه أشد الحب، ونطمئن إليه أشد الطموح، وهو التعاون المنتج بين علمائنا الشرقيين المحافظين بشخصيتهم، وبين علماء الغرب الذين بَرَزُوا فيما حاولوا من البحث العلمي؛ فقد أصبحت العزلة العلمية سخفاً لا يطمع فيه إلا الذين قُصِّرْت هممهم، وفترت عزائمهم، وضُعِفت عقولهم عن فهم الحياة كما ينبغي أن تُفهَّم، وأصبح الجهد العلمي حظاً شائعاً بين الأمم المتحضرة جميعاً، قوامه التعاون الصادق بين العلماء مهما تختلف أوطانهم وأجناسهم

وببيئاتهم. وقد بذل الدكتور عبد الوهاب عزام في هذه الطريق جهداً قيّماً حقاً، فهو لم يقف – وما كان له أن يقف – عند الجهود الشرقية الخالصة التي بذلت لنشر هذا الكتاب، ولكنه ألم بالجهود التي بذلها الأوروبيون والأمريكيون منذ عرفاً «كليلة ودمنة»، فأصلاح منها ما أصلح، وقوم منها ما قوم، وأضاف إليها ما أضاف، وعرض ذلك علينا في مقدمته الممتعة مع هذه الأمانة الساذجة المتواضعة التي تلقي بالعلماء، والتي لا يلقي غيرها بالعلماء، ويكتفي أن الذين يقرءون هذه المقدمة سيحيطون إحاطة دقيقة شاملة بكل الجهود التي أنفقت حول هذا الكتاب منذ أخذه الفرس عن الهند إلى أن وصلت إلينا طبعته الأخيرة في هذا العام.

وفي هذه الطبعة رمز آخر صادقٌ دقيقٌ على سذاجته ويسره لمعنى سامي جليل نحبه ونؤثره، وتطمن إليه نفوسنا اطمئناناً فيه كثيراً من الدعوة والحتان؛ فمطبعة المعارف ومكتبتها إنما عُنيت بنشر هذه الطبعة، وأنفقت في ذلك ما أنفقت من جهد ومال، واحتملت فيه ما احتملت من مشقة وعناء، لم تصرفها عنه الحرب، ولم تصدّها عنه الظروف التي تصدّ أمثالها عن أمثاله، ووقفت فيه إلى ما وفقت إليه من الإجادة والإتقان، فعلت هذا كله لسبب يسير ولكنه خطير، فهي تُريد أن تحتفل بمرور نصف قرن على إنشائها، وهي لم تجد إلا هذا العمل العلمي الأدبي الفني وسيلة إلى هذا الاحتفال؛ وهي بهذا تحسي ذكرى منشئ المطبعة ومكتبتها، فتسجّل وفاء الأبناء البررة للأب العظيف، وهي بهذه تحسي هذا الجهد المتصل الذي أنفق في غير ضعفٍ ولا مللٍ أثناء نصف قرن في نشر العلم وإذاعة الثقافة في الشرق العربي كله. وهي بهذا – آخر الأمر – تحسي هؤلاء القراء، أو قل هذه الأجيال من القراء الذين اتصلوا بها منذ نشأت، والذين عرفوا العلم والثقافة من طريقها، تحسيهم لأنهم وفوا لها كما وفت لهم، وتحسّيهم لأنهم يتّقون بها كما تثق بهم، وهي حين تهدي إليهم هذه التحية الرائعة تتبعهم في طرفي وخفّة بأنها ستمضي في مستقبل الأيام – كما مضت من قبل – في طريقها إلى نشر العلم والأدب والثقافة، متوكيةً ما يجُب أن يتواخاه الناشر الأمين من العناية بالدقة العلمية والجمال الفني، والحرص على إرضاء العقل والذوق والشعور جميعاً.

وأظنُّ أنني لا أتجاوز إرادة القراء إذا أهديت إلى مطبعة المعارف ومكتبتها وإلى الدكتور عبد الوهاب عزاماً تحية ملؤها التقدير والإعجاب والأمل.

المقدمة

للدكتور عبد الوهاب عزام^١

(١) القسم الأول: طبعات الكتاب وأصولها

(١-١) لماذا نعنى بهذا الكتاب؟

كأني ببعض من يطّلعون على هذه الطبعة لكتاب «كليلة ودمنة»، أو يسمعون بها، يقولون: ما لهذا الكتاب يعني به، ويبذل في تصححه وتوضيحه ومُقابلة نسخه وبيان تاريخه هذا الجهد العظيم، وتتفق على نشره هذه الأموال الكثيرة، وهو كتاب تكرر طبعه في الشرق والغرب، وتواتت طبعاته في مصر منذ عهد محمد علي باشا إلى اليوم، واتخذته وزارة المعارف كتاباً مدرسيّاً، فلا تجد في مصر عالِماً ولا مُتعلّماً إلا اطلَع عليه وقرأه كله أو بعضه؟ وإنّي أُعجل الجواب لهؤلاء فأقول: قليلاً من الكتب نال من إقبال الناس وعنايتها ما نال هذا الكتاب؛ فقد تنافست الأمم في ادّخاره منذ كُتب، وحرست كل أمّة أن تنقله إلى لغتها؛ فليس في لغات العالم ذات الآداب لغة إلا تُرجم هذا الكتاب إليها، وبحقّ عُنیت الأمم بهذا الكتاب العجيب الذي يحوي من الحكم والأداب وضرورب السياسة وأفانين الفحص ما يملأ القارئ عِبرة وإعجاًباً وسروراً.

^١ القاهرة، في ١٠ مارس سنة ١٩٤١.

والأمم العربية أولى أن تُعنى بهذا الكتاب في لغتها، وأجدر أن تهتمّ بتاريخه وتوضيحه
ونقده لأسباب عدّة:

أولها: أن النسخة العربية أصلٌ لكل ما في اللغات الأخرى – حاشا الترجمة السريانية الأولى – فقد فقد الأصل الفهلوi الذي أخذت عنه الترجمة العربية، وقد بعض الأصل الهندي الذي أخذت عنه الترجمة الفهلوية، واضطرب بعضه؛ فصارت النسخة العربية أمّا يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة، بل يرجع إليها من يُريد جمع الأصل الهندي وتصحّحه.

والثاني: من الأسباب: أنَّ هذا الكتاب كُتب باللغة العربية في مُنتصف القرن الثاني من الهجرة، فهو من أقدم ما بين أيدينا من كتب النثر العربي، وأسلوبُه مثالٌ من أقدم أساليب الإنشاء في لغتنا، وهو لذلك جديرٌ بعناية مؤرخي الأدب العربي.

والثالث: أنَّ هذا الكتاب نُقل من الفارسية إلى لغتنا، ولؤرخي الأدب كلامٌ كثيرٌ في تأثير الأدب الفارسي في الأدب العربي في تلك العصور، والترجمة من أقوى الوسائل لتأثير أدب في آخر، فدراسة هذا الكتاب تُبيّن صلة ما بين الفارسية والعربية في القرن الثاني، وتُبيّن أنَّ الأساليب العربية أخذت من الأساليب الفارسية أو لم تأخذ.

والرابع: من دواعي العناية بهذا الكتاب: أنَّ عندنا منه نسخاً مختلفة لا تتفق اثنان منهما اتفاقاً تاماً، ويعظم الخلاف بين بعضها بالزيادة والنقص في بعض الأبواب، وبعض القصص والأمثال، وبالإطناب والإيجاز، واختلاف الألفاظ في الموضع الواحد؛ حتى يعجب القارئ الذي يقيس نسخاً من الكتاب بأخرى، ويغلب على ظنه أنَّ الكتاب تُرجم إلى العربية أكثر من مرة، وسيأتي بيان هذا.

وقد عثر الأستاذ هرتيل Johannes Hertel على كتاب «بنج تنتر» الهندي، وهو أصل من أصول «كليلة ودمنة»، ودعا بعض المستشرقين إلى تحري النص الصحيح العربي ليُستعان به على تصحيح الأصل الهندي.

وُعْنِي الأستاذ بريستيد James H. Breasted رئيس المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو بدراسة النصوص العربية لكتاب «كليلة ودمنة»، وكتب الأستاذ سبرنجلين Sprengling من أساندته هذه الجامعة مقالاً مفصلاً في الجريدة الأمريكية للغات والأداب السامية The American Journal of Semitic Languages and Literatures عدد يناير ١٩٢٤ بين فيه عناية بهذه الجامعة بتصحيح النص العربي لكتاب، وعدد المخطوطات الكثيرة

التي جُمعت من أرجاء العالم لهذا المقصود، ودعا الأدباء في الشرق والغرب إلى إمداده بما عندهم من نصوص وأراء لهذا العمل.

(٢-١) طبعات الكتاب

فإن كان الكتاب لهذه الأسباب جديراً بعنابة أدباء العربية قميئاً بأن يطبع مستوفياً حفه من التصحح والنقد، فهل طبع الكتاب مرة على هذه الشاكلة؟ ليس في طبعات الكتاب التي ظهرت في أوروبا والبلاد العربية وببلاد الشرق الإسلامي طبعة واحدة جديرة بثقة القارئ الناقد، صالحة أن يعتمد عليها مؤرخ لهذا الكتاب أو مؤرخ للأدب العربي، وبرهان هذه الدعوى فيما يلي:

طبعة دي ساسي

طبع الكتاب لأول مرة في باريس سنة ١٨١٦ م طبعه المستشرق الكبير سلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy. ويتبين من المقدمة التي كتبها الناشر أنه رأى كثرة الاختلاف بين النسخ التي وجدها في باريس؛ فاختار أقدمها في رأيه، وصححها ونَقَّحْها من نسخ أخرى، وكانت هذه النسخة التي اختارها في حاجة إلى التكميل والتصحح والتنقح، فيها نقص تداركه بعض القراء بخط حديث، وفيها مواضع ذهب بها البلي، وكلمات مُحيَّت فوُضِعَت موضعها أخرى؛ فالكتاب الذي نشره دي ساسي لا يقدم للناقد نسخة واحدة تصلح للنقد والمقاييسة، ولكن نسخة ملقة؛ ولهذا لم يثق بها المستشرقون الذين عُنوا بالملل بموضع أمثل فلكرن Falerner، وجويدي Guidi، وريات Wright، وزنترج Zotentberg، وشاركتهم الآباء شيخو في رأيهم، يقول ندركه Noldeke: «يمكن أن يقال إن اختيار أي مخطوط رديء للطبع كان أجدى على النقد» (Kalilah and Dimnah by Falconer P. XVII). وقد وجد ندركه أن النسخة التي كانت أقل النسخ حظاً من عنابة دي ساسي هي أقرب النصوص إلى النسخة السريانية القديمة.

الطبعات المصرية

كلية ودمنة

وكل الطبعات التي طُبِعت في مصر كانت تكراراً لهذه الطبعة، فالطبعتان اللتان أخرجهما مطبعة بولاق سنة ١٢٤٩ وسنة ١٢٥١ هـ في عهد محمد علي باشا صورتان من طبعة دي ساسي إلّا كلمات قليلة، يقول مصحح الكتاب في المقدمة:

فصادف سعده (أي: محمد علي باشا) المقترن من الله بالمنة وجود نسخة مطبوعة بالعربي في غير بلاد العرب من كتاب كلية ودمنة، وهي التي ترجمها عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور في أيام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، وكانت ترجمتها من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية، واتفق الناس على صحة تلك النسخة لشهرة مصححها بالأملعية. (وهنا ينقل المصحح فقرات من مقدمة دي ساسي تبيّن طريقة هذا المستشرق في تصحيح الكتاب).

ثم إن تلك النسخة المطبوعة عُرضت هي وغيرها على شيخ مشايخ الإسلام وقدوة عمَّد الأنام مولانا الشيخ حسن العطّار – أadam الله عموم فضله ما دام الليل والنهار – فقال: يصح إلّا يوجد لها في الصحة مثال؛ لشهرة مصححها بالضبط وسعة الاطّلاع على الأقوال، وحينئذ اتفقت الآراء على أن يكون المعول في طبع ذلك الكتاب عليها، ومنتهى اختلاف النسخ ووفاقها إليها، فبادرت إشارة الأمر بصريح الامتثال، وسرّحت في رياض تلك النسخ سائئ الطرف والبال، فوجدت المطبوعة أفصحتها عبارة، وأوضحتها إشارة، وأصّحتها معنى، وأحكمتها مبني، غير أنَّ فيها لففيات حادث عن سنَّ العربية، وبعض معانٍ مالت بها الركاكة عن أن تفهم بطريقة مَرْضِيَّة، فقررتُ أضياف المعاني بأي لفظ تشتهيه، وربُّ البيت أدرى بالذى فيه، خصوصاً مع وجود المواد التي تكشف عن وجوه الصحة نقاب الاشتباه، وما كان ذا مَكْنَة فلينفق مما آتاه الله، مستعيناً على ذلك بما لدىَّ من النسخ التي بخط القلم، معولاً على عناية من عَلَمَ الإنسان ما لم يعلم.

وكل الطبعات التي توالّت في مصر كانت تكراراً لطبعة بولاق إلّا فصولاً وجملًا الغيّبت غير ملائمة للآداب فُحِّذفت.

طبعنا اليازجي وطبارية

والطبعات الشامية كذلك اعتمدت على طبعة دي ساسي وما حاکاها من طبعات مصر مع تصحيح أو تلفيق بينها وبين بعض المخطوطات.

ذكر الشيخ خليل اليازجي في مقدمة طبعته أنه عثر على نسخة مكتوبة منذ ثلاثة سنين، وقايس بينها وبين النسخة المطبوعة في مصر ونسخة دي ساسي، ووجد بينهما اختلافاً كثيراً، ثم قال: «وقد جمعت بين النسخ الثلاث وطبقت بينها بأن اخترت من كل منها أحسنها، مع نقل المزيد في نسخة الخط المشار إليها، وإصلاح ما في النسخ الثلاث من أغلال النسخ وغیرها، وزياداتٍ أخر زدتها مما عنَّ للخاطر الضعيف للربط بين فواصل الكلام، أو لاستدعاء المقام لها، أو لاستحسان موقعها، أو استطراداً جرًّا إليه سياق الكلام مما يظن أنَّ النسخة الأصلية لم تخلُ عن شيء بمعناه، وغير ذلك مما جرأني عليه الرغبة في ردِّ هذا الكتاب الجليل ما أمكن إلى رونقه القديم، وإن كان يقصر عن ذلك ذرعى، ويضيقُ وسعي، ولكني فعلتُ رجاءً أن أستعين به عليه وأتطرق منه إليه؛ فتيسَّر لي أنْ أجمع من النسخ الثلاث نسخة وافية جديرة بأن تُنزل منزلة النسخة الأصلية».

ثم يذكر أنه حذف أمثلاً وعبارات لا تلائم آداب العصر، ولا تصلح لقراءة التلاميذ. وأماماً نسخة أحمد حسن طبارة التي استعن على تصحيحها السيد مصطفى المنفلطي، فيقول في مقدمتها إنه عثر على نسخة مصورة كُتبت سنة ١٠٨٦هـ، فعزم على طبعها، ثم يقول: «فعنيت أولًا بمقابلتها على ما تتوفر لدى من نسخها كنسخة باريس المطبوعة سنة ١٨١٦ ونسخة مصر المطبوعة سنة ١٢٩٧ ونسخ بيروت الشهيرة، واخترت منها ما كان أقربها إلى الأصل، وأبعدها عن التحريف والتبديل، وأسلمها من الزيادة والنقصان».

فترى من هذا أنَّ نسخَيَ اليازجي وطبارية – على ما لقيتا من تصحيح وعناية – قد لفَقت لهما نسخٌ مختلفة، ووقع فيهما من تصرف الناشرين ما يذهب بقيمتهم التاريخية، ويقلل خطرهما في رأي الناقد.

طبعه شيخو

يقول الأب شيخو في المقدمة الفرنسية التي قدمها لطبعته إنَّه عثر في دير الشير في لبنان على مخطوط من كتاب «كليلة ودمنة»، كُتب سنة ٧٣٩هـ، وإنَّه رأى في أسلوبها شبهاً بما

يُعرف من أسلوب ابن المقفع، ورأى أنها أقرب النسخ إلى الأصل الهندي «بنج تنتر» وإلى الترجمتين السريانيتين: الترجمة القديمة المأخوذة عن الفهلوية، والحديثة المأخوذة عن العربية، وإنه طبع الكتاب كما هو، لم يصحح أغلاطه ولم يوضح غامضه؛ ليكون أمام المستشرقين صالحًا للمقارنة والنقد.

ثم يقول إنه الحق بالكتاب الأبواب التي ليست في نسخته، مطبوعةً بحروفٍ صغيرةٍ تميّزها عن الأبواب التي في نسخته.

ولا ريب أن طبعة شيخو – على ما فيها من سقطٍ وغلطٍ وتحريفٍ كثیرٍ، بعضه يُدرک صوابه لأول نظره، وبعضه لا يدرك إلا بعد طول بحث ومقارنة – لا ريب أن هذه الطبعة أول طبعة في اللغة العربية تقدم للقراء نصاً كاملاً غير ملتفٍ من كتاب «كليلة ودمنة»، وتصلاح أن تكون حلقة في سلسلة البحث عن أصل هذا الكتاب، كما تُرجم عن الفهلوية.

ثم قال الأب شيخو في آخر مقدّمه إنه سيصحح نسخته من مخطوطات أخرى؛ ليجعل منها نسخة مدرسية، وقد أخرج منْ بعد نسخة مدرسية مصححة.

وهذا مثالٌ من نسخة شيخو يبيّن تحريفها، ويرى استدراك الأب شيخو بين هاتين العلامتين () واستدراكتنا بين العامتين الآخرين []: «ولست أجدني مخصوصاً [مخصوصاً] في هذه المقالة؛ لأنني لم أُخالفه في شيءٍ من ذلك قط على رءوس جنده إلا وقد تدبّر [تدبرت] فيه المنفعة والزيّن. ولم أجاهره بشيءٍ من ذلك قط على رءوس جنده ولا عند خاصته وأصحابه، ولكن كنتُ أخلي به فألتّمس ما أكّله من ذلك كلام القانت لربه الموقن له، وعرفتُ أنه من طلب الرخص من النصاراء عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرضى، وعند الفقهاء في الشبهة (كذا) [والفقهاء عند الشبهة] أخطأً منافع الرأي، وازداد في الرأي المرض (كذا) وجعل الوزر في الدين [فقد أخطأ الرأي وزاد في المرض واحتمل الوزر]. فإن لم يكن هذا فعسى ذلك أن يكون من بعض سكرات السلطان، فإن من سكراته أن يرضي عن من [عمّن] استوجب السخط، ويُسخط على من استوجب الرضا (الرضي) من غير سبب معلوم. وكذلك قالت العلماء: خاطرَ من لجّ في البحر، وأشدُ منه مخاطرة صاحب السلطان، فإن هو صَحِبَهم (كذا) [يستعمل السلطان جمّعاً وهو استعمال صحيح قديم] بالوفاء والاستقامة والمودة والنصيحة، خلائق (كذا) لأن يعثر فلا ينتعش أو يعد (يعود)، وقد أشفى على الهلكة أن ينتعش وإن لم يكن هذا؛ فلعلَّ بعض ما أعطيته من الفضل جُعل فيه هلاكي؛ فإن الشجرة الحسنة رُبما كان فسادها في طيب

ثمرتها إذا تُنولت [تنولت] أغصانها وجُذبت حتى تُكسر وتقدس، والطاووس ربما صار ذَنْبَه الذي هو حسنه وجماله وبِالْأَعْلَى عليه فاحتال (إذا احتال) [لا حاجة لما بين القوسين] إلى الخفة والنجاة ممن يطلبها فيشغله عن ذلك ذَنْبَه، والفرس الجوار القوي ربما أهلله ذلك فأقصد (كذا) [فأجهد] وأنتعب، واستعمل لما عنده من الفضل حتى يهلك» شيخو (الطبعة الثانية ص ٨٢). وليس هذه الفقرات أكثر من غيرها تحريفاً.

(٣-١) نسختنا

يُرِى مما قدمت أن كتاب «كليلة ودمنة» طُبِع طبعات مدرسية كثيرة تفي بتعليم الناشئة، ولكنه لم يُطبع طبعة واحدة يطمئن إليها الناقد الذي يتحرى ما كتبه ابن المفع. فلم يكن عجيباً أن يطول البحث والعناي لطبع الكتاب طبعة أخرى، وكان من سوء الاتفاق أنَّ هذه الحرب الماحقة التي يَصْلُى بنارها جُنَاحُها وغير جُنَاحُها شبَّت ونحن نتأبه لنشر هذا الكتاب، فلم يتيسَّر لنا تحصيل المخطوطات التي أردنها، ولكن كان من حسن الحظ أن عثرنا على نسخة في مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول كُتِبَت سنة ٦١٨هـ، فهي أقدم من كل المخطوطات التي وصفها المستشرقون، وأقدم من نسخة شيخو المكتوبة سنة ٧٣٩هـ والتي رأها شيخو أقدم نسخة مؤرخة فكتب على صفحة العنوان: «أقدم نسخة مخطوطة مؤرخة لكتاب كليلة ودمنة».

لم يكن الْقِدَم وحده سبباً لاختيارنا هذه النسخة واحتمال العناي الطويل في نشرها، ولكن اجتمعت فيها مزايا ظلنا معها أنها جديرة بالنشر، وأن نشرها خطوة سديدة في سبيل نقد الكتاب وتقريريه من أصله جهد المستطاع.

وهذا وصف النسخة وتبيين مزاياها وعيوبها:

عنوان النسخة: «كتاب كليلة ودمنة مما وضعته علماء الهند على لسان الطير والوحش وغير ذلك في الحكم والأمثال»، وتحت العنوان: «يثق بالكافي محمد بن الحجافي»، وتحت هذا ثلاثة أسطر مشطوبة شطباً يمنع من قراءتها. وفي آخر النسخة:

تمَّ الكتاب بعونِ اللهِ وتوفيقِه، وكان الفراغ منه في مُستهلِ جمادى الآخر من شهور سنة ثمانية عشر وستمائة، غفر الله لكاتبه ولصاحبه ولمن نظر فيه ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، كتبه لنفسه الفقير إلى الله تعالى المعترف بالتقدير عبد الله بن محمد العمري عفا الله عنه.

وبعد هذا خمسة أبيات في وصف الكتاب.
وبعدها «وحسينا الله ونعم الوكيل» في سطر، وفي سطر آخر: «كمعمق زهنوقة»، وفي سطر آخر: «الحمد لله وحده اه اه اه».
وبعد هذا سطران فيهما اسم بعض من ملوكها النسخة، ثم البيتان:

[لئن] نال غيري وهو دوني وصالها
وأصبح ذكري عندها غير نافقي [نافقٍ]
فكم بيدق للشاه أصحب قاهرًا
ولا زال قدر الشاه فوق البيادقِ [البيادقِ]

والظاهر من صفتني العنوان والخاتمة أنَّ صاحب النُّسخة اسمه محمد بن الحجافي، وأنَّ كاتبها اسمه عبد الله بن محمد العمري، وأنَّ الكاتب من عامة النسَّاخ الذي لا يُجيد النحو ولا رسم الحروف، فقد كتب: «كليلة ودمنة» بالصرف، وكتب: «جمادي الآخر من شهر سنتَ ثمانية عشر وستمائة»، والصواب: جمادي الآخرة من شهر سنتَ ثمانيني عشرة وستمائة، وكتب في أبيات في الصفحة الأخيرة: «السنْت فصيحة» بتاء مفتوحة بدل: «السنْنة».

ولهذا وقع في النُّسخة تحريرٌ شنيعٌ، وسقطُ في جملٍ وكلماتٍ وحروفٍ، ورُسمت بعض الكلمات وأُعجمت على صورة عجيبة لا تواافق حروف العربية، حتى ظننت أنَّ الكاتب لا يحسن قراءة الكتاب، وكان يرسم الحروف كما يراها فيخطئ في كثير منها، وبَيْنَ أنَّ نصيب الكلمات الغريبة من هذا التحرير أوفر، وبعض التحرير لا يُفسَّر إلَّا بأنَّ الكاتب كان يستملي فيسيء السمع أو يخطئ الرسم.
وهذه أمثلة من التحرير، وقد وضعْت تصويبها بين هاتين العلامتين []:

«ثم إن شرتبة لم يلبث أن عكن وشحن وسر [... أن عك وشحم وترّ]».^٢
«كان أسدَ البصيرة، وأبلج الصدر، وأحرى أن يُقدم المزيد على غيره الشبهة
والشك [كان أسدَ لل بصيرة وأثْلَج لل صدر، وأحرى أن يُقدم المرء به على غير

^٢ انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِسْمِ رَبِّكَرَبِّ الْعِزَّةِ الْعَالِيِّ الْمُخْتَفِي فِي الْأَنْهَىِ
 الْمَدِينَةِ لِغُرَزِهِ الْعَادَلِ تَقْضِيَهُ الْمُغْرِبُ فِي مَلَوَّهِهِ حَافِظٌ
 الْجَنَّةِ وَبَاسِطُ الْوَرْقِ لِسُرْجِنَتِهِ شَيَا وَمِنْهُ الْمُنْبِعُ الصَّدِيرِ
 نَعْمَ الْوَقِيِّ وَعِمَ الْمُنْبِرِ خَلِقٌ لِأَدَمَ سَيِّدُهُ وَلِعِمَ دِمَهُ رَوْحَهُ
 رَاسِلُنَّ بِبَرِّهِ طَلَّتْهُ وَتَوَارَتْ ذَلِكَ دُرِّيَّتْهُ فَهُنْمُمْ تَسْعِيدَهُ
 بَارَادَتْهُ وَشَقَّاقَرَهُ وَاشْهَدَانَ لِأَللَّهِ الْإِلَهِ وَهُدَاهُ
 لِلْمُشْرِبِيَّ لَهُ بَشَّارَادَارِجَوْبَهَا الْكَلَامِ وَفَوْزُ بَهَارِيَّمِ الْمَذَاجَاهِ
 وَاشْهَادَانَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ خَلَفَهُ لِلْهُدُوكَ وَنَدَفَازَ مِنْهُ
 اَهْدِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُلَّالَهُ وَنَجِيَهُ وَسَارَ
 هَذَا خَاتَمُ حَلِيلِهِ وَدَمَنِهِ وَهُونِهِ وَسَعِيَهُ عَلَيْهِ
 الْمَنْدِمُ الْمَنْتَالِ وَالْأَهَادِيَّتِ الْمُنْقَسِوَتِ بِهَا الْمَنْجَنِ
 بَعْدَهُ فَرِفَ مِنَ الْعَوْلَةِ الْمُنْقَوِّدَةِ الْمُنْدَادَةِ أَرَادَهُ أَوْلَى الْمُعَلَّمَاتِ إِنْهُ
 خَلَ زَمَانَ يَلْمَسُورَانَ يَعْلَمُ عَنْهُمْ وَيَحْلَمُونَ لِمَنْ يَصْبِرُ
 الْجَلِبِ وَمُطَلِّبُوْنَ يَأْخُجُ مَا يَعْنِيهِمْ مِنَ الْمَلَدَدَهُمْ دَلَّتْ إِلَيْهِ
 أَنْ وَمَعَهُ أَهْدِيَ الْكَابِ وَلَعْنِهِ أَهْدِي مِنْ لَيْسَ الْهَلَمِ وَمِنْعَنَهِ
 عَلَيْهِ أَنْوَاءُ الْمُطَهَّرِ وَالْمُهَلَّمِ وَالْسَّبَاعِ فَاجْسَسَ لِهِمْ مِنْ لِلْمَارَانِ
 أَمَّا هُمْ بِرِحْدِهِ وَمِنْصَرِهِ فِي الْعَوْلَهِ وَسَعِيَهُ إِلَهُرِ بِهِهَا وَلَمَّا هُوَ
 كُمْ لِهِ وَحَلَهُ فَاجْتَنَّا الْحَكَمَ الْمُنْتَهَى وَالْحَسَنَ الْمُهُودَ وَأَمَّا الْمُلْكُ
 مِنْ لِأَهْدِيَتْهُ وَعِيهِمْ نَذَطَهُ الْعَلَهُ وَرَحَعَ عَلَيْهِمْ حَنْطَهُهُ مِنْ الْأَهْدِيَهُ
 الْمُدَثَّ وَاحْتَجَ لِهِ أَسْوَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ عَنْهُ بِرِيَانَ الْجَنْصَنَهِ

نموذج من نسختنا الخطية (الصفحة الأولى).

الشَّبَهَةُ وَالشَّكُّ [٣].

«فَإِنَّ الْكَاتِمَ لِدَمِ الْمُجْرَمِ فِي رَتْغِ مِنْتَقِعِ شَرِكَهِ إِلَيْاهُ فِيهِ [فَإِنَّ الْكَاتِمَ لِدَمِ الْمُجْرَمِ]
 فِي وَتَغِ مِبْتَغِ شَرِكَهِ فِيهِ]». ^٤

لِمَ يَقْبِضُ الْمُحْتَالُ وَلَا لِلْحَسْبِ [لِمَ يَقْبِضُ لِلْجَمَالِ وَلَا لِلْحَسْبِ]». ^٥

^٣ انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

^٤ انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

^٥ انظر: باب البويم والغربيان (الناشر).

«كذلك العالم يبصر الإثم قبيحه والبغى فيعلمه [...] يبصر الإثم فيجتنبه، والبر فيعمله».^٦

«فاطمئن إلى ما ذكرت وتومني [فاطمئن إلى ما ذكرت، وثق به مني]».^٧

ومن التحريف الذي أحسبه نشأ عن الإملاء:

«لقد أورتني [أورطني] الحرص والشره على كبر السن شر مورط».^٨
«لم يأتي [يأت] إليك شيئاً إلّا وكتني [كتت] ركبتي [ركبت] من غيرك مثله».^٩

وإذا عرف القارئ أنَّ كثيراً من هذه الجمل المحرَّفة تنفرد بها نسختنا، فلا يُمكن تصحيحها من النسخ الأخرى، وأنَّ بعضها يقابله تحريف مثله أو أشنع منه في نسخة شيخو، تبيَّن مقدار العناء الذي احتمل في رد هذه الجمل إلى صواب يطمئن إليه الباحث. ويرى القارئ مثلاً من تتبع الجمل المحرَّفة في مواضعها من ترجم الكتاب المختلفة في تعليقات باب «البوم والغربان» حيث يرى كيف صُحِّحت الجملة: «فإن من يرا كل القتل يرا كل الحيف»، فرُدَّت إلى أصلها: «فإنَّ من يواكل الفيل يواكل الحيف».

مزايا هذه النسخة

ولكنَّ هذه النسخة – على تحريفها وما فيها من سقط – تفضُّل النسخ المطبوعة كلها، وتحوي نصاً يُخالف ما في تلك النسخ مُخالفة بيِّنة، وتمتاز بمزايا منها:

(١) احتواها جُملًا طويلة تُشبه ما يُعرف من كلام ابن المفع في كتبه، وهذه الجمل تُلفَّ مختصرة أو ميسرة في النسخ الأخرى، وواضح أنَّ تصرُّف النسخ والقراء يكون بتقريب الكتاب وتيسير جمله لا العكس، فالجمل الطويلة المستعلقة في نسختنا حرية أن تكون أقرب إلى الأصل من الجمل القصيرة اليésire التي تقابلها في النسخ الأخرى.

^٦ انظر: باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند (الناشر).

^٧ انظر: باب السنور والجرذ (الناشر).

^٨ انظر: باب القرد والغيلم (الناشر).

^٩ انظر: باب اللبؤة والشعهر (الناشر).

(٢) ومنها أنَّ في نسختنا جملًا يتبعن فيها أثر الأسلوب الفارسي، وقد غُيِّرَت في النسخ الأخرى بما يدخلها في الأساليب العربية المألوفة، وهذه أمثلة منها:

«حتى غلب على صاحب البيت النعاس، وحمله النوم»^{١٠} فجملة: «حمله النوم» ترجمة لفظية للجملة الفارسية: «خواب أورا برد»، وفي النسخ الأخرى: «غلب الرجل النعاس».

«وعرفت أني — إن أوفقه على ما لا أعلم — أكُن كالصدق المخدوع الذي زعموا أنَّ جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجلٍ من الأغنياء ... إلخ»^{١١} وظاهرُ أن «الذِي» هنا ليست ملائمة للسياق، وليس بعدها عائدٌ على الموصول، ويُقابل «الذِي» في الفارسية: «كَه»، ولكن «كَه» تأتي أيضًا للتعميل أو التفريع، فكان ينبغي أن تترجم الجملة: فقد زعموا ... إلخ، ولكن المترجم وضع «الذِي» هنا موضع «كَه» التي جاءت في الأصل الفارسي للتعميل، وهي في غير موضعها، وفي النسخ الأخرى: «الذِي زعموا فيه» أو «في شأنه» وهي زيادة لتعريب الجملة، وفي شيخو (ص ٣٤): «الصدق المخدوع مثل الذي (كذا) زعموا أنه ذهب سارق ... إلخ».

«وأمَّا من دونه فقد تجري أمورهم فنوناً يغلب على أكثر ذلك الخطأ»^{١٢}، فوضع «ذلك» موضع الضمير فيه شبَّه بالعبارة الفارسية.

«فَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ»^{١٣} تشبه هذه الجملة التعبير الفارسي: «برسيده گفت»، «وتراكوا التاج على رأسه»^{١٤} فاستعمال «تركوا» في موضع «وضعوا» يشبه أن يكون ترجمة للكلمة: «گذاشتند»، وهي تأتي بمعنى «الترك» وبمعنى «الوضع»، وقد تُرجمت هنا بالمعنى الأول، والأولى بها المعنى الثاني.

^{١٠} انظر: باب عرض الكتاب (الناشر).

^{١١} انظر: باب بروزويه الطبيب (الناشر).

^{١٢} انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

^{١٣} انظر: باب ابن الملك وأصحابه (الناشر).

^{١٤} انظر: باب ابن الملك وأصحابه (الناشر).

(٣) ومن مزايا نسختنا كذلك استعمال كلمات صحيحة غير شائعة، وهذه الكلمات تغيّر في النسخ الأخرى إلى كلمات مألوفة، ومن أمثلة هذا:

«آمال أم اللذاتُ أم الصوتُ أم أجرُ الآخرة؟»^{١٥}، فاستعمال «الصوت» بمعنى «الصيت» صحيح، ولكن النسخ الأخرى غيرته إلى «الصيت» أو «الذكر»، وفي نسخة «شيخو» (ص ٣١): «الصون»، وهو تحريف «الصوت». «فقال الأسد لقرايبينه»^{١٦}، فاستعمال كلمة «قرايبين» بمعنى خاصة الملك، وتغييرها في النسخ الأخرى إلى «جلسائه» ونحوها إيثاراً للكلام المألوف. «السلطان»^{١٧} استعملت هذه الكلمة بمعنى الجمع، وهو استعمال قديم صحيح، وقد استعمل في النسخ الأخرى بمعنى المفرد. «وكانت للكهم ابنة كريمة، وكانت حاملاً فأصابها بطن»^{١٨} «البطن» وجع البطن، وقد غيرت في النسخ الأخرى إلى «وجع البطن». «فإنَّ أولى أهل الدنيا بطيب العيش وكثرة السرور وحسن الثناء من لا يزال رحله موطوءاً من إخوانه»^{١٩} ومثل هذا في شيخو من التحريف؛ يُقابل هذا في النسخ الأخرى: «من لا يزال ربّه من إخوانه وأصدقائه معهوراً»، فقد غير رحله موطوءاً إلى «ربّه معهوراً» تقريباً للعبارة.

فتغيير النسخ الأخرى هذه الجمل أريد به تيسير الكتاب، والنسخة التي تشتمل على الألفاظ الصحيحة المستعملة عند خاصة الكتاب أقرب إلى الأصل من النسخ التي تُقابل هذه الألفاظ بألفاظ شائعة مألوفة عند عامة القراء.

(٤) ويقرب من هذا حرص نسختنا على ذكر أسماء للمدن والأشخاص لا تذكّر في النسخ الأخرى، وحفظها لبعض الأسماء صيفاً أغرب مما في غيرها، وهذا كثيرٌ يمكن

^{١٥} انظر: باب بربويه الطبيب (الناشر).

^{١٦} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

^{١٧} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

^{١٨} انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

^{١٩} انظر: باب الحمام المطوقة (الناشر).

تبقيه في كل فصول الكتاب، ومن أمثلة هذا أسماء الرجلين: «آذرهربد»^{٢٠} و«أزوبيه»^{٢١}، وأسم الأسد: «بنكلة»^{٢٢}، وأرض «مردات»^{٢٣}، ومدينة «برود»^{٢٤}، وانظر الأسماء في باب «إبلاد وإيراخت وشادرم».

والظاهر أنَّ النسخ الأخرى حذفت هذه الأسماء الأعجمية اختصاراً وتخفيفاً على القراء.

(٥) والخامس مما تفضل به نسختنا النسخ المطبوعة أنَّ نصوصها أقرب في الجملة إلى النصوص التي تُلْفَى في كتب قديمة مثل كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة المتفوِّن سنة ٢٧٦، ففي هذا الكتاب جملٌ كثيرة منقولة عن كتاب «كليلة ودمنة» ينسبها المؤلف إلى هذا الكتاب تصريحاً، أو يقول: «وَقَرَأْتُ فِي كِتَابِ الْهَنْدِ»، والظاهر أنَّ ابن قتيبة لا يلتزم نص الكتاب دون تغيير، ولكن ما نقله يصلح أن يكون بالفاظه أو معانيه مقاييسًا بين النسخ المتأخرة من هذا الكتاب.

ويرى القارئ أمثلة فيما يأتي:

(أ) عيون الأخبار: « وإنما تشبه بالجبل الوعر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية، فالارتفاع إليه شديد، والمقام فيه أشد» (ج ١٩ ص ١٩).

نسختنا: « وإنما شبَّه العلماء السلطان بالجبل الوعر الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدن السباع المخوفة، فالارتفاع إليه شديد، والمقام فيه أشد وأهول»^{٢٥}.
النسخ الأخرى: « وإنما شبَّه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذي فيه الثمار الطيبة، والجواهر النفيسة، والأدوية النافعة، وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضارٌ مخوف، فالارتفاع إليه شديد والمقام فيه أشد» طبارة (الطبعة الرابعة ص ٩٦).

^{٢٠} انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان بربزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).

^{٢١} انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان بربزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).

^{٢٢} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

^{٢٣} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

^{٢٤} انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر).

^{٢٥} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

(ب) عيون الأخبار: «إنما مثل السلطان في قلة وفائه للأصحاب وسخاء نفسه عنْ فقد منهم مثل البغي والمكتَب كُلَّما ذهب واحد جاء آخر» (ج ١ ص ٢٥).

نسختنا: «إنما مثلهم في قلة وفائهم لأصحابهم وسخاء أنفسهم عنْ فقدوا منهم مثل البغي كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه». ^{٢٦}
النسخ الأخرى: لا تلفى هذه الجملة.

(ج) عيون الأخبار: «ثلاثة أشياء تزيد في الأُنْس والثقة: الزيارة في الرحل، والمؤاكلة، ومعرفة الأهل والحشم» (ج ٢ ص ٢٤).

نسختنا: «إن أموراً ثلاثة تزداد بها لطافة ما بين الإخوان، واسترسال بعضهم إلى بعض، منها المؤاكلة، ومنها الزيارة في الرَّحل، ومنها معرفة الأهل والحشم». ^{٢٧}
النسخ الأخرى: لا توجد الجملة في المصرية وطبارية. وفي اليازجي: «فإنَّ أَفْضَلَ مَا يلتمسه المَرءُ مِنْ أَخْلَائِهِ أَنْ يَغْشَوْهُ مِنْزَلَهُ، وَيَنْتَلَوْهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَيَعْرَفُهُمْ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ وَجِيرَانُهُ» اليازجي (ص ٢٧٢).

(د) عيون الأخبار: «ثلاثة يُهَزأُ بهم: مدَّعي الحرب ولقاء الزحوف وشدة النكایة في الأداء وبدنه سليم لا أثرَ به، ومتخلِّ علم الدين والاجتهاد في العبادة، وهو غليظ الرقبة أسمَنَ الأئمَّة ... إلخ» (ج ٢ ص ٢٠).

نسختنا: «ثلاثة ينبغي أن يُسخرُ منهم: الذي يقول شهدت زحوفاً كثيرة فأكثرت القتل ولا يُرى في جسمه شيءٌ من آثار القتال، والذي يُخبر أنه عالم بالدين ناسك مجتهد وهو بادن غليظ الرقبة لا يُرى عليه أثر التخشُّع ... إلخ». ^{٢٨}

النسخ الأخرى: في شيخو قريب مما هنا بعد تصحيح التحرير الشنبع، ولا توجد الجملة في النسخ الأخرى.

(ه) وكذلك الجملة: «أربعة يخالفون مما لا ينبغي ... إلخ». نسختنا ^{٢٩} يُرى نظيرها في «عيون الأخبار»، ولا تُعرف في النسخ الأخرى.

^{٢٦} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

^{٢٧} انظر: باب القرد والغيلم (الناشر).

^{٢٨} انظر: باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند (الناشر).

^{٢٩} انظر: باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند (الناشر).

(و) ونجد مثلاً آخر في هذه الجملة من نسختنا:^{٣٠} «كالأسد الذي يفترس الأربب، فإذا رأى العَيْر تركها وأخذها»، في نسخة شيخو (ص ٥٦): «إذا رأى الأَتَان»، وفي النسخ الأخرى: «البعير»، وفي منظومة أبان بن عبد الحميد التي نظمها للبرامكة:

كالأسد الذي يصيد أَرْبَاباً
ثم يرى العَيْر المَجَد هرباً
فيرسل الأَرْبَب من أَظْفَارِه
ويتبع العَيْر على إِدبارِه

(٤-١) نماذج من اختلاف النسخ

يحرar قارئ الكتاب فيما بين نسخه من تخالف وتقارب واتفاق: في بعض الصفحات تختلف النسخ اختلافاً بيّناً، وفي بعضها تقارب في المعنى واللفظ، وفي أخرى تتفق؛ ولكن الاتفاق يندر بين نسختنا والنسخ المطبوعة في مصر والشام، حاشا شيخو فإنَّ موافقتها نسختنا كثيرة، بل توافقهما أكثر من تخالفهما.

وليس أَبُوابُ الْكِتَابِ سواءً في تقارب النسخ وتبعدها، بل بعض الأَبُواب كباب «إِبْلَادٌ وَإِرْأَخْتٌ وَشَادِرْمٌ» يتضح فيه تقارب النسخ، وبعضها كباب «الْأَسَدُ وَالثُورُ» يتضح فيها التباعد، كأنَّ الأَبُواب الأَكْثَر نصيباً من عناية القراء كانت أكثر نصيباً من التغيير، على أنَّ الباب الواحد فيه فصول مُتقاربة وأخرى متباعدة. وسأبحثُ في أسباب اختلاف نسخ الكتاب حين الكلام على ترجمته إلى العربية، وأعرض فيما يلي على القارئ قصة السمكـات الثلاث منقولـة من نسخٍ مختلفة؛ لتكون مثلاً لما بينها من تباعد وتقارب:

نسختنا: «زعموا أنَّ غديراً كان فيه ثلاثة سمكـات: كيـسة، وأكـيسـنـ منها، وعاجـزة، وكان ذلك المكان بنجـوة من الأرض، لا يكـاد يقرـبـهـ من الناس أحدـ، فلـماـ كانـ ذاتـ يومـ مرـ صيـادـانـ علىـ ذلكـ الغـديرـ مجـتازـينـ، فـتوـاعـداـ أنـ يـرجـعواـ إـلـيـهـ بـشـاكـهـمـاـ فـيـصـيـداـ الـثـلـاثـ السـمـكـاتـ الـلـوـاـتـيـ رـأـيـاهـنـ فـيـهـ، فـلـمـ رـأـتـهـمـاـ الـحـازـمـةـ اـرـتـابـتـ بـهـمـ، وـتـخـوـفـتـ مـنـهـمـ، فـلـمـ تـعـرـجـ أـنـ خـرـجـتـ مـنـ مـدـخـلـ المـاءـ إـلـىـ النـهـرـ، وـأـمـاـ الـكـيـسـةـ فـتـلـبـثـتـ حـتـىـ جاءـ الصـيـادـانـ،

^{٣٠} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

فلما أبصرتهما قد سدا مخرجها، وعرفت الذي يريdan بها قالت: فرطت، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص، وقلما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكن العالم لا يقنط على كل حال، ولا يدع الأخذ بالرأي، ثم تماوت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة، فأخذتها فألقياها على الأرض غير بعيد من النهر، فوثبت فيه فنجت منها، وأمام العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صادها».^{٣١}

شيخو: «زعموا أن غديراً كان فيه ثلاثة سمك عظام، وكان ذلك الغدير بفجوة من الأرض لا يقربها أحد، فلما كان ذات يوم من هنالك (كذا) أتى صيادان محتازان، فتواعدا أن يرجعا بشكتهما فيصيدا تلك السمك الثلاث التي رأيا فيه، وأن سمكة منهم كانت أعقلهن وإنما ارتات وتخوّفت فعاجلت الأخذ بالحزم، فخرجت من مدخل الماء الذي كان يخرج من الغدير إلى النهر، فتحولت إلى مكان غيره، وأمام الأخرى التي كانت دونها في العقل فأخررت معاجلة الحزم حتى جاء الصيادان فقالت: قد فرطت وهذه عاقبة التفريط، فرأتهما وعرفت ما يريدان، فوجدتھما قد سدا ذلك المخرج، فقالت: قد فرطت فكيف الحيلة على هذا الحال للخلاص؟ وقلما تنجح حيلة العجلة والإلهاق، ولكن لا نقنط على حال ولا ندع ألوان الطلب، ثم إنها للحيلة تماوت فطفت على الماء منقلبة على ظهرها فأخذتها (فأخذها) الصيادان يحسبان أنها ميتة، فوضعها على شفير النهر الذي يصب في الغدير فوثبت في النهر فنجت من الصيادين، وأمام العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدتْ» (ص ٧٥).

اليازجي: «زعموا أن غديراً كان فيه ثلاثة من السمك: كيسة وأكياس منها وعاجزة، وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد وبقريبه نهر جار، فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك، فسمع السمك قولهما، فأماماً أكياسهن فلما سمعت قولهما ارتات بهما وتخوّفت منها، فلم تعرج على شيءٍ حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير فنجت بنفسها، وأمام الكيسة الأخرى فإنها مكثت مكانها وتهاونت في الأمر حتى جاء الصيادان، فلما رأتهما وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء؛ فإذا بهما قد سدا ذلك المكان، فحيينـ قالـت: فرطت وهذه عاقبة التفريط،

^{٣١} انظر: باب الأسد والثور (الناشر).

فكيف الحيلة على هذه الحال وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ولا ييأس على حال ولا يدع الرأي والجهد، ثم إنها تماوحت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنهما، فأخذها الصيادان وظنناها ميتة، فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر فنجت، وأمام العاجزة فلم تزل في إقبال وإدار حتى صيدت.» (ص ١٤٤).

(٥-١) نسختنا ونسخة شيخو

أقرب النسخ إلى نسختنا نسخة شيخو، وهي على كثرة تحريفها واضطرابها تقارب نسختنا في أكثر الفصول، وقد تختلفان بالزيادة والنقص والإجمال والتفصيل واختلاف الألفاظ.

ونجد فيما جملًا مستغلقة لم يتصرف فيها الكتاب كما تصرفوا في الأخرى، نجد في باب «بعثة بربويه» أثناء الكلام على بربويه وصديقه الهندي هذه الجملة:

«فلم يطمئن إلى أحدٍ منهم إلا إلى صديقه ذلك عندما ورد عليه، وكيف فتنش عقله ووثق به واطمأن إليه أن قال له ... إلخ» نسختنا وقد أصلحت العبارة.^{٢٢} «وكان مما حكم به بربويه صديقه ذلك، والذي رد عليه، وكيف فتنش عقله حتى وثق به واطمأن إليه أن قال له» شيخو (ص ٢٢).

وهي جملة مضطربة متتشابهة في النسختين.

وبعد هذه الجملة بسطر نجد في النسختين:

«فاعلم أنني لأمرِ جئت، وهو غير ما ترى يظهر مني» نسختنا.^{٢٣}
 «فاعلم أنني لأمر ما جئت له، وهو غير ما ترى يظهر مني» شيخو (ص ٢٢).

^{٢٢} انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان بربويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).

^{٢٣} انظر: باب توجيه كسرى أنو شروان بربويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر).

فالجملة: «وهو غير ما ترى يظهر مني» على غرابتها مشتركة فيهما، وقد غُيّرت في النسخ الأخرى إلى: «وهو غير الذي يظهر مني».

وهذه الجمل المستغربة في هاتين النسختين تدلان على أصل صحيح تنتهيان إليه، ومن العجيب أنهما تتفقان أحياناً على تحريف، ففي قصة «الأسد والشعاير»:

«فَلَمَّا اجتمعوا على ذلك من كيدهم؛ دُسُوا ذات يوم للحم كان الأسد استظرفه». ^{٢٤} نسختنا.

«فَلَمَّا أجمعوا على ذلك لكيدهم دُسُوا ذات يوم للحم كان الأسد استظرفه» شيخو (ص ٢٢١).

والصواب: «دُبُوا» وقد حُرِفت في النسختين إلى: «دُسُوا». وفي الباب نفسه نجد في النسختين:

«وذلك سريعاً في إضاعة الأمر، وجلب عظيم الخطر». ^{٢٥} نسختنا.
«وذلك سريعاً (كذا) في ضياعة الأمر وانتشاره وجلب عظيم الضرر والعيب» شيخو (ص ٢٢٣).

والصواب: «سريع» وقد حُرِفت في النسختين إلى: «سريعاً». وبعد هذا بقليل:

«صاحب الخمر الذي أراد شراءها احتاج إلى اختبار لونها وطعمها». ^{٢٦} نسختنا.

«صاحب الخمر الذي أراد أن يشتريها احتاج إلى اختبار لونها وطعمها وريحها» شيخو (ص ٢٢٤).

والظاهر أنَّ الصواب: «صاحب الخمر إذا أراد ... إلخ».

^{٢٤} انظر: باب الأسد وابن آوى (الناشر).

^{٢٥} انظر: باب الأسد وابن آوى (الناشر).

^{٢٦} انظر: باب الأسد وابن آوى (الناشر).

وفي باب ابن الملك وأصحابه:

«ثم قال بعضهم لبعضٍ: انصرفوا يومكم هذا حتى نكسر عليكم ويرخصوه علينا». نسختنا.^{٣٧}

«انصرفوا يومكم هذا حتى نكسر عليهم فيرخصوا علينا» شيخو (ص ٢٣٥).

والظاهر أنَّ كلمة: «نكسر» محرفة من: «يكُسُد».

وفي باب «الناسك والضيف» في النسختين:

«وليس في بلادي الذي أسكنها» نسختنا.^{٣٨}

«وليس في بلادي الذي (التي) أسكنها» شيخو (ص ٢٤٣).

والصواب: «التي» وقد حُرِفَت في النسختين إلى: «الذى».

وأرى أنَّ الاتفاق على هذا التحريف يدلُّ على أصلٍ واحدٍ قد بُعْدِت الوسائط بينهما وبينه، وقد أصابَ نسخة شيخو من التحريف ما لم يُصُبْ نسختنا.

(٢) القسم الثاني: أصول الكتاب وترجمته وأبوابه

(١-٢) الشرق مهد الأمثال

بلاد الشرق مهد القصص والأمثال المضروبة على أسنن الحيوان، وكانت الهند خاصةً مهد قصص حكيمة شاعت في أرجاء الأرض، انتقلت إلى بلاد الصين والتبت وإيران، وبلغت أوروبا في عصور قديمة، وكثيرٌ من أساطير إيسوب *Aesop* تتخللها أمثالٌ شرقية. وذاعت من بين قصص الهند وأمثالها طائفةٌ من القصص جُمعت في كتابين، أحدهما مأخوذ من الآخر، أو كلاهما مأخوذٌ من أصل واحدٍ على اختلافهما في الأسلوب وفي بعض القصص.

^{٣٧} انظر: باب ابن الملك وأصحابه (الناشر).

^{٣٨} انظر: باب الناسك والضيف (الناشر).

يعرف أحد هذين الكتابين باسم: «بنج تنترا» أي: خمسة أبواب، وقد عثر عليه الأستاذ هرتل، وعُني به الباحثون، وطُبع وتُرجم إلى لغات أوروبية عدة، ويرى هرتل أنَّ مؤلفه حكيم هندي اسمه: بَرَهْمَنْ وِشْنُو، أَلْفَهْ حَوَالِي سَنَة ٣٠٠ م. ويُسمى الكتاب الثاني: «هتوبادشا» أي: نصيحة الصديق، وقد شاع في أوروبا، وتُرجم إلى بعض لغاتها وتُرجم إلى الإنجليزية ثلاثة مرات.

(٢-٢) كليلة ودمنة: كتاب هندي

يقول ابن خلkan: «ويُقال إن ابن المفع هو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة، وقيل إنه لم يضعه، وإنما كان فارسيًّا فنقله إلى العربية، وإن كان الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه.» وقد شكَّ بعض الناس في أمر الكتاب، ورددوا رواية ابن خلkan، وهذا كلام لا وزن له.

فلم يبقَ ريبٌ في أنَّ الكتاب هندي الأصل، وقد عُثر على معظم أبوابه في الكتابين: «بنج تنترا» و«هتوبادشا» من الكتب الهندية.
وقد عرف هذا من قبل العلامة الحق أبو الريحان البيروني، فقال في كتابه «تحقيق ما للهند من مقوله»:

ولهم (أي للهند) فنونٌ من العلم أُخْرَ كثيرة، وكتبٌ لا تکاد تُحصى، ولكنني لم أحِظ بها علَّما، وبؤُدي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب بنج تنترا، وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة، فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمنون تغييرهم إياها كعبد الله بن المفع في زيادته بباب بربزويه فيه قاصداً تشكيك ضعف العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المذاهب، وإذا كان متهمًا فيما زاد لم يخلُ عن مثله فيما نقل.

ليس لدينا إذن ما يدعو إلى الشك في الرواية المتداولة أنَّ هذا الكتاب تُرجم من الهندية إلى الفهلوية، ثم تُرجم إلى العربية في القرن الثاني من الهجرة، وأمَّا الأخبار التي يتضمنها باب «بعثة بربزويه» فسنعرض لها من بعد.

(٣-٢) نقل الكتاب من الهندية إلى الفهلوية

ليس عندنا ما يمنع من قبول ما تضمنه باب «بعثة بربويه» من أنَّ الكتاب نُقل إلى الفهلوية في عهد كسرى أنس شروان، نقله بعض أطباء الفرس الذين ساحوا في بلاد الهند وعرفوا اللغة الهندية.

هذا هو الأصل الذي كُتب عليه باب «بعثة بربويه»، وهو جدير بالقبول، وليس لدينا ما يدعو إلى الشكُّ فيه، وأمَّا إرسال كسرى بربويه إلى الهند لينقل الكتاب إلى الفهلوية، واحتياله للاطلاع على الكتاب، وبمبالغة الهند في منع الأجانب أن يطعوا على كتابهم، فهو مما حاكه الخيال لإكبار بربويه والإعجاب بعمله والإشادة به وتعظيم قدر الكتاب.

وقصة سفر بربويه إلى الهند ترويها «الشاهنامه» وكتب الشاعالي «غرر أخبار ملوك الفرس»، ولكن قصة «الشاهنامه» تختلف ما هنا بعض المخالف، وإليك إجمالها:

جاء بربويه إلى أنس شروان، وقال: أئُلها الملك، إني قرأت في كتاب هندي أنَّ في جبال الهند عشبًا إذا رُكِب منه دواءً فتُنْتَر على ميت ارتدى حيًّا، فجهَّزه أنس شروان وسيَرِه إلى الهند، وبعث معه كتاباً إلى الملك؛ فلما أخذ ملك الهند الهدايا وقرأ الكتاب جمع علماءه وسيَرِهم مع بربويه لطلب هذا العُشب في الجبال، فجمعوا كل ضرب من العشب وجربوه، فما أحيا ميَّتاً، فندم بربويه على ما جسم نفسه من مشاق السفر والطلب، وتحيرَ ماذا يقول للملك أنس شروان، ثم سأله من كان معه من العلماء: أتعرفون في الهند أعلم منكم؟ قالوا: نعم، شيخ يفضلنا علماً وسنًا، فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال: أمَّا الجبال فهي العلوم، وأمَّا الموتى فهم الجُهَّال، وأمَّا العشب فكتاب في خزائن ملك الهند يُسمى «كليلة ودمنة» يحيي موتى الجهل، فأسرع بربويه إلى ملك الهند يرجو أن يطلع على الكتاب، فاغتمَّ الملك، وقال: ما طلب أحد هذا الطلب من قبل، ولكننا لا نضُنُّ على الملك أنس شروان بشيء، وأمر أن يؤتى بالكتاب وأن يطلع بربويه عليه أمامه حتى لا يظنَّ أحدُ أنه نَسَخه، فكان بربويه يقرأ كل يوم فصلًا، إلى آخر ما في القصة التي في باب «بعثة بربويه».

٤-٢) هل تُرجم الكتاب إلى العربية أكثر من مرة؟

يقول صاحب «الفهرست» وهو يعدد أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث: «كتاب كليلة ودمنة، وهو سبعة عشر باباً، وقيل: ثمانية عشر باباً، فسره عبد الله بن المقفع وغيره»، والتفسير هنا معناه الترجمة.

وقد نقل الأب شيخو الجملة الآتية من نسخة محفوظة في مكتبة أبي صوفيا، مكتوبة سنة ٨٨٠ هـ:

هذا كتاب كليلة ودمنة الذي استخرجه بربوبيه المتطلب الحكيم من بلاد الهند، ونقله من الهندية إلى الفارسية لكرسي أبو شروان بن قباز بن فيروز ملك فارس، ونقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن علي الأهزوي ليحيى بن خالد بن برمك، في خلافة المهدي أحد خلفاءبني العباس، وذلك في سنة خمس وستين ومائة، وقد نظمه سهل بن نوبخت الحكيم الفاضل ليحيى بن خالد البرمكي وزير المهدي والرشيد، فلما وقف عليه ورأى حسن نظمه أجازه على ذلك ألف دينار (مقدمة شيخو ص ٢٠).

فهذا تصريح باسم مترجم غير ابن المقفع. وفي «كشف الظنون» لحاجي خليفة:

ثم ترجمه في الإسلام عبد الله بن المقفع كاتب أبي جعفر المنصور العباسي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، ثم نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهزوي ليحيى بن خالد البرمكي في خلافة المهدي، وذلك في سنة خمس وستين ومائة، ونظم سهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد المذكور وزير المهدي والرشيد، فلما وقف عليه أجازه بألف دينار.

لا يستطيع الباحث أن يقطع رأياً فيما نقله شيخو عن نسخة أبي صوفيا حتى يرى النسخة، ويرى موضع هذه الجملة في مقدمتها، هل هي ملحقة بقلم أحد القراء أو هي من متن النسخة؟ فإن كانت الأولى فلعلها نقلت عن «كشف الظنون»، وإن كانت الثانية فلعل صاحب «كشف الظنون» نقلها، والعبارات متتشابهتان في الكتابتين.

وأمّا إغفال اسم ابن المقفع في النسخة التي ذكرها شيخو، فلا يدلّ على أنها ترجمة أخرى تخالف النسخ التي بأيديينا، فإنّ النسخة، وكما يتبيّن من قطعة نقلها شيخو من باب «الأسد والثور»، تُشَابِه النسخ الأخرى مشابهة قريبة، وأكْبَرُ الظَّنَّ أنَّ بعض النسخ

أو القراء كتب في صدر الكتاب ما كتب نقلًا عن بعض الكتب التي ذكرت من ترجموا «كليلة ودمنة».

ومهما نُقل في إغفال هذه النسخة اسم ابن المقفع واقتصرارها على اسم المترجم الآخر، فقد اجتمع لنا ثلاثة نصوص تذكر غير ابن المقفع: صاحب «الفهرست» يقول: «فسره عبد الله بن المقفع وغيره»، ونسخة أيا صوفيا، و«كشف الظنون» يُسمّيان: «عبد الله بن علي الأهوazi» أو «عبد الله بن هلال الأهوazi». وهذه مسألة لها خطرها في تاريخ الكتاب واختلاف نسخه.

٥-٢) هل يُفسّر اختلاف النسخ باختلاف الترجمة؟

قلت فيما تقدم إن نسخ الكتاب تختلف اختلافاً يدعو الباحث إلى أن يظن أن الكتاب تُرجم أكثر من مرة، فهل اختلاف النسخ التي أمامنا يرجع إلى اختلاف الترجمة؟

هذا البحث لا يمكن أن يوفّ حقيقه من النظر ومقابلة النصوص إلا بعد الاطلاع على مخطوطات صحيحة متعددة، وليس لدينا الآن من النصوص التي يُوثق بها بعض الثقة إلا نسختنا ونسخة شيخو، وهما متقاربان لا يمكن أن تكونا ترجمتين مختلفتين، وإنما الخلاف الكبير بينهما وبين النسخ الأخرى الملفقة كما بيّنت آنفًا، وهذا التلقيق يمنعنا أن نقطع رأياً في هذا الشأن، فإني أجد اختلافاً بين نسختنا وهذه النسخ يُشبه أن يكون اختلافاً بين ترجمتين، ثم أجد جملًا متماثلة لا تصدر إلا عن كاتب واحد، ولستُ أستطيع أن أتبين صلة هذه الجمل المتماثلة بالمتون المختلفة لما دخل النصوص من التلقيق.

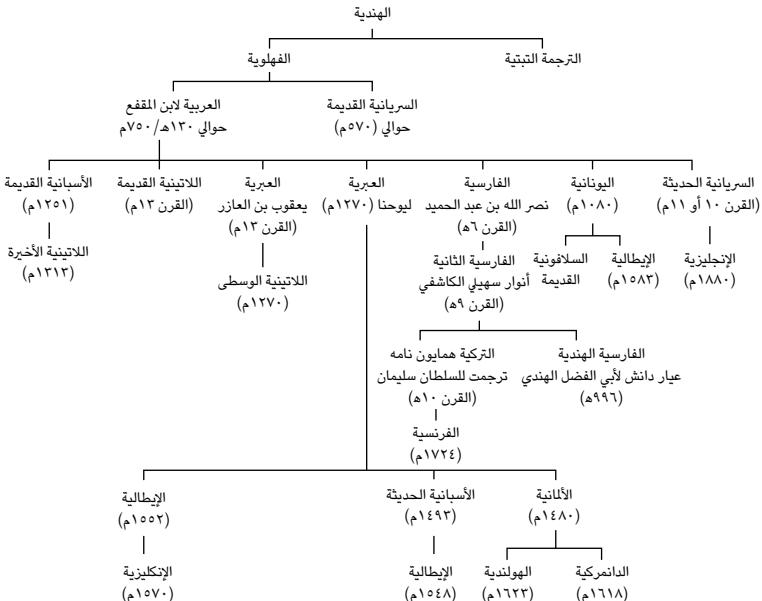
على أني — مع إعوان النصوص التي تُعين على صحة الرأي — أرجح أن اختلاف النسخ التي بين أيدينا ليس اختلاف ترجمة إلا في زيادة بعض الأبواب ونقصها، وهي أبواب يتبيّن فيها أسلوب يخالف أسلوب ابن المقفع، وسيأتي بيان هذا.

فإن لم يكن اختلاف النسخ اختلاف ترجمة، فكيف وقع في الكتاب؟ قبل إجابة هذا السؤال ينبغي أن نجيب سؤالاً آخر: لماذا تُرجم الكتاب أكثر من مرة؟

ترجمه عبد الله بن المقفع، ثم ترجمه عبد الله بن هلال الأهوazi، ونظمه أبان اللاحقي ثم سهل بن نويخت ثم ابن البتارية من بعد.

وكذلك تُرجم من العربية إلى الفارسية أيام السامانيين، ثم ترجمه نصر الله بن عبد الحميد في عهد الغزنوين، ثم ترجمه الكاشفي في القرن العاشر، ونظم بالفارسية أكثر من مرة.

ترجم «كليلة ودمنة»



وكذلك تعددت ترجمات الكتاب في بعض اللغات الأوروبية (انظر جدول الترجم). سبب تعدد الترجمة في اللغة الواحدة أنه كتاب أدبي ذو قصص ومواعظ، يختلف الكتاب في إجمالها وتفصيلها، وفي طريقة قصصها وأسلوب بيانها، فربما يبدو لمترجم أن يخالف من سبقه بالإجمال والتفصيل أو التأنيق في العبارة وتسويتها، وهكذا. وهذا السبب الذي دعا إلى تعدد ترجمات الكتاب في اللغة الواحدة هو الذي أدى إلى اختلاف نسخه وإن رجعت إلى ترجمة واحدة، فقد لقيَ هذا الكتاب من عناية الأدباء والمؤدبين ما جعله كتاب تأديب، وحاول بعض الكتاب والمؤدبين أن ييسّروا بعض عباراته أو يغربوا فيها، وأن يوجزوا فيها أو يطبلوها، فكان من ذلك اختلاف نسخ الكتاب. ولعل تعدد الترجمة قد يسر للناس التصرف في أسلوب الكتاب بعد قياس ترجمة بآخرى، أو سوّغ لهم أن يدخلوا عبارات ترجمة في عبارات ترجمة أخرى وهكذا، ولعل

أسلوب ابن المفعع — وهو طويل الجمل مُستغلق أحياناً — دعا إلى تغيير كثير في متن الكتاب.

وبعد: فهي قضية لا بدّ للفصل فيها من مقايسة مخطوطات لا نستطيع الاطلاع عليها الآن، وعسى أن تُتاح الفرصة من بعد بتوفيق الله.

(٦-٢) أبواب الكتاب

الأبواب التي تحتويها النسخ المختلفة من هذا الكتاب تنقسم إلى الأقسام الآتية:

(١) المقدمات وهي: «مقدمة علي بن الشاه الفارسي»، «عرض الكتاب لابن المفعع»، «بعثة بربوبيه إلى بلاد الهند»، «باب بربوبيه الطيب».

(٢) الأبواب الخمسة الأولى، بعد استثناء «باب الفحص عن أمر دمنة»، وهي الأبواب التي يحتويها الأصل الهندي «بنج تنتر»: «الأسد والثور»، «الحمامة المطوقة»، «البوم والغربان»، «القرد والغليم»، «الناسك وابن عرس».

ويتبع هذا القسم باب «الفحص عن أمر دمنة»، وهو بعد باب «الأسد والثور» ومكمل له، وباب «السائح والصواغ» وقد جاءت قصته في أثناء الباب الأول من «بنج تنتر».

(٣) والقسم الثالث: الأبواب الثلاثة التي تلي الخمسة المعدودة في القسم الثاني، وهي معروفة في كتاب «المهابهارتا»: «الجرذ والسنور»، «الملك والطائر»، «الأسد وابن آوى».

(٤) والقسم الرابع: الأبواب الأخرى، وهي قسمان:

(أ) الأبواب التي تتفق عليها النسخ وهي: «إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند»، «اللبؤة والأسوار»، «الناسك والضييف»، «ابن الملك وأصحابه».

(ب) الأبواب التي توجد في بعض النسخ دون بعض، وهي: «ملك الجرذان»، «مالك الحزين والبطة»، «الحمامة والثعلب ومالك الحزين».

فهذه واحدٌ وعشرون باباً تتضمنها نسخ الكتاب على اختلافها، وإذا تركنا المقدمات جانبًا، وأخرجنا الأبواب الأخيرة التي تختلف فيها النسخ؛ بقي أربعة عشر باباً، منها تسعة معروفة في اللغة السنسكريتية، وهي الخمسة التي في «بنج تنتر» وباب «السائح والصواغ» الذي يتضمنه الباب الأول من ذلك الكتاب، والثلاثة التي في «المهابهارتا»،

والخمسة الباقية لم تُعرف في اللغة الهندية حتى اليوم، وهي باب «الفحص عن أمر دمنة» والأبواب الأربع الأولى من القسم الرابع.

ونجد في الترجمة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد فهرس الكتاب في نهاية باب «بعثة بربزويه» على هذه الصورة: «وكتاب كليلة ودمنة هذا ستة عشر باباً، منها الأصلي الذي وضعه الهند وهو عشرة أبواب، ومنها ما ألحقه الفرس وهو ستة أبواب»، ثم يذكر العشرة الهندية، وهي خمسة أبواب الأولى التي يتضمنها «بنج تنtra»، وباب «الفحص عن أمر دمنة»، وثلاثة أبواب التي في «المهابهارتا» يُزاد عليها باب «الأسوار واللبوة»، ويعدّ المترجم بعدها الأبواب التي ألحقها الفرس، وهي بابان من المقدمات وأربعة من أبواب الكتاب.

وهذا نسق الأبواب كلها كما ذكرت في هذا الفهرس:

الأبواب الهندية

- (أ) «الأسد والثور»، «الفحص عن أمر دمنة»، «الحمامة المطوقة»، «البوم والغربان»، «القرد والسلحفاة»، «الناسك وابن عرس»، (وهي الخمسة التي في بنج تنtra).
- (ب) «الجرذ والستور»، «الملك والطائر»، «الأسد وابن آوى»، (وهي الثلاثة التي في المهابهارتا).
- (ج) «الأسوار واللبوة».

الأبواب الفارسية

- (أ) «ابتداء كليلة ودمنة» (وهو الذي يُسمى في النسخ الأخرى بباب «عرض الكتاب لابن المفع»، وهو في هذه النسخة منسوب إلى بزرجمهر)، وباب «بربزويه الطبيب».
 - (ب) «الناسك والضيف»، «إبلاد والبراهمة»، «السائح والصايغ»، «ابن الملك وأصحابه».
- وأعرض على القارئ في الصفحات التالية تفصيل الكلام في أبواب الكتاب كلها.

القسم الأول من أبواب الكتاب: المقدمات

فأمّا «مقدمة علي بن الشاه الفارسي» فلا ريب أنها زيدت على بعض النسخ العربية بعد ابن المفع بقرنين أو أكثر، وقد خلت منها كثيراً من النسخ العربية القديمة كنسختنا ونسخة شيخو، كما خلت منها الترجم التي أخذت عن العربية كلها، ويرى نلدركه أنَّ كاتب هذه المقدمة هو علي بن محمد بن شاه الطاهري، من نسل الشاه ابن ميكال المتوفى سنة ٣٠٢ هـ.

وهي مقدمة طويلة تضمنت بعض الأساطير التي خلفتها فتوح الإسكندر المقدوني في الشرق، وأريده بها الإبانة عن السبب الذي من أجله وضع هذا الكتاب، والتعريف ب بشيلم الملك وبيديبا الفيلسوف اللذين يُذكران في فواتح الأبواب.

وإذا اكتفينا بهذه الكلمات عن هذه «المقدمة» بقى من القسم الأول ثلاثة أبواب: باب «عرض الكتاب لابن المفع»، وباب «بعثة برزويه إلى بلاد الهند لتحصيل الكتاب»، وباب «برزويه الطبيب».

والترتيب الطبيعي أن تتولى الأبواب على هذا النّسق، وهي كذلك في نُسختنا، ولكن النسخ الأخرى — عدا نسخة شيخو — تضع باب «عرض الكتاب لابن المفع» بين باب «بعثة برزويه» وباب «برزويه الطبيب»، ونسخة شيخو تضع باب «عرض الكتاب لابن المفع» بعد البابين، وهو فيها ناقص سقطاً أكثره، وبعض النسخ العربية وترجمة نصر الله الفارسية تضع فهرس الأبواب في آخر باب «بعثة برزويه» قبل باب «عرض الكتاب لابن المفع».

ويتبين من هذا أنَّ النسخ العربية تختلف في الترتيب بين باب «بعثة برزويه» وباب «عرض الكتاب»، ولكنَّ هذه النسخ تتفق على نسبة عرض الكتاب إلى ابن المفع، وتخالفها النسخة الفارسية، فتفتح الباب بهذه الجملة: «ابتداء كليلة ودمنة، وهو من كلام بزرجمهر البختكان».

وأمّا باب «بعثة برزويه» فتنسبه نسختنا ونسخة شيخو إلى بزرجمهر، وتغفل بعض النسخ تسمية كاتبه، وتفتحه النسخة الفارسية بقولها: «كذلك يقول أبو الحسن عبد الله بن المفع».

فالنسخة الفارسية تجعل الباب الأول: باب «بعثة برزويه» من إنشاء ابن المفع، والبابين التاليين من إنشاء بزرجمهر، فترتيب الأبواب فيها مقبول إن صحت نسبة

الأبواب إلى من نسبتها إليهم، ولكنني أبعد أن يكون باب «عرض الكتاب» لغير ابن المفعع
للأسباب الآتية:

(١) اتفاق النسخ العربية التي في أيدينا على نسبته إلى ابن المفعع.

(٢) وأنه ينتهي في نسختنا بهذا الكلام: «إِنَّا لَمَّا رأَيْنَا أَهْلَ فَارِسٍ قَدْ فَسَرُوا هَذَا
الكتاب وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية أَحْقَنَا بَابًا بالعربية ليكون له أَسَّاً لِيُسْتَبِّنَ
فِيهِ أَمْرُ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ أَرَادَ قِرَاءَتَهُ وَفَهْمَهُ وَالْاقْتِبَاسِ مِنْهُ».

وظاهر أنَّ الباب الذي يُبَيِّنُ مقاصد الكتاب ويدعى القارئ إلى قراءته وفهمه هو
باب «عرض الكتاب»، وأَبْيَنُ من هذا ما في نسخة اليازجي آخر هذا الباب: «قال عبد الله
ابن المفعع: لما رأيت أهل فارس قد فسروا هذا الكتاب من الهندية إلى الفارسية، وأَحْقَنُوا
به بَابًا وهو باب بِرْزُوِيَّهُ الطَّبِيبُ، ولم يذكروا فيه ما ذكرنا في هذا الباب مِنْ أَرَادَ قِرَاءَتَهُ
وَالْاقْتِبَاسِ عِلْمَهُ وَفَوَائِدَهُ؛ وَضَعَنَا لَهُ هَذَا الْبَابَ فَتَأْمِلْنَاهُ تُرْشَدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

(٣) والثالث أنَّ النسخة الفارسية نفسها تختم هذا الباب بقولها: «يقول ابن المفعع:
لَمَّا رأَيْنَا أَهْلَ فَارِسٍ تَرَجَّمُوا هَذَا الْكِتَابَ مِنْ لُغَةِ الْهَنْدِ إِلَى لُغَةِ الْبَهْلَوِيَّةِ أَرَدْنَا أَنْ يَكُونَ
لِأَهْلِ الْعَرَقِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ نَصِيبُهُمْ، وَأَنْ يُرَجَّمَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَهِيَ لِغَتِهِمْ».

وإذا رَجَحَ أَنَّ باب «عرض الكتاب» من إنشاء ابن المفعع، فكيف وُضع بين باب
«بعثة بِرْزُوِيَّهُ» وباب «برزوويه الطبيب» في بعض النسخ؟ أَيُعْدُ هذا دليلاً على أنَّ باب
«بعثة بِرْزُوِيَّهُ» زِيدٌ على الكتاب بعد أن ترجمته ابن المفعع كما زيدت «مقدمة بهنود بن
سحوان (أو علي بن الشاه الفارسي)؟ أو يدلُّ على أنَّ ابن المفعع وضع هذا الباب وجعله
مُقْدَّمة، ثم وضع باب «عرض الكتاب» كما وضع الفرس باب «برزوويه الطبيب»، وهذا
يوافق النسخة الفارسية، وهي تنص على أنَّه من كلام ابن المفعع كما تقدم؟ أرجح أنه
مزيد على الكتاب بعد ابن المفعع، وأَمَّا نسختنا فتنسب باب «بعثة بِرْزُوِيَّهُ» إلى بترجمهر
باب «برزوويه الطبيب»، وتضعه بعد مقدمة ابن المفعع، وهو ترتيب لا إشكال فيه.

والخلاصة أَنَّ الفرس زادوا على الكتاب باب «برزوويه الطبيب»، وأنَّ ابن المفعع زاد
باباً آخر هو باب «عرض الكتاب»، وأنَّ باب «بعثة بِرْزُوِيَّهُ» موضع نظر، فهو مقدمة
لباب «برزوويه الطبيب» كتبه بترجمهر، أم هو من إنشاء ابن المفعع، أم هو مزيد على
الكتاب بعد ابن المفعع؟ ولكنني أرجح أنَّه مما زيد في النسخ العربية؛ لما ذكرت آنفًا من
وضعه في بعض النسخ قبل باب «عرض الكتاب لِبَنِ المَفْعِعِ»، ووضع الفهرس بعده، ولأنَّ

الترجمتين السريانيتين خاليتان منه، والأولى مترجمة عن الفهلوية والثانية عن العربية، وهو ليس في منظومة ابن الهبارية أيضًا، ومعنى هذا أن النسخ العربية القديمة لم تُجمع على هذا الباب، فخلت منه الترجمة السريانية المأخوذة من العربية، وهذا يدل على أنه لم يكن في الفهلوية أيضًا، ويؤيد هذا أنه ليس في النسخة السريانية القديمة التي تُرجمت عن الفهلوية.

القسم الثاني من أبواب الكتاب: الأبواب الخمسة التي يتضمنها كتاب «بنج تنترَا»

تفق النسخ العربية وغيرها على وضع هذه الأبواب الخمسة أول الكتاب بعد باب «برزويه الطبيب»، وعلى ترتيبها، وقد تتضمنها كتاب مستقل في اللغة السنسكريتية، فهي أمّهات الكتاب وأثبتت أبوابه في التاريخ، وهي أجملها قصصاً، وأكثرها مواعظاً وعبرًا، وأطولها حواراً؛ وقد سُمِيَ الكتاب كله «كليلة ودمنة» باسم ابني آوى اللذين هما محور القصص في الباب الأول: باب «الأسد والثور» (تنظر مقارنة القصص التي في هذه الأبواب بنظائرها في «بنج تنترَا» في مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب أنوار سُهيلي الفارسي الذي ترجمه إدوارد إيستوك Edward B. Eastwick).

وأماماً باب «الفحص عن أمر دمنة» فلا يُعرف في الأدب الهندي، ولا يُلفى في النسخة السريانية القديمة، وينتهي باب «الأسد والثور» في «بنج تنترَا» بأنَّ الأسد لم يفكِر في شربة من بعد، وأنَّه جعل دمنة وزيره وعاش سعيداً.

وليس في خاتمة باب «الأسد والثور» من نسختنا ونسخة شيخو ما يدل على أنَّ وراءه باباً للفحص عن أمر دمنة، والنسخ الأخرى العربية المطبوعة والنسخة الفارسية والسريانية الحديثة تختم الباب بأنَّ الأسد اطْلَع على كذب دمنة فقتله.

والظاهر أنَّه باب إسلامي وضعه ابن المقفع لئلا ينجو دمنة الخائن من العقاب الجديـر بهـ، وفي الباب مسحة إسلامـية ولا سيما في الكلام على البيـنةـ، وقد جاءـت فيهـ كلمةـ «الإسلامـ» في نسختـناـ، ولعلـهاـ سهوـ منـ الكـاتـبـ (انـظـرـ تعـليـقـاتـنـاـ).^{٣٩}

^{٣٩} انظر: باب الفحص عن أمر دمنة، هامش رقم ٧ (الناشر).

وأماماً باب «السائح والصواغ» فقد جاء في الباب الأول من «بنج تنترا»، وهو باب «الأسد والثور»، وقد عُثر عليه في مجموعة من الأساطير البوذية اسمها: «سواهنی» وكتاب آخر بوذى اسمه: «كرماجتكا»، فلا ريب أنَّه وُضع بادئ بدء في الأدب الهندية.

القسم الثالث من أبواب الكتاب: أبواب «الجرذ والسنور» و«الملك والطائر» و«الأسد وابن آوى»

هذه القصص الثلاث تُلْفَى في الحماسة الهندية الكبرى التي تُسَمَّى: «مهابهارتًا»، وقصة «الملك والطائر» تُلْفَى كذلك في كتاب آخر اسمه: «هرونجه».

وهي تتواли في النسخ كلها كما تتواли الأبواب الخمسة التي يتضمنها كتاب «بنج تنترا»، وتليها في بعض النسخ، ويتحلل بين هاتين المجموعتين في نسخٍ أخرى بعض الأبواب، يفصل بينهما في نسختنا باب «إيلاد وإيراخت وشادرم» وباب «ملك الجرذان»، وفي نسخة شيخو باب «إيلاد وشادرم وإيراخت» وحده.

وهذه الأبواب الثلاثة والأبواب الخمسة الأولى داخلة في العشرة التي عدَّها نصر الله بن عبد الحميد أبواباً هندية، وبقية العشرة باب «الفحص عن أمر دمنة» وباب «الأسوار واللبؤة».

ويظهر مما تقدم أنَّ النسخ التي تُولَى بين هذه الأبواب الشمانية أقرب إلى ما عُرف من تاريخ الكتاب حتى اليوم، وأنَّ الفصل بين الأبواب الخمسة والأبواب الثلاثة طارئ على الكتاب، ثم أحد البابين الفاصلين في نسختنا، وهو باب «ملك الجرذان» ليس من كلام ابن المقفع بلا ريب، وفي هذا دليلٌ آخر على أنَّ الفصل بين الأبواب الخمسة والأبواب الثلاثة حادثٌ في الكتاب.

القسم الرابع من أبواب الكتاب

وأماماً القسم الرابع فهو كما قدمتُ قسمان: أربعة أبواب تتفق عليها النسخ، وثلاثة تختلف في إثباتها.

(أ) الأبواب التي تتفق عليها النسخ

(١) والباب الأول من الأربعة المتفق عليها هو في نسختنا باب «إيلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند»، وهو كما يرى القارئ باب هندي بوذى، يُمثّل العداوة بين البراهمة والبوذية ويُشنع على البراهمة، وقد عُثر على القصة في اللغة التبتية، والظاهر أنه نُقل إليها من الهندية، ووضُعَ في نسختنا ونسخة شيخو بين الأبواب التي عُرف أصلها الهندي يؤيّد هذا، ويرى القارئ أنَّ الباب قسمان مختلفان: الأول قصة الأحلام وتاويها، والثاني المحاورة بين الملك وزيره، والقسم الثاني مختصر في نسخة دي ساسي والنسخ المصرية، ومُطبَّق في نسختنا ونسخة شيخو والنسخة السريانية الحديثة.

(٢) وأمّا باب «اللبؤة والأسوار» فظاهرُ فيه النزعة الهندية: تحريم اللحم والاقتیات بالفاكهة، ثم التحرج من أكل الفاكهة والاجتزاء بالعشب حينما شكت الوحش قلة الفاكهة.

(٣) والباب الثالث: باب «الناسك والضييف» لا يوجد في السريانية القديمة المترجمة من الفهلوية، وليس فيه ما يدلُّ على أصل هندي، بل فيه من ذكر التمر واللغة العبرية ما يبعده عن الهند، فإمّا أن يكون مزييًّا في اللغة الفهلوية وقد أُسقط في الترجمة السريانية القديمة، وإمّا أن يكون من زيادات النسخة العربية ألحقة ابن المقفع أو الحق بعده، ولست أرى في أسلوبه ما يبعده من كلام ابن المقفع، واتفاق النسخ العربية عليه يرجح هذا.

(٤) وأمّا باب «ابن الملك وأصحابه» فقد رأى بعض الباحثين شبهاً بينه وبين قصة جاءت في الباب الأول من «بنج تنترًا»، ويرى الأستاذ فلنكر أنَّ هذه المشابهة ضعيفة لا تبرر الحكم بأنهما من أصل واحد، وينقل عن بنفي Benfey رأيه في أنَّ الباب بوذى الأصل، وأرى أسلوبه ليس بعيداً عن أسلوب ابن المقفع، فالظاهر أنه مما ترجمه كذلك.

(ب) الأبواب التي تُوجَد في بعض النسخ دون بعض

(١) فأمّا باب «ملك الجرذان» فهو لا يوجد إلا في نسختنا وحدها، ولا ريب أنَّ لغته وأسلوبه بعيدان من لغة ابن المقفع وأسلوبه كل البعد، بل أرى فيه من الركاكة ومقاربة العامية ما يُرجح أنه الحق ببعض نسخ الكتاب بعد ابن المقفع بقرن، وهذا الباب يوجد

في السريانية القديمة وهو آخر أبوابها، ويظهر أنَّه تُرجم منها أو من كتاب آخر **والحق بهذا الكتاب؛ ولذا تخلو منه نسخ عربية كثيرة، وتخلو منه أكثر الترجم التي نقلت عن العربية.**

ويرى الأستاذ ندكه أنَّ هذا الباب فارسي لا هندي، وقد لَخَصَ فلكرنر أدلة ندكه ومنها: أنَّ الأسماء في هذا الباب ليست هندية وكثيرٌ منها فارسي، وأنَّه ورد أثناء الباب عبارة «في أرض البراهمة»، وهي عبارة لا تقال في كتاب هندي، وأنَّ في الباب جملة تذم الانتحار وهذا قريبٌ من مذهب الفرس لا الهند (انظر مقدمة فلكرنر ص XXXVI).

(٢) وأمَّا باب «مالك الحزين والبطة» فقد عثر عليه دي ساسي في بعض النسخ، وقد كتب ناسخه أنَّه باب زيدٍ على الكتاب من بعد، ويُخبرنا فلكرنر أنه ورد في بعض المخطوطات العربية، ولم أجده في النسخ العربية المطبوعة كلها، ويُوجَد في بعض الترجم المأخوذة عن العربية كالترجمة الإسبانية والعبرية.

(٣) وأمَّا باب «الحمامه والثعلب ومالك الحزين» فقد ورد في النسخ المصرية والشامية المطبوعة إلَّا في نسخة شيخو، وليس في نسختنا ولا في طبعة دي ساسي، وهو في بعض الترجم المأخوذة عن العربية كـالإسبانية والعبرية كالباب الذي قبله.

وهذه الأبواب الثلاثة ليست في ظنِّي من كلام ابن المقفع.

هذه خلاصة ما هدى إليه البحث في كتاب «كليلة ودمنة» وتاريخه، وعسى أن تكون هذه المقدمة وهذه الطبيعة خطوتين سديدين لم يظفر بهما تاريخ الكتاب في اللغة العربية من قبل، وعسى أن يجدا من عناية الأدباء والباحثين ما يكافئ قيمتهما، ويجازي ما بُذل من اجتهاد ودأب، وما احتمل من نفقة وعاء لإخراج الكتاب في صورة تفخر بها الطباعة في الأقطار العربية كلها. والله ولي التوفيق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِ نَسْتَعِينُ

الحمد لله اللطيف الخبير، العليم القدير، القاهر في ملکه، الدائم في عرشه، العادل في قضائه، المنفرد في ملکوته، خالق الخلق، وباسط الرزق، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، نعم المولى ونعم النصير؛ خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسكن فيه حكمته، وتوارث ذلك دُرُّيَّته، فمنهم سعيد بباراته، وشقي بقدرته.
وأشهدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحده لَا شريك له، شهادةً أرجو بها الخلاص، وأفوز بها يوم الإخلاص، وأشهدُ أَنَّ مُحَمَّداً عبده ورسوله، خلقه للهوى، وقد فاز من به اهتدى،
صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.^١

^١ هذا التمجيد مختص بهذه النسخة، والظاهر أنه من إنشاء بعض ناسخيها أو مالكيها لا من كلام ابن المفع (انظر تفصيل هذا في المقدمة).

باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع^١

هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث، التي التمسوا بها أبلغ ما يجدون من القول، في النحو الذي أرادوا، ولم يزل العقلاء من أهل كل زمان يتلمسون أن يُعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل، ويطلبون إخراج ما عندهم من العلل، فدعاهم ذلك إلى أن وضعوا هذا الكتاب، ولخصوا فيه من بلية الكلام ومُتقنه على أنفواه الطير والبهائم والسباع؛ فاجتمع لهم من ذلك أمران: أَمَّا هُمْ فوجدوا مُتصرّفًا في القول، وشعابًا يأخذون فيها، وأَمَّا هو فجمع لهوا وحكمة، فاجتباه الحُكماء لحكمته، والسففاء للهُوه، وأَمَّا المُتعلمون من الأحداث وغيرهم فنُشِطُوا لعلمه، وخفّ عليهم حفظه. فإذا احتنك الحدثُ واجتمع له أمره، وتاب إليه عقله، وتدبّر ما كان حفظ منه وما وعاه في نفسه، وهو لا يدرى ما هو، عَرَفَ أنه قد ظفر من ذلك بكنوزِ عظام؛ فكان كالرجل يُدرك فيجدُ أباً قد كنّز له من الذهب والفضة، واعتقد له ما استغنى به عن

^١ هذا أول مقدمة ابن المقفع التي جُعل عنوانها في كثيرٍ من النسخ «باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع»، وليس لها في أصل نسختنا عنوان.

والنسخ تختلف في مكان هذه المقدمة، فهي في نسخة دي ساسي De Sacy والطبعات المصرية وطبعي اليازجي وطبارة، بين باب بعثة بربوبيه وباب بربوبيه، وفي نسخة شيخو قبل باب الأسد والثور، وهي فيها قصيرةً جدًّا، وظاهرُ أن ترتيب نسختنا أقرب إلى الصواب؛ لأنَّ ابن المقفع حرٌّ أن يضع مقدمته قبل أبواب الكتاب كلها، وأَمَّا «مقدمة بهنود بن سحوان» التي تُصدر بها بعض النسخ فقد وُضعت بعد ابن المقفع، فلهذا تخلو منها نسخ قديمة كنسختنا هذه؛ ثم النسخ الأخرى تتقارب فيما بينها وتخالف نسختنا في كثيرٍ من نصوص هذه المقدمة.

استقبال السعي والطلب، ولم يكن — إذ كثرت صنوف أصول العلم ثم تفرعت فروعها — بدُّ من أن تكُّن العلل التي تجري عليها أقاويل العلماء.

فأول ما ينبغي من طلب هذا الكتاب أن يبتدئ فيه بجودة قراءته والتثبت فيه، ولا تكون غايتها منه بلوغ آخره قبل الإحكام له، فليس ينتفع بقراءاته ولا يُفيد منه شيئاً؛ وإن طمحت عيناه إلى جمعه، ولم يأخذ منه ما يعي الأول فالأخير، فإنه خليق لا يُصيِّب منه إلا كما أصاب الرجل الذي بلغني أنه رأى في بعض الصحاري كنزًا، فلما كشف عنه ونظر إليه رأى شيئاً عظيماً لا عهد له بمثله، فقال في نفسه: إن أنا أحْرَزتُ ما هنا بunqueه، وحدي لم أنقله إلا في أيام، وجعلت لنفسي عملاً طويلاً، ولكن أستأجر رجلاً يحملونه، ففعل ذلك وجاء بالرجال فحمل كلُّ واحدٍ منهم ما أطاق، وانطلقوا، فيما زعم، إلى منزله، فلم يزل دائياً في ذلك حتى فرغ واستنفذ الكنز كله، ثم انطلق إلى منزله بعد الفراغ فلم يجد شيئاً، ووجد كل رجل منهم قد حاز ما حمل لنفسه، ولم يكن له إلا العناء في استخراجه والتعب عليه.

فليس ينبغي أن يجاوز شيئاً إلى غيره حتى يُحِكمه ويثبت فيه وفي قراءاته وإحكامه، فعليه بالفهم لما يقرأ والعرفة؛ حتى يضع كل شيء موضعه وينسبه إلى معناه، ولا يعرض في نفسه أنه إذا أحکم القراءة له وعرف ظاهر القول؛ فقد فرغ مما ينبغي له أن يعرف منه، كما أن رجلاً لو أتى بجوز صاحب في قشوره لم ينتفع به حتى يكسره ويستخرج ما فيه، فعليه أن يعلم أن له خبيتاً وأن يلتمس علم ذلك، ولا يكن كالرجل الذي بلغني أنه طلب علم الفصاحة فأتى صديقاً له ومعه صحيفة صفراء، فسألته أن يكتب له فيها علم العربية، فكتب له في الصحيفة ما أراد، فانطلق الرجل إلى منزله وجعل يقرؤها ولا يدري ما معناها، وظنَّ أنه قد أحکم ما في الصحيفة، وأنه تكلَّم في بعض المجالس وفيه جماعةٌ من أهل الأدب والفصاحة، فقال له بعضهم: لاحت، فقال: الحُنُّ والصحيفة الصفراء في منزلي؟ فالماء حقيقة أن يطلب العلم^٢ فإذا وجد حاجته منه وفهمه وعرفه وبلغ غايتها منه، انتفع بما يرى فيه من الأدب، فإنه يُقال في أمررين لا ينبغي لأحد أن يقصُّ فيهما بل يُكتُّر منهما: حُسن العمل والتزود للآخرة.

ويُقال أيضاً في أمررين يحتاج إليهما كل من احتاج إلى الحياة: المال والأدب.

^٢ النسخ الأخرى تضع هنا «قراءة هذا الكتاب» بدل «طلب العلم» في نسختنا.

ويُقال في أمرين لا ينبغي لأحد أن يستكِبُر عنهما: الأدب والموت، ويُقال: إنَّ الأدب يجلو العقل كما يجلو الورَكُ النازِرَ ويزيدُها ضوءاً، والأدبُ يرفع صاحبه كما تُرفع الكرةُ يضر بها الرجل الشديد، والعلم يُنجي من استعمله، ومن عَلِمَ ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه، وكان كَمَثَلَ الرَّجُلِ الذي بلغني أن سارقاً دخل عليه في منزله فاستيقظ الرجل، فقال في نفسه: لأسْكُنْتَ حتى أَنْظُرَ غَايَةَ مَا يَصْنُعُ، ولا تُرْكَنْهَ حتى إِذَا فَرَغَ مَا يَأْخُذُ قَمْتُ إِلَيْهِ فَنَغَضْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَكَدْرَتَهُ، فَسَكَتَ وَهُوَ فِي فَرَاشِهِ، وَجَعَلَ السَّارِقَ يَطُوفُ فِي الْبَيْتِ وَيَجْمَعُ مَا قَدْرُ عَلَيْهِ حَتَّى غَلَبَ عَلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ النُّعَاسَ، وَحَمَلَهُ النُّومُ^٣ فَنَامَ وَوَافَقَ ذَلِكَ فَرَاغَ السَّارِقِ، فَعَمِدَ إِلَى جَمِيعِ مَا كَانَ قَدْ جَمَعَهُ فَاحْتَمَلَهُ وَانْطَلَقَ بِهِ، وَاسْتِيقَظَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَهَابِ السَّارِقِ فَلَمْ يَرِ في مَنْزِلِهِ شَيئاً، فَجَعَلَ يَوْمَ نَفْسِهِ وَيَعْاتِبُهَا وَيَعْصُمُ كَفَّيْهِ أَسْفًا، وَعَرَفَ أَنَّ فَطْنَتَهُ وَعِلْمَهُ لَمْ يَنْفَعَاهُ شَيئاً إِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلُهُمَا.

والعلم لا يتم لامرئ إلا بالعمل، والعلم هو الشجرة، والعمل هو الثمرة، وإنما يطلب الرجل العلم ليُنتفع به، فإنَّ لم يُنتفع به فلا ينبغي أن يطلبُه، ورُبَّ رجُلٍ لو قيل له: إنَّ رجلاً كان عارفاً بطريق مَخْوَفَ ثم ركبَ فأصابَهُ فيه مكرُوهٌ أو أَذْنَى لتعجبَ من جهلَه وفعلَه، ولعلَّهُ أن يكون يركبُ من الأمور ما يُعرفُ به القبحُ والذمُ وشرُ العاقبة، وهو بذلك أشد استيقاناً من ذلك الرجل الذي ركب الهول بجهله، وحمله على ذلك هواه، ومن لم يُنتفع بمعرفته كان كالمریض العالِمُ الذي يعلم ثقيل الطعام من خفيه، ثم تحمله الشهوة على أكل التَّقْلِيل منه.

فأقلُ الناس عذرًا في ترك الأعمال الحسنة من قد عرف فضلها وحسن عائتها، وما فيها من المنفعة، وليس يعذرُه أحدٌ على الخطأ، كما أنه لو أنَّ رجلين أحدهما أعمى والآخر بصير وقعَا في جُبٍ فهلكَا جميعاً ولم ينجِ البصير من الهلاكة — لأنَّه صار والأعمى في الجب بمنزلة واحدة — لكنَّ البصير عند العقلاء أقلَّ عذرًا من الأعمى.

ومن كان يطلب العلم ليعلمه غيره وليعرِّفه سواه، فإنَّما هو بمنزلة العين التي يُنتفع الإنسان بما فيها، وليس لها من تلك المنفعة شيء؛ فإنَّ خلاًلا ثلاثة يُنْبَغِي لصاحب الدنيا أن يقتبسها ويُقبِسها: منها العلم، ومنها المال، ومنها اتخاذ المَعْرُوف؛ وقد قيل: إنه

^٣ هذه الجملة «وحمله النوم» ليست في النسخ الأخرى، وهي ترجمة حرافية لعبارة فارسية «خواب أورا برد»، فهي من الأدلة على أن هذه النسخة أقرب إلى ترجمة ابن المقفع (انظر المقدمة).

لا ينبغي لطالب أن يطلب أمراً إلا من بعد معرفته بفضلـه، فإنه يُعدُّ جاهلاً من طلب أمراً وعنى نفسه فيه وليس له مـنفـعة.

وقد نرى بعض من يقرأ هذا الكتاب فيتعجب منه ويجهـد نفسه في حفـظه ويترك العمل به (ولا ينبغي للعالم أن يعيـب أحداً بما هو فيه)، فيكون كالـأعمـى الذي عـير الأعـور بعـورـه.^٤ وينـبغـي لـمن عـقل أـلـا يـطلـب أـمـراً فـيـه مـضـرـة لـصـاحـبـهـ، يـطلـبـ بـذـلـكـ صـلاحـ نـفـسـهـ، فإـنـ الـغـادـرـ مـأـخـوذـ، وـمـنـ فـعـلـ ذـلـكـ كـانـ خـلـيقـاًـ أـنـ يـصـيبـهـ مـاـ أـصـابـ الرـجـلـ الذـيـ بلـغـنـيـ أـنـ كـانـ بـيـعـ السـمـسـمـ، وـكـانـ لـهـ شـرـيكـ، فـكـانـ سـمـسـهـمـاـ فـيـ بـيـتـ وـاحـدـ، غـيرـ أـنـ الذـيـ لـكـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـاـ عـلـىـ حـدـهـ، فـأـحـبـ أـحـدـهـمـاـ أـنـ يـذـهـبـ بـالـذـيـ لـشـرـيكـهـ مـنـ السـمـسـمـ، ثـمـ أـحـبـ أـنـ يـجـعـلـ لـهـ عـلـامـةـ حـتـىـ إـذـاـ دـنـاـ اللـيلـ عـرـفـهـ بـهـ، فـعـدـ إـلـىـ رـدـائـهـ فـغـطـاهـ بـهـ، ثـمـ اـنـطـلـقـ إـلـىـ صـدـيقـ لـهـ فـأـخـبـرـهـ بـالـذـيـ هـمـ بـهـ، وـسـأـلـهـ أـنـ يـعـيـنـهـ عـلـيـهـ، فـأـبـيـ صـدـيقـهـ ذـلـكـ إـلـاـ أـنـ يـجـعـلـ لـهـ نـصـفـ مـاـ يـأـخـذـ مـنـهـ فـفـعـلـ، ثـمـ إـنـ شـرـيكـهـ دـخـلـ الـبـيـتـ فـرـأـيـ سـمـسـهـ مـغـطـيـ بـرـدـاءـ صـاحـبـهـ، فـظـنـ أـنـ غـطـاهـ مـنـ التـرـابـ وـالـدـوـابـ، فـقـالـ فـيـ نـفـسـهـ: لـقـدـ أـحـسـنـ شـرـيكـيـ فـيـ تـغـطـيـتـهـ سـمـسـيـ وـإـشـفـاقـهـ عـلـيـهـ، وـسـمـسـهـ أـحـقـ أـنـ يـغـطـيـ بـرـدـائـهـ.^٥ فـحـوـلـ الرـدـاءـ عـلـىـ سـمـسـ صـاحـبـهـ، فـلـمـ كـانـ فـيـ اللـيلـ جاءـ التـاجـرـ وـالـرـجـلـ مـعـهـ وـدـخـلـ الـبـيـتـ وـهـوـ مـُظـلـمـ، فـجـعـلـ الرـجـلـ يـلـتـمـسـ وـيـجـسـ حـتـىـ وـقـعـتـ يـدـهـ عـلـىـ الرـدـاءـ المـغـطـيـ عـلـىـ سـمـسـمـ، وـهـوـ يـقـدـرـ أـنـ كـمـاـ غـطـاهـ، وـأـنـهـ سـمـسـ صـاحـبـهـ، فـأـخـذـ نـصـفـهـ وـأـعـطـىـ صـدـيقـهـ الذـيـ عـاـونـهـ نـصـفـهـ، فـلـمـ أـصـبـحـ جـاءـ هـوـ وـشـرـيكـهـ حـتـىـ دـخـلـ الـبـيـتـ، فـلـمـ رـأـيـ الرـجـلـ أـنـ الذـيـ ذـهـبـ سـمـسـهـ، وـرـأـيـ سـمـسـ صـاحـبـهـ عـلـىـ حـالـهـ دـعـاـ بـالـوـلـيـلـ، وـعـرـفـ أـنـ الذـيـ أـخـذـهـ ذـلـكـ الرـجـلـ لـيـسـ بـرـادـهـ، وـيـخـشـيـ أـنـ تـكـونـ فـيـهـ فـضـيـحـتـهـ، فـلـمـ يـقـلـ شـيـئـاً.^٦

^٤ في النـسـخـ المـصـرـيةـ وـنـسـخـتـيـ الـيـازـجـيـ وـطـبـارـةـ: «ولـيـسـ لـلـعـالـمـ أـنـ يـعـيـبـ اـمـراًـ بـشـيـءـ فـيـهـ مـثـلـهـ، وـيـكـونـ كـالـأـعـمـىـ الذـيـ يـعـيـرـ الـأـعـمـىـ بـعـمـاهـ»، وـفـيـ نـسـخـةـ حـمـادـ التـيـ نـقـلـ عـنـهاـ شـيـخـوـ: «فـإـنـ خـلـالـاًـ يـنـبغـيـ لـصـاحـبـ الدـنـيـاـ أـنـ يـقـتـبـسـهـ: مـنـهـاـ أـلـاـ يـعـيـبـ أـحـدـاًـ بـشـيـءـ هـوـ فـيـهـ، فـيـكـونـ كـالـأـعـمـىـ ...»

^٥ في النـسـخـ الـأـخـرـىـ: أـنـ التـاجـرـ ظـنـ صـدـيقـهـ قـدـ نـسـيـ الرـدـاءـ فـاستـحـسـنـ أـنـ يـضـعـ رـدـاءـ صـدـيقـهـ عـلـىـ سـمـسـهـ لـيـجـدـهـ صـاحـبـهـ حـيـثـ يـحـبـ.

^٦ في النـسـخـ الـأـخـرـىـ: أـنـ التـاجـرـ الـأـخـرـ جاءـ فـلـمـ يـجـدـ عـدـلـ صـاحـبـهـ، فـاغـتـمـ وـعـزـمـ عـلـىـ أـنـ يـغـزـمـهـ مـنـ مـالـهـ، ثـمـ جـاءـ الشـرـيكـ الـخـائـنـ فـسـأـلـ صـاحـبـهـ عـنـ حـزـنـهـ، فـلـمـ أـخـبـرـهـ اـعـتـرـفـ بـمـاـ فـعـلـ، فـخـرـبـ لـهـ صـاحـبـهـ مـثـلـ الـلـصـ

وينبغي لمن طلب أمراً أن تكون له غايةٌ ينتهي إليها، فإنه من أجرى إلى غير غاية أوشك أن يكون فيه عناء، وتقوم فيه دابته، وهو حقيقةٌ لا يُعني نفسه بطلب ما لا يجد، وأن يكون لآخرته مؤثراً على دنياه، فإنه قد قيل: من قلَّ تعلقُه بالدنيا قلتْ حسرته عند فراقها، وينبغي له لا يُبيئ من أن يُصيب ذلك وإن قساً قلبه، فإنه يُقال في أمررين يجملان بكل أحد، وهما النسُك والمآل، وإنما مثل ذلك كالنار المتأججة التي لست تقدف إليها حطباً إلا قبلته وكان لها موافقاً.

وربما أصاب الرجلُ الشيءُ وهو غير راجٍ له، كما أصاب الرجل الذي بلغني أنه كانت به حاجةٌ شديدةٌ وخلةٌ ظاهرةٌ، وفاقةٌ وعريٌ، فగدا يطلب من معارفه وشكا إليهم، وسألهم ثواباً يلبسه، وجهد فلم يُصب شيئاً، ورجع إلى منزله وهو آيسٌ؛ فيبينما هو نائم على فراشه إذا بسارق قد دخل عليه في منزله، فلما رأه الرجل قال: ما في منزلي شيءٌ يستطيع هذا السارق أن يسرقه، فليصنع ما يشاء، وليجهد نفسه، وإن السارق دار في البيت وطلب فلم يجد شيئاً يأخذ، فغاظه ذلك، وقال في نفسه: ما أرى هنا شيئاً، وما أحب أن يذهب عنائي باطلًا، فانطلق إلى خابية فيها شيءٌ من بُرٍّ، فقال: ما أجد بُدًّا من أخذ هذا البُرًّا إذ لم أجد غيره، فبسط ملحفة كانت عليه، وصب ذلك البُرًّا فيها، فلما بصر به الرجل قد جعل البُرًّا في الملحفة، وهو يريد أن ينطلق بها قال: ليس على هذا صبر، يذهب البُرُّ ويجتمع على أمران: الجوع والعري، ولن يجتمعوا على أحدٍ إلا أهلakah، فصاح بالسارق فهرب من البيت وترك الملحفة، فأخذها صاحب المنزل فلبسها وأعاد البُرًّا إلى مكانه، فليس ينبعي لأحد أن ييأس، ولا يطلب ما لا يُتَال، ولكن لا يدع جهاداً في الطلب على معرفة، فإن الفضل والرزق يأتيان من لا يطلبهما، ولكن إذا نظر في ذلك وجد من طلب وأصاب أكثر ممّن أصاب بغير طلب، ولم يكن حقيقةً أن يقتدي بذلك الواحد الذي أصاب من غير طلب، ولكن يقتدي بالثير الذين طلبوا فأصابوا. وحق على المرء أن يُكثر المقابلة، وينتفع بالتجارب، فإذا أصابه الشيء فيه مضرّة عليه حذره وأشباهه، وcasas بعضه البعض حتى يحذر الشيء بما لقي من غيره؛ فإنه إن لم يحذر إلا الذي لقي بعينه لم يُحكم التجارب في جميع عمره، ولم يزل يأتيه شيءٌ لم يكن أتاها بعينه؛ فاما الذي

الذي أراد أن يسرق خابية مملوئةً ذهبًا، فأخذ أخرى مملوئةً بُرًّا، وذلك تمثيل غير مستقيم، والظاهر أن ما يزيد على ما في نسختنا من تصرف بعض القراء.

ينبغي ألا يدعه على حال؛ فإن يحذر ما قد أصابه، وينبغي له مع ذلك أن يحذر ما يُصيب غيره من الضرر؛ حتى يسلّم من أن يأتيه مثُله، ولا يكون مثُله كمثل الحمامات التي يُوحَّد فرخاها فيُذبحان، وترى ذلك في وكرها ولا يمنعها من الإقامة في مكانها حتى تؤخذ هي فتدبح.

وينبغي له مع ذلك أن يكون للأمور عنده حد لا يجوزه ولا يُحصّر عنه؛ فإنه من جاز الحد كان كمن قصر عنه؛ لأنهما خالفا الحد جميعاً، وينبغي له أن يعلم أن كل إنسان ساعٍ، فمن كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه.⁷ ويُقال في ثلاثة أشياء يحقُّ على صاحب الدنيا إصلاحُها وأن يتدارك لنفسه فيها: أمرُ دنياه، وأمرُ معيشته، وأمرُ ما بينه وبين الناس، وقد قيل في أمور شتى: من كانت فيه لم يستقمْ أمره له؛ منها: التوانى في العمل، ومنها: التضييع للفرص، ومنها: التصديق لكل مخبر. وربَّ رجلٍ يُخبر بالشيء لا يقبله، ولا يعرف استقامته فيصدق به لما يرى من تصديق غيره، فيتمادي به ذلك حتى يكون كأنه عَرَفَه، ورجل يصدق به لهواء في الأمر الذي يُخَبِّرُ به. فالعاقل لا يزال للهوى متَّهماً، وينبغي له ألا يقبل من أحد وإن كان صادقاً إلا صدقاً، وينبغي له ألا يتمادي في الخطأ ولا يتوانى في النظر، وينبغي له إذا التبس عليه أمر ألا يلتج في شيء منه، ولا يُقدم عليه قبل أن يستيقن بالصواب منه، فيكون كالرجل الذي يجور عن سنَّ الطريق فيسير على جوره وعلى الأعوجاج، ولا يزداد في السير حتَّى إلا ازداد من الطريق بُعداً، أو كالرجل الذي يدخل في عينه القذى فلا يزال يدلّكها حتى يعلوها البياض فتذهب. وعلى العاقل ألا يأخذ إلا بالحزم، ويعلم أنَّ الجزاء كائن، ومن أتي إلى صاحبه بمثل ما أتي إليه فشقَّ عليه فقد ظلم.⁸

⁷ تفصيل هذا في نسخة اليازجي: «من كان سعيه لدنياه خاصة فحياته عليه، ومن كان سعيه لآخرته فحياته له».

⁸ هنا تذكر النسخ الأخرى قصة «تاجر السمسم وشريكه» التي تقدمت في [انظر: باب عرض الكتاب لعبد الله بن المفعع (الناشر)] وما بعدها.

باب عرض الكتاب لعبد الله بن المفع

فمن قرأ هذا الكتاب فليقتدِ بما في هذا الباب؛ فإنني أرجو أن يزيده بصرًا ومعرفة، فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره، وإن لم يعرفه لم ينتفع به، فيكون مثله كمثل الذي رمى بحجر في ظلمة الليل، فلا يدري أين وقع الحجر ولا ماذا صنع؟^٩ وإنما رأينا أهل فارس قد فسّروا هذا الكتاب^{١٠} وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية؛ وألقنا باباً بالعربية؛ ليكون له أساً ليستبين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته وفهمه والاقتباس منه.

فأول ما نبتدئ بذكر بعث بربويه إلى بلاد الهند.

^٩ هنا تذكر النسخ الأخرى مثل ثلاثة إخوة، أسرف اثنان منهم فأتلفا مالهما، وأحسن الآخر القيام على ماله فنفع أخيه، ثم مثل الصياد الذي رأى صدفة فظنّها لؤلؤة، فترك شبكته وفيها سمة كبيرة، فلما وجد الصدفة فارغة ندم على تضييع ما في يده، ثم وجد صدفة أخرى فيها لؤلؤة فأعرض عنها حرصاً على سمة صغيرة في شبكته، ومرّ صياد آخر بالصدفة فأصاب فيها لؤلؤة عظيمة.

^{١٠} هذه الخاتمة تذكرة في نسخة اليازجي في صيغة تخالف ما هنا بعض المخالف، ولا تذكر النسخ الأخرى، وهي ذات قيمة في تبيين الباب الذي زاده ابن المفع (انظر المقدمة).

باب توجيه كسرى أنو شروان بربزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب

قال بُزْرِجِمَهْرٌ: أَمَا بَعْد؛ فَإِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - خَلَقَ خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَمَنْ عَلَى عِبَادَهِ
بِفَضْلِهِ، وَرَزَقَهُمْ مَا يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى إِصْلَاحِ شَأْنِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُدْرِكُونَ بِهِ
إِسْتِنْقَازَ أَرْوَاحِهِمْ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ، وَأَفْضَلُ مَا رَزَقَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ عَلَيْهِمْ بِهِ الْعُقْلُ الَّذِي هُوَ
قُوَّةً لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْلَاحِ مَعِيشَةِ، وَلَا اجْتِرَارِ مَنْفَعَةِ، وَلَا
دَفعِ مَضَرَّةٍ إِلَّا بِهِ، وَكَذَلِكَ طَالِبُ الْآخِرَةِ الْمُجْتَهُدُ عَلَى إِسْتِنْقَازِ رُوحِهِ مِنَ الْهَلْكَةِ.
فَالْعُقْلُ سَبَبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ مَكْتَسَبٌ بِالتجَارِبِ وَالْأَدَابِ، وَغَرِيْزَةٌ مَكْنُونَةٌ فِي الإِنْسَانِ
كَامِنَةٌ كَمُؤْنَنٍ النَّارَ فِي الْحَجَرِ وَالْعُودِ، لَا تُرَى حَتَّى يَقْدِحَهَا قَادِحٌ مِنْ غَيْرِهَا، يُظَهِّرُ
ضَوْءَهَا وَحْرِيقَهَا، كَذَلِكَ الْعُقْلُ مِنَ الإِنْسَانِ لَا يَظَاهِرُ حَتَّى يُظَهِّرِهِ الْأَدَبُ وَتُقْوِيَّهُ التَّجَارِبُ،
فَإِنَّا إِسْتَحْكَمْ كَانَ هُوَ وَلِيَّ التَّجَارِبِ وَالْمُقْوِيَّ لِكُلِّ أَدَبٍ، وَالْمُمِيزُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَالْمَدْافِعُ
لِكُلِّ ضَرٍّ، فَلَا شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنَ الْعُقْلِ وَالْأَدَبِ؛ فَمَنْ مَنَّ عَلَيْهِ خَالِقُهُ بِالْعُقْلِ، وَأَعْنَى هُوَ عَلَى
نَفْسِهِ بِالمُثَابَرَةِ عَلَى الْأَدَبِ وَالْحَرَصِ عَلَيْهِ؛ سَعَدَ جَدُّهُ، وَأَدْرَكَ أَمْلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

^١ لا يصدّر هذا الباب بقول بزرجمهر إلّا في نسختنا ونسخة شيخو، وفي الترجمة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد، أول هذا الباب: «يقول أبو الحسن عبد الله بن المقفع». وهذه المقدمة تأتي أثناء الباب على لسان بربزوبيه في نسختي اليازجي وطبارة.

والعقل هو المقوّي الملك السعيد الجَدُّ، الجليل المرتبة، ولا تصلح السُّوقَة إلَّا عليه وعلى تدبيره.^٢

وقد جعل الله لكل شيء سبباً، ولكل سبب علة، ولكل علة مجرّى، وكان من علة انتساخ هذا الكتاب ونقله من بلاد الهند إلى مملكة فارس إلهام الله تعالى أنو شروان كسرى بن قباز في ذلك؛ لأنَّه كان من أفضل ملوك فارس علماً وحُكْماً ورأياً، وأكثُرهم بحثاً عن مكامن العلم والأدب، وأحرِصُهم على طلب الخير، وأسرعهم إلى اقتناء ما يَزِينُه بزينة الحكمة، وفي معرفة الخير من الشرِّ، والضرِّ من النفع، والصديق من العدو، ولم يُكُنْ يَعْرُفُ ذلك إلَّا بعونِ الله خلفاءه وسادة عباده وببلاده لإقامة رعيَّته وأموره، فكان مما خَصَّ الله به كسرى أنو شروان أن أكرمه بهذه الكراهة، ورزقه هذه النعمة؛ حتى استوثقت له الرعية، وأذعنَت له بالطاعة، وصفت له الدنيا، وانقادت الملوك له، فرُكِنَت إلى طاعته، وتلك نعمة من الله سابعة قسمها له في دولته وعُبَاب مُلْكِه.

في بينما هو في عَزٌّ ملكه وبهاء سُلطانه إذ بلغه أنَّ بالهند كتاباً من تأليف العلامة، وترصيف الحكماء، وتدبير الفهماء، قد مُيَرِّت أبوابُه، وأثبتت عجائبه على أفواه الطير والبهائم والوحش والسباع والهوامُّ، وسائل حشرات الأرض، مما يحتاج إليه الملوك في سياسة رعيتها، وإقامة أودها وإنصافها، فلا قوام للرعية إلَّا بحسُن سياسة الملوك، وسعة أخلاقها، ورأفتها ورحمتها؛ ولذلك لم يَدَعْ كسرى أنو شروان اقتناء ذلك الكتاب الذي بلغه عنه أنه ببلاد الهند، وضمَّه إلى نفسه، والاستعانت به على سياسته، والعمل بحسن تدبيره.

فلما عَزَمَ على ما أراد من أمره، وهم بالبعثة في طلب كتاب كليلة ودمنة وانتساحه، قال في نفسه: مَنْ لهذا الأمر العظيم، والأدب النفيس، والخطب الجليل الذي يَرِيَّنَ به ملوك الهند دون ملوك فارس؟ وقد هممنا إلَّا ندع — مع بُعد السفر، وصعوبة الأمر،

^٢ هنا تنتهي مقدمة هذا الفصل التي تتفق فيه نسختنا والنسخة المصرية ونسخة شيخو بعض الاتفاق، وأمّا نسختا اليازجي وطبارة فليس فيهما من هذه المقدمة إلَّا تحميد في بضعة أسطر، ثم تُذَكَّر فيهما هذه المقدمة أثناء الفصل على أنها من كلام بربويه حينما اختاره كسرى للسفر.

^٣ تتفق النسخ هنا في الحديث عن أنو شروان، ولكن تختلف في السياق اختلافاً كبيراً، والعجب أنَّ أقرب النسخ إلى نسختنا هنا النسختان اللتان تختلفانها كل المخالفة في مقدمة الفصل، وهم نسختا اليازجي وطبارة.

ومخاطر الطريق، وكثرة النفقـة — طلب هذا الكتاب حتى نصل إلى نسخـه، ونـقـف على إتقـانـه، ورـصـانـة أبوابـه، وعـجـائـبـه، ولا بدـ لنا من أن نـنـتـخـبـ من نـرـيـدـ إـرـسـالـهـ فيـ ذـلـكـ منـ هـذـينـ الصـنـفـيـنـ منـ الـكـتـابـ وـالـأـطـبـاءـ، فـإـنـ أـهـلـ هـذـينـ يـجـتـمـعـ عـنـدـهـمـ جـوـامـعـ مـنـ بـحـورـ الـأـدـبـ، وـكـنـوزـ الـحـكـمـةـ، فـيـ أـنـاءـ وـثـوـدـةـ، وـتـجـرـيـةـ وـنـفـاذـ حـيـلـةـ، وـتـحـفـظـ وـتـحـرـزـ، وـكـمـالـ مـرـوـعـةـ، وـدـهـاءـ وـفـطـنـةـ، وـحـلـمـ وـتـصـنـعـ، وـلـطـفـ سـيـاسـةـ، وـكـتـمـانـ سـرـ.

فلما فـحـصـ الرـأـيـ فـيـمـاـ أـجـمـعـ عـلـيـهـ، اـخـتـارـ فـيـ مـلـكـتـهـ، وـانتـخـبـ مـنـ عـلـمـائـهـ، فـلـمـ يـجـدـ أحـدـاـ عـلـىـ نـحـوـ ذـلـكـ إـلـاـ بـرـزـوـيـهـ بـنـ آـذـرـهـرـبـدـ، وـكـانـ مـنـ رـؤـسـاءـ أـطـبـاءـ فـارـسـ وـمـنـ أـبـنـاءـ مـقـاـيـلـتـهـ، فـدـعـاهـ كـسـرـىـ وـقـالـ لـهـ: إـنـاـ قـدـ اـنـتـخـبـاـ لـمـوـضـعـ حاجـتـنـاـ، وـتـقـرـئـنـاـ فـيـكـ الخـيرـ، وـأـمـلـنـاـ فـيـكـ أـنـ تـكـوـنـ عـلـىـ مـاـ أـرـدـنـاـ مـنـ إـصـابـةـ هـذـهـ الـحـاجـةـ الـتـيـ نـحـنـ مـرـسـلـوـكـ فـيـهـ؛ لـمـاـ عـلـمـنـاـ عـنـكـ مـنـ الـاجـتـهـادـ فـيـ الـعـلـمـ وـالـأـدـبـ، وـجـرـصـكـ عـلـىـ طـلـبـهـماـ.

وـنـحـنـ مـرـسـلـوـكـ إـلـىـ بـلـادـ الـهـنـدـ لـمـاـ بـلـغـنـاـ عـنـ كـتـابـ عـنـ دـلـوكـهاـ وـعـلـمـائـهـ قـدـ أـفـتـهـ الـعـلـمـاءـ، وـهـذـبـتـهـ الـحـكـمـاءـ، وـأـتـقـنـهـ الـفـطـنـاءـ، لـيـسـ فـيـ خـرـائـنـ الـمـلـوـكـ مـثـلـهـ، يـسـتـعـينـ بـهـ عـلـىـ عـطـائـهـمـ مـلـوـكـ الـهـنـدـ، فـتـعـزـمـ عـلـىـ الـمـسـيـرـ بـسـبـبـهـ فـتـسـتـفـيـدـهـ بـرـفـقـ وـتـؤـدـةـ، وـتـحـمـلـ مـعـكـ مـنـ الـمـالـ مـاـ أـرـدـتـ، وـمـنـ طـرـفـ بـلـادـ فـارـسـ وـهـدـاـيـاـهـاـ مـاـ تـعـلـمـ آـنـهـ يـعـيـنـكـ عـلـىـ اـسـتـخـلـاصـهـ، مـعـ مـاـ تـقـدـرـ عـلـيـهـ مـنـ الـكـتـبـ الـتـيـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـمـلـوـكـ، وـلـيـكـنـ ذـلـكـ فـيـ سـرـ مـكـتـومـ.

فـإـذـاـ أـكـمـلـتـ مـاـ تـرـيـدـهـ وـأـنـتـ فـيـ بـلـادـ الـهـنـدـ كـتـبـتـ إـلـيـنـاـ بـذـلـكـ، وـأـسـرـعـتـ الـوـفـوـدـ إـلـىـ حـضـرـتـنـاـ، فـإـنـاـ مـجـازـلـوـ عـطـيـتـكـ، وـرـافـعـوـ درـجـتـكـ، وـمـيـلـغـوـكـ فوقـ مـاـ أـمـلـهـ مـنـ دـوـلـتـنـاـ، فـبـادـرـ لـمـاـ أـمـرـتـ، وـاحـفـظـ مـاـ وـصـيـتـ بـهـ، وـلـيـكـنـ مـنـ شـائـنـ التـثـبـتـ وـالتـائـيـ فـيـ جـمـيعـ أـمـورـكـ، فـخـرـ بـرـزـوـيـهـ سـاجـداـ، وـقـالـ: سـمـعـاـ وـطـاعـاـ، سـيـجـدـنـيـ الـمـلـكـ كـمـاـ أـحـبـ إـنـ شـاءـ اللهـ، ثـمـ نـهـضـ إـلـىـ مـنـزـلـهـ، فـتـخـيـرـ مـنـ الـأـيـامـ أـيـمـنـهـ، وـمـنـ السـاعـاتـ أـبـرـكـهـاـ، وـسـارـ فـيـ الـيـوـمـ الـمـخـتـارـ، فـلـمـ يـزـلـ تـخـفـضـهـ أـرـضـ وـتـرـفـعـهـ أـخـرىـ حـتـىـ قـدـمـ إـلـىـ بـلـادـ الـهـنـدـ، فـأـرـاحـ مـنـ وـعـثـاءـ الـطـرـيقـ.

ثـمـ إـنـهـ طـافـ بـبـابـ الـمـلـكـ، وـتـخـلـ مـاـجـالـسـ الـسـوقـ، وـسـأـلـ عـنـ قـرـابـةـ الـمـلـوـكـ وـالـأـشـرـافـ، وـعـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـفـلـاسـفـةـ، فـجـعـلـ يـغـشـاهـمـ فـيـ مـنـازـلـهـمـ وـعـلـىـ بـابـ الـمـلـكـ، وـيـتـلـقـاهـمـ بـالـتـحـيـةـ وـالـمـسـاءـلةـ، وـيـخـبـرـهـمـ أـنـهـ قـدـمـ بـلـادـهـمـ لـطـلـبـ الـعـلـمـ وـالـأـدـبـ، وـأـنـهـ مـحـتـاجـ إـلـىـ مـعـونـتـهـمـ عـلـىـ

^٤ في الأصل «أذرهرير»، ونظمها محرفة عن «آزرهربد» أي سادن النار.

ما طلب من ذلك، ويسألهم إرشاده إلى حاجته، مع شدة كتمانه لما قدم له، وكتابته عنه، فلم يزل كذلك زماناً طويلاً، يتأنّب بما هو أعلم به، ويتعلم من العلم ما هو ماهر فيه، ويكتفي عن بغيته وحاجته.

واتخذ — لطول لبته وإقامته — أصدقاء كثرين من أهل الهند، من الأشراف والسوق وأهل كل صناعة، واختص من جماعتهم رجلاً كان شريقاً عالماً يسمى أزوبيه، وكان صاحب سرّه ومشورته؛ لما ظهر له من علمه وفضل أدبه، وصحّ له من إخائه ومحض مودته، وفصاحة منطقة، وكان يُشاوره في جميع أموره، ويستريح إليه فيما يهمه، إلا أنه كان يكتمه الأمر الذي هو بغيته، وكان يبلوه باللطف لينظر هل يراه موضعًا لإطلاعه على سره، فلم يزل يبحث عن ذات نفسه حتى وثق به، وعلم أنه لما استودع من السرّ موضع، وفيما سأله مُشفع، وفيما استعان به عليه مجتهد، فازداد له إلطافاً، فكان — إلى ذلك اليوم الذي رجا أن يكون قد ظفر بحاجته — قد أعظم النفة مع طول الغيبة والإطاف الأصدقاء، ومجالستهم على الطعام، ومنادتهم على الشراب لطلب الثقات منهم، فلم يطمئن إلى أحدٍ منهم إلا إلى صديقه ذلك.

وكان مما حكَ به بربزويه صديقه ذلك ورازه وفتح عقله ووثق به واطمأن إليه أن قال له يوماً وهما خاليان: يا أخي، ما أريد أن أكتمك من أمري شيئاً فوق ما قد كتمتك، فاعلم أنّي لأمرِ جئت، وهو غير ما ترى يظهرُ مني، والعاقل يكتفي من الرجل بالعلامات الظاهرة فيه، من نظره وإشارته بيده، فيعلم سرّ نفسه، وما يضمِّر عليه قلبه؛ قال الهندي: إنني وإن كنت لم أبدأك، ولم أخبرك بما له جئت، وإياه طلبت، وأنت تكتم أمراً تطلبه وأنت تُظهر غيره، فإنه لم يكن يخفى عليَّ، ولكن — لرغباتي في إخائك — كرهت أن أواجهك بأنه قد ظهر لي ما تكتم، وأنه قد استبان لي ما أنت فيه وما تُخفيه، فاما إذا افتتحت الكلام فأنا مُخبرك عن نفسك، ومُظہر لك سريرة أمرك، ومعلمك حالك الذي قدِمت عليه، فإنك قدِمت بلادنا لتسلينا علومنا الرفيعة وكنوزنا النفيسة، فتدھب بها إلى بلادك لنُسْرَ بها ملكك، وكان قدومك بال默، ومصادقتك بالخدية، ولكن لما رأيت صدرك وطول مواظبتك على طلب حاجتك، وتحفظك من أن تسقط في الكلام — في طول لبِّك عندنا — بشيء نستدل به على سريرة أمرك، ازددتُّ رغبة في عقلك، وأحببت إخاءك،

^٥ لم يذكر اسم هذا الرجل إلا في نسختنا ونسخة شيخو، وهو في الثانية: «أدوبيه».

ولا أعلم أني رأيت أوزنَ منك عقلاً، ولا أحسن أدبًا، ولا أصبر على طلب حاجة، ولا أكتم للسرّ منك، ولا أحسن خلقاً، ولا سيما في بلاد غربة، ومملكةٌ غير مملكتك، وعند قومٍ لم تكن تعرف سنتهم ولا أمرهم.

واعلم أنَّ عقل الرجل يسبّتين في أمور ثمانٍ؛ الأولى منها: الرفق والتلطف، والثانية: أن يعرف الرجل نفسه ويحفظها، والثالثة: طاعة الملوك وتحري ما يرضيهم، والرابعة: معرفة الرجل بموضع سره، وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه، والخامسة: أن يكون على أبواب الملوك حُولًا أربًا ملق اللسان، وال السادسة: أن يكون لسرّه ولسرّ غيره حافظًا، والسابعة: أن يكون قادرًا على لسانه، فلا يلفظ من الكلام إلَّا ما قد روَى فيه وقدرَه، والثامنة: إذا كان في المحفَل لم يُجب إلَّا بما يُسأل عنه، ولم يُظهر من الأمر إلَّا ما يجب عليه.

فمن اجتمعت فيه هذه الخصالُ الثمانية كان هو الداعي إلى نفسه الخير والربح، والمجنب لنفسه الشرُّ والخسار، وقد حملت هذه الخصال بأسرها، وهي بيَّنةٌ ظاهرةٌ فيك، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال شُقْع في طلبته، وأسْعَف بحاجته، وإن حاجتك التي تطلب قد أربعتني وأدخلت عليَّ الوحشة والخشية، ونسأله السلام.

فلما سمع بربزويه بذلك تيقن أنه قد ظفر بحاجته، وأقبل عليه، وقال: يا أخي، لم تُخطِّ فراستي فيك في أول مقدمي عليك، واستمعاني جوابك، وإنما رميْتُ بجملة كلامي، وإيجاز منطقي، لما علمتُ من حُسن مَنْقِبتك، وبُعد مذهبك، وغوصك على معدن الفطنة والحكمة، فلذلك وثقتُ منك بحسن القول مني وقبول كلامي، وإسعافي بحاجتي، وإن إفشاء السر إلى العلماء والعلماء وأهل العلم، والثقة بهم، أفضل عدَّة، وكذلك شبَّهت العلماء مُويع الأسرار عند أهلها بالجبل الشامخ الذي لا تُزيله الريح، ولا تحرّكه بكثرة إذرائها، وأنت — بحمد الله — يُدْك عندي جميلة، عليها أعتمد.

قال الهندي: حفظُ الأسرار وكتمانها شبَّهته العلماء بخلاف القارورة المغطى عليها، تراها واحدة، فإذا نزع الغطاء فجرمان اثنان، فإذا فُرِّغت مما فيها فهي ثلاثة مشهورة قد عُلِم بها.^٦ ورأس الأدب حفظ السرّ؛ لأنَّ السرّ إذا تكلَّم به لسانان صار إلى ثلاثة، وإذا صار إلى ثلاثة شاع في الناس، ومثلُه في ذلك مثلُ الغيوم التي في السماء، إذا كانت

^٦ مثل الزجاجة ليس في النسخ الأخرى.

متقطعة فادعى ناسٌ أنها مستوية ليس فيها خلل ولا فُرجة، كذبهم قومٌ آخرون، وعلى الناظر تمييز صدق ذلك من كذبه؛ ولك عندي يا أخي — مع قرب العهد بيننا — من الأيدي الكرام والألطف ما أنتدم لذلك^٧ منك، وإنك تسألني حاجةً أتخوّف أن تذيع أو يفطن بها حاسدٌ، فيكون ذلك فيه هلاكي واستئصالي، ثم لا أقدر على الافتداء بعوضٍ ولا مالٍ ولا جاهٍ ولا عونٍ؛ لأنَّ هذا الملك سُخطه أدنى شيءٍ، ولا يُرضيه كثرة التملق ولا التضُرُّع، فذلك دعاني إلى الانقضاض منك والتأكد عليك.

قال بربويه: مِنْ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ فِي الرِّجَالِ كَتْمَانُ السِّرِّ، وَحَفْظُ مَا اسْتُوْدِعُ مِنْهُ، فَإِنَّمَا نجاحُ حاجتي بِإِذْنِ اللَّهِ فِي يَدِكَ، وَكَتْمَانُ ذَلِكَ فِي يَدِي.

قال بربويه:^٨ إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحُوا الصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سَرَّ صَدِيقِهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ، إِيَّاكَ اعْتَمَدْتُ بِهِ، وَإِلَيْكَ أَفْشَيْتُهُ، وَلَنْ يَتَجاوزَ مِنِّي وَمِنْكَ إِلَى أَحَدٍ تَكْرَهُهُ وَتَخَافُهُ إِذَا عَتَّهُ وَإِفْشَاءَهُ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ مِنْ قِبَلِي آمِنٌ، وَلَكُنْكَ تَتَقَى أَهْلَ بَلَادِ الْمُطَيفِينَ بِالْمَلَكِ أَنْ يُشَيِّعُوا ذَلِكَ، وَأَرْجُو أَلَّا يُشَيِّعُ؛ لِأَنِّي ظَاعِنٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ، وَمَا أَقْمَتُ فَلِيْسَ بِيَنِّا ثَالِثًا، فَشَفَعَهُ الْهَنْدِيُّ فِيمَا طَلَبَ، وَأَعْطَاهُ حاجتهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابَ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةِ.^٩

فَلَمَّا وَقَعَ بَرْبُويهُ فِي تَفْسِيرِ الْكُتُبِ وَنَسْخَهَا أَقَامَ عَلَى ذَلِكَ زَمَانًا عَظِيمًا فِيْهِ مَؤْنَتَهُ وَنَفْقَتَهُ، وَأَنْصَبَ فِيهِ بَدْنَهُ، وَسَهَرَ فِيهِ لَيْلَهُ، وَدَأَبَ فِيهِ نَهَارَهُ مِنَ الْخُوفِ عَلَى نَفْسِهِ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ وَمِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ وَأَحْكَمَهَا، كَتَبَ إِلَى كُسْرَى أَنُو شِرْوَانَ يُعْلَمُ بِمَا لَقِيَ مِنَ التَّعْبِ وَالْعَنَاءِ، وَأَنَّهُ قَدْ فَرَغَ مِنْهُ وَمِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ، فَأَجَابَهُ كُسْرَى فِي سِرْ مَكْتُومٍ يَأْمُرُهُ بِالْأَوْبَةِ إِلَيْهِ سَاعَةً يَرِدُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَتَجَهَّزَ بَرْبُويهُ، وَخَرَجَ مِنْ بَلَادِ الْهَنْدِ حَتَّى وَرَدَ فَارِسَ، وَدَخَلَ عَلَى كُسْرَى وَخَرَّ لَهُ سَاجِدًا، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ وَاسْتَوَى قَائِمًا رَآهُ كُسْرَى قَدْ شَحَبَ لَوْنَهُ، وَتَغَيَّرَتْ سُحْنَتُهُ، وَشَابَ رَأْسَهُ، فَرَقَّ لَهُ وَقَالَ: أَبِشِرْ أَيْهَا الْعَبْدَ الْمُطَيِّعَ مَوْلَاهُ، النَّاصِحُ لِلَّكِ، بِبَشْرِي صَالِحةً، فَقَدْ اسْتَوْجَبْتَ الشَّكَرَ مَنَّا، وَمِنْ جَمِيعِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فَإِنَّا لَا نَدْعُ رَفْدَكَ وَالنَّظَرَ لَكَ، وَنَحْنُ صَانِعُونَ لَكَ أَفْضَلَ مَا رَجُوتَ وَأَمْلَتَ، ثُمَّ أَمْرَهُ أَنْ يَنْصُرْفَ وَيُرِيحَ بَدْنَهُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ يَأْتِيهِ، فَفَعَلَ.

^٧ وضع الإشارة موضع الضمير هنا يشبه التعبير الفارسي.

^٨ الظاهر أنَّ عبارته: «قال بربويه» كُسرت في أثناء كلامه تأكلاً.

^٩ في النسخ المصرية ونسخة اليازجي وطبارة أن هذا الهندي كان خازن الملك، ونظنُها زيادة من بعض النساء يُراد بها تفسير يمكن هذا الرجل من كتب الملك.



فلما كان في اليوم الثامن دعا به، وأمر أن يحضر العلماء والashraf من أهل مملكته، وأمر بُرْجِمَهُرَ أن يقرأ الكتاب على رءوس الأشهاد، فلما قرأ الكتاب وسمعوا ما فيه من العلم والأدب والأعاجيب التي حكوها علىأسن الحيوان والطير تعجبوا منه، وشكروا الله على ما أنعم عليهم به من الأدب والمعرفة على يد بربزويه، وأحسنوا الثناء عليه.

ثم إنَّ الملك أمر بأن تُفتح خزائن الذهب والفضة لبرزويه، وأمره أن يأخذ منها ما أحَبَّ، فسجد بربزويه للملك، ورفع رأسه وقال: عشت أيها الملك حميًداً مُخلَّداً، إنا بحمد الله قد أفادنا الله في دولة الملك وبهاء ملوكه وعز سلطانه ما لم نأمله، وكل ما أنعم الله علينا به من الله، ومن الملك، ولا حاجة لي إلى شيءٍ من ذلك، لكنني أُريد أن أسألك حاجةً يسيرةً يكون لي في قضائها ذكرٌ وفخرٌ، قال الملك: وما تلك الحاجة؟ قال بربزويه: إن رأى الملك أن يأمر بُرْجِمَهُرَ بنَ الْبَخْتَكَانَ أن يضع لي في رأس هذا الكتاب باباً باسمي،

وينسب إليه شأنٍ وفعليٍّ، ليكون ملن بعدي عبَّرَهُ وتأديبِي، ويحيى به ذكري ما حييتُ في الدنيا وبعد وفاتي، فإنه إن فعل ذلك فقد شرَّفني وأهل بيتي آخر الأبد.^{١٠}

فقال الملك: ما أهونَ ما سألتُ في جنب ما استوجبت! وتقدم إلى بُزْرِجِمَهْرَ بأن يضع له باباً وينسبه إليه على موافقة الحق؛ ليكون تحريضاً لمن قرأه على طاعة الملوك، ولا يقصُّ في إتقانه وتحبيره بغاية وسعه وطاقته.^{١١} فقبل بُزْرِجِمَهْرَ وصية كسرى في ذلك: لعلمه بحسن رأيه في بروزويه وإكرامه إياه، وأطنب في ذلك الباب، واجتهد في إتقانه وترصيفه، ونسبه إليه، وذكر تنقله من حال إلى حال، وبحثه عن الأديان، والتماسه طلب الحكمة، ثم استأنذن على الملك فقرأه بين يديه، فتعجبَ كسرى ومن بحضرته منه.^{١٢}

فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف السبب الذي وضع عليه كتابُ كليلة ودمنة، وحُوّل من أرض الهند إلى أرض فارس، ول يعرف فضلَ الملوك وطاعتهم، و يؤثرها على سائر الأعمال، ول يعلم أنَّ الشَّرِيفَ من شرفته الملوك، ورفعته في دولتها.

^{١٠} في النسخ الأخرى إطباب في حديث بروزويه والملك.

^{١١} في النسخ الأخرى إطباب في وصف الملك الباب الذي يضعه بزرمهر، وفيها طلب الملك أن يجعل هذا الباب أول الأبواب.

^{١٢} في النسخ الأخرى وصف احتفال أنو شروان بقراءة «باب بروزويه».

باب برزویه الطبیب^۱

من کلام بزرگمهر بن البختکان

قال **بُزْرِجِمَهْر**: إنَّ بِرْزُوِيَه رَأْسُ أَطْبَاءِ فَارَس، وَهُوَ الَّذِي وَلَيَ اِنْتَسَاخَ هَذَا الْكِتَابُ وَتَرْجِمَهُ مِنْ كِتَابِ الْهَنْد، قَالَ: إِنَّ أَبِي كَانَ مِنَ الْمَاقِاتِلَهُ، وَكَانَتْ أُمِّي مِنْ بَنَاتِ عَظِيمَاءِ الزَّمَازِمهَهُ، وَفَقِيهَائِهِمْ فِي دِينِهِمْ.

وكان مما ابتدأني به ربّي من نعّمه أني كنتُ من أكرم ولد أبوّي عليهم، وأنهما
إسلاماني في تعليم الطب لماً صار لي من عمرِي سبع سنين،^٢ فلماً بلغتُ وعرفتُ أمر الطب
وفضله، شكرت رأيهما في ذلك، ورغبت في تعلمه، حتى إذا شدّوت منه علمًا، وبلغت فيه
ما أمنت له نفسي على مداواة المرضى وهمت بذلك، أمرت نفسي وذكّرتها وخيرتها بين
الأمور الأربع التي إياها يطلب الناس، ولها يسعون، وإليها يجذون، فقلتُ: أي هذه
الخالل ينبغي لمثلي أن يتمسّ؟ وأيها أحري – إن هو بغاه – أن يدرك منه حاجته؟
آمالُ أم اللذاتُ أم الصوتُ أم أجرُ الآخرة؟ واستدللتُ على المختار من ذلك، فوجدت الطبَّ

^١ تتفق النسخ على أنَّ هذا الباب من وضع بزرمجهر، وتتفق في سياقه وعباراته أكثر مما تتفق في البابين السابقين، ونسخة شيخو تضعه بعد «باب بعثة بربويه»، وقبل «عرض الكتاب لابن المفعع»، والنسخ الأخرى تضعه بعد «عرض الكتاب»، وتضع هذا بعد «باب بعثة بربويه» (انظر المقدمة).

^٢ في النسخ الأخرى أنَّ أبيه أسلماه إلى المؤدب وعمره سبع سنين، فلما حذق الكتابة نظر فاختار الطبي.

محموداً عند العُقلاء، ولم أجده مذموماً عند أحد من أهل الأديان والملل، وأصبحت في كتبهم أنَّ أفضل الأطباء من واظب على طبِّه لا يُريد بذلك إلَّا الآخرة، فرأيتُ أن أواظب عليه أبْتغى ذلك، ولا أتمس له ثمناً، ولا أكون كالناجر الخاسر الذي باع ياقوته كان مُصيّباً من ثمنها غَنِيَ الدهر بخرزة لا تساوي شيئاً، ووجدت في كتبهم أيضاً أنَّ الطبيب المبتغي بطبِّه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك من حظه في الدنيا، فإنما مثله في ذلك مثل الحراث الذي يُثیر أرضه ويعُمرها ابتعاه الزَّرع لا العشب، ثم هي لا محالة نابتُ فيها ألوانٌ منه، فأقبلتُ على مداواة المرضى رجاء ذلك، فلم أدع مريضاً أرجو له البرء وأطمئن له في خفة الوجه إلَّا بلغتُ في معالجته جُهدي، ومن قدرتُ على القيام عليه قمتُ عليه وفعلتُ به ذلك إلَّا وصفت له، ولم أرد لشيءٍ من ذلك جزاءً ولا مكافأةً من فعلته به، ولم أغط من نظرائي ومن هو مثلي في العلم وفوقي في المال أحداً إلَّا بعين صلاح أو حسن سيرة في الناس قولًا وعملًا،^٢ وكنت أقرّع نفسي إنما هي نازعني إلى أن تغبط أولئك، وتتنمى منازلهم، وأبى لها إلَّا الخصومة، وأقول: يا نفس، أما تعرفي نفعك من ضرك؟ إلَّا تنتهين عن الرَّغبة فيما لم يَلْه أحد إلَّا قلَّ اتفقا به ووكث عناوه فيه، واشتدت مؤنته عليه عند فراقه، وعظمت التبعة عليه بعده؟ يا نفس، أما تذكري ما أمامك فتَسْتَشِنُ ما تَشَرَّهين إليه فيما بين يديك؟ ألا تستحيين من مُشاركة الفجارة الجُهال في حب هذه الفانية البائدة التي من كان في يده منها شيءٌ فليس له ولا بباقٍ عليه، والتي لا يألفها إلَّا المغتررون الغافلون؟ يا نفس، أقصري عن هذا السفة، وما أنت عليه من خطل الرأي فيه، وأقبلني — بقوتك وسعيك وما تملkin — على تقديم الخير والأجر ما استطعت، وإياك والتسويف والتلواني، واعلمي أنَّ هذا الجسد ذو آفاتٍ، وأنه مملوء أخلاطاً فاسدة قبرة تجمّعها أربعة أشياء مُتعادلةٌ مُتَغَالِيَّةٌ تعمِدُهُنَّ الحياة، وهي إلى نفاد، كالصنم المفصل أعضاؤه إذا رُكِبت جَمِعها مِسْمَارٌ واحدٌ وأمسك بعضها على بعض، فإذا أخذ المسamar تساقطت الأوصال. يا نفس، لا تغاري بصحبة أحبائك وأخلاقك، ولا تحرضي على ذلك، فإنهما على ما فيها من السرور والبهجة كثيرةُ الأذى والمؤنات والأحزان، ثم تختتم ذلك بقطع الفراق، كالمُغْرَفَة تُستعمل في صحتها وجِدَتها في حرارة المرق وسخونته، فإذا هي انكسرت صار عاقبة أمرها إلى النار. يا نفس، لا يحملنَّك ما تريدين من صلة أهلك وأقاربك والتماس

^٢ في النسخ الأخرى: «وفوقي في المال والجاه وغيرهما مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولًا ولا عملاً».

رضاهم على جمع ما تهلكين فيه، فإذا أنت كالدُّخنة الطَّيِّبة التي تحترق ويدهُ بِعَرْفَها آخرون، وكالذِّبالة تضيء لغيرها باحتراقها.^٤ يا نفس، لا تغتربي بالغنى والمنزلة التي تبطر أهلها، فإنها إلى انقلاب، وإنَّ صاحب ذلك لا يُبصِّر صغر ما يستعظم حتى يُفارقه، فيكونُ كشَّعَ الرَّأس الذي يُكْرمه صاحبه، ويُخْدِمُه ما دام على رأسه، فإذا فارق رأسه قدَّره وقَرَّ منه. يا نفس، دومي على مداواة المرضى، ولا يعوقك عن ذلك أن تقولي: إنَّ الطَّبَّ مئونة شديدة، والنَّاسُ بمنافعها ومنافع الطَّبِّ جُهَّاً، ولكن اعتبري بمن يُفَرِّج عن رَجُلٍ كُرْبَةً تَحُلُّ به، ويستنقذه منها حتى يعود بها إلى ما كان يكون فيه من السَّعة والرَّوْح، فإنه أهل لعظيم الأجر وحسن الجزاء، فكيف بالمتطلب الذي يفعل ذلك بالعدة التي الله أعلم بها، فيعودون — بعد الأقسام المُضَّة والأوجاع الحادثة بينهم وبين لذات الدنيا من طعامها وشرابها وأزواجها وأولادها — إلى أحسن ما كانوا يكتونون عليه من حالاتهم؛ فإنَّ هذا خليق بجزيل الثواب وعظيم الرَّجائِع. يا نفس، لا يبعُدَنَّ عليك أمرُ الآخرة الدائمة فتميلِي إلى الدُّنيا الزائلة، فتكوني في استعمال القليل وبيع الكثير باليسير كالناجر الذي زعموا أنه كان له ملء بيت صندلاً، فقال: إنَّ أنا بعثه موزوناً طال علي، فباعه مجازفة بأحسن الثمن.

فلماً خاصمت نفسي بهذا، وأخذتها به، وبصررتها إياه؛ لم تجد له نقضاً، ولا عنه مذهبًا ولا منصرفًا، فاعترفت وأقرت، ولَهَتْ عما كانت تنزع إليه وترغِب فيه، وأقمت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة، فلم يمنعني ذلك من أن أصبت من الدنيا حظًا جسيماً ونصيباً عظيماً من الملوك والأولياء والإخوان قبل أن آتي الهند، وبعد رجوعي منها، وفوق الذي كان طمعي يجذب إليه، وفوق ما كنت له أهلاً.

ثم نظرت في الطب فوجدتُ الطبيب لا يستطيع أن يُداوي المريض بدواءٍ يُذهب عنه داءه، فلا يعود إليه أبداً ذلك الداء ولا غيره من الأدواء التي هي مثله أو أشدُّ منه، فلم أدر كيف أُعَدُّ البرءَ بُرءًا، والداء لا تؤمن عودته أو اعتراء ما هو أشدَّ منه، ووجدتُ عمل الآخرة هو الذي يُسَلِّمُ من الأداء حتى يبرأ صاحبها بُرءًا يأمن معه من الأدواء كلها، فاستخففتُ

^٤ مَثَلُ الذِّبَالَة لِيُسَمِّ فِي النَّسْخِ الْآخِرِيِّ.

٥ من قوله: «فلماً خاصمت نفسي» إلى قوله: «فَلَمَا رأيْتَ ذَلِكَ لَمْ أَجِدْ إِلَى مَتَابِعَةِ أَحَدِهِمْ سَبِيلًا» ناقص في النسخ الأخرى إلا نسخة شيخو، وكأنه حُذِفَ لما فيه من الكلام عن الأديان وغيرها، ولهذا يرى بعض الناس أنَّ هذا الباب كله من وضع ابن المقفع أراد أن يشكك به الناس في الدين (انظر المقدمة).

بالطب وأردت الدين، فلما وقع ذلك في نفسي اشتبه على أمر الدين، أما كُتب الطب فلم أجد فيها شيءٍ من الأديان ذكرًا يدلُّني على أهدافها وأصوبها، وأماماً الملل فكتيرة مُختلفة ليس منها شيءٌ إلا وهو على ثلاثة أصناف: قومٌ ورثوا دينهم عن آبائهم، وأخرون أكرهوا عليه حتى ولدوا فيه، وأخرون يبتغون به الدنيا، وكلُّهم يزعم أنه على صواب وهدى، وأنَّ من خالقه على خطأٍ وضلالٍ، والاختلاف بينهم كثيرٌ في أمر الخالق والخلق، ومبتدأ الأمر ومنتهاه، وما سوى ذلك، وكلٌّ على كلٍّ زار، وله عدوٌ، وعليه عائبٌ، فرأيت أن أراجِع علماءَ أهل كلِّ ملة، وأناظرهم فأنظر فيما يصفون، لعلِّي أعرف بذلك الحقَّ من الباطل فأختاره وألزمـه على ثقةٍ ويقين، غير مُصدقٍ بما لا أعرف، ولا تابع ما لا يبلغه عقلي، ففعلت ذلك وسألتُ ونظرتُ فلم أجـد أحداً من الأوائل يزيدُ على مدح دينه، وذمٌّ ما يخالفه من الأديان، فاستبان لي أنـهم بالهوى يجـبون ويتكلـمون لا بالعدل، ولم أجـد عند أحدٍ منهم صفةً تكون عدلاً يـعرفها ذو العـقل ويـرضي بها.

فلما رأيت ذلك لم أجـد إلى متابعة أحدـ منهم سبيلاً، وعرفت أنـي إنْ أـوفقـه على ما لا أـعلم أـكـنـ كالـمـصـدـقـ المـخدـوعـ الذـي زـعـمـوا أـنـ جـمـاعـةـ منـ الـلـصـوصـ ذـهـبـوا إـلـىـ بـيـتـ رـجـلـ منـ الـأـعـنـيـاءـ لـيـسـرـقـواـ مـتـاعـهـ، فـعـلـوـاـ ظـهـرـ بـيـتـهـ لـيـلـاـ، فـانتـهـ صـاحـبـ الـبـيـتـ لـوـطـهـمـ وـأـحـسـ بـهـمـ، فـعـرـفـ أـنـهـ لـمـ يـعـلـمـ ظـهـرـ بـيـتـهـ فـيـ تـلـكـ السـاعـةـ إـلـاـ مـرـيـبـ، فـأـيـقـظـ اـمـرـأـتـهـ وـقـالـ لـهـ: روـيـدـاـ! إـنـيـ لـأـحـسـ بـ الـلـصـوصـ قـدـ عـلـوـاـ ظـهـرـ بـيـتـنـاـ، وـأـنـاـ مـُـتـنـاوـمـ لـكـ، فـأـيـقـظـنـيـ بـصـوتـ رـفـيـعـ يـسـمـعـهـ مـنـ فـوـقـ الـبـيـتـ مـنـ الـلـصـوصـ، ثـمـ قـوـلـيـ لـيـ: أـلـاـ تـخـبـرـنـيـ عـنـ أـمـوـالـ الـكـثـيرـ هـذـهـ وـكـنـوزـ مـنـ أـيـنـ جـمـعـتـهـ؟ فـإـذـاـ أـبـيـتـ عـلـيـكـ فـأـلـحـيـ فـيـ السـؤـالـ، فـفـعـلـتـ الـمـرـأـةـ ذـلـكـ، وـسـمـعـ الـلـصـوصـ كـلـامـهـاـ، فـقـالـ الرـجـلـ: أـيـتـهـ الـمـرـأـةـ، قـدـ سـاقـكـ الـقـدـرـ إـلـىـ رـزـقـ وـاسـعـ، فـكـلـيـ واـشـرـبـيـ وـاسـكـتـيـ وـلـاـ تـسـأـلـ عـمـاـ لـوـ أـخـبـرـتـ بـهـ لـمـ آمـنـ أـنـ يـسـمـعـهـ سـامـعـ، فـيـكـونـ فـيـ ذـلـكـ مـاـ أـكـرـهـ وـتـكـرـهـينـ، فـقـالـتـ الـمـرـأـةـ: لـعـمـريـ مـاـ بـقـرـبـنـاـ أـحـدـ يـفـهـمـ كـلـامـنـاـ، قـالـ الرـجـلـ: فـإـنـيـ مـخـبـرـكـ أـنـيـ لـمـ أـجـمـعـ هـذـهـ الـأـمـوـالـ وـالـكـنـوزـ إـلـاـ مـنـ السـرـقةـ، قـالـتـ: وـكـيـفـ كـانـ ذـلـكـ وـأـنـتـ فـيـ أـعـيـنـ النـاسـ عـدـلـ مـرـضـيـ لـمـ يـتـهـمـكـ وـلـمـ يـسـرـبـ بـكـ أـحـدـ؟ قـالـ: ذـلـكـ لـعـمـ أـصـبـتـهـ فـيـ

^٦ كلمة «الذـي» هنا تـشـبـهـ أـنـ تكونـ تـرـجـمةـ الكلـمةـ «كـهـ» الفـارـسـيـةـ، وـهـيـ تـكـونـ بـمـعـنـيـ الذـيـ، وـتـأـتـيـ لـلـتـعـلـيلـ وـالتـفـرـيـعـ، وـيـنـبـغـيـ أـنـ يـكـونـ مـوـضـعـهـ هـنـاـ: «فـقـدـ زـعـمـواـ»، وـفـيـ النـسـخـ الـأـخـرـيـ: «زـعـمـواـ فـيـهـ» أـوـ «فـيـ شـائـنـهـ» وهذا تصـحـيـحـ لـلـجـملـةـ بـذـكـرـ الضـمـيرـ الـعـائـدـ عـلـىـ الـمـوـصـولـ لـتـوـافـقـ النـحوـ الـعـربـيـ.

السرقة كان ألطاف وأرفق من أن يتهمني أحد أو يرتاب فيّ، قالت: وكيف كان ذلك؟ قال: كنتُ أذهب في الليلة المُقمرة ومعي أصحابي حتى أعلى ظهر البيت الذي أريد أن أسرقه، فأنتهي إلى الكُوَّة التي يدخل منها الضوء إلى البيت، فأرقى بهذه الرُّقية، وهي: «شَوْلَم، شَوْلَم» سبع مرات، ثم اعتنق الضوء فأهلبته إلى البيت، ولا يحسُّ بوعي أحدٍ، ثم أقوم في أسفل الضوء فأعيد الرُّقية سبع مرات، فلا يبقى في البيت مالٌ ولا متاعٌ إلا ظهر لي، وأمكنتني أن أتناوله، وقويتُ على حمله، ثم أعيدها واعتنق الضوء وأصعد إلى أصحابي فأحِّلُّهم ما معِي، ثم نَنْسَلُ ولا يشعر بنا أحد.

فلما سمع اللصوص ذلك فرحاً وقالوا: لقد ظفرنا من هذا البيت بأَمْرٍ هو خيرٌ لنا من المال، وأمناً به من السلطان، وأطالوا المُكث حتى ظنُّوا أنَّ الرجل قد نام، ودنا رئيسهم إلى مدخل الضوء من الكُوَّة، فقال: «شَوْلَم، شَوْلَم» سبع مرات، ثم اعتنق الضوء لينزل إلى البيت، فوُثِّبَ إليه صاحب البيت بهراوة فأوجعه ضرباً، وقال له: من أنت؟ قال: أنا المصدّق المخدوع، وهذه ثمرة تصديقي.

فلما تحرَّزَت من التصديق بما لم آمن أن يوقعني في مهلاكة عُدْتُ إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عند أحدٍ مِنْ كلامه — في جواب ما سأله عنه، ولا فيما ابتدأني به — شيئاً يحقُّ عليًّا في عقلي أن أؤمن به وأتبعه، فقلتُ: أما إذا لم أُصب ثقةً آخرَ منه فإنَّ الرأي أنَّ الْزم دين آيائِي، وهممَتْ بذلك فلم أَرْ لي فيه مخرجاً، ولا وجدتُ الثبوت على دين الآباء سبيلاً، ولا لي فيه حُجَّةً ولا عذرًا، فأردت التفرغ للعود إلى البحث عن الأديان والمسألة عنها، فعرض لي تخوْفُ قُرْبِ الأجل وسرعته، وانقطاع الدنيا وفناؤها، وفكَّرت في ذلك الوقت وقلتُ: أما أنا فعل موتي يكون أوشك من تقليبي كَفَّي ورجُعَ جفني على عيني، وقد كنتُ أعمل أموراً أرجو أن تكون من صالح الأعمال، لعلَّ ترددِي وتنقلي وبختي عن الأديان يشغلني عن خِيرٍ كنتُ أفعله، فيكون أجي دون ما يطمح إليه أمري، أو يُصيّبني في ترددِي وتحولي ما أصاب الرجل الذي زعموا أنه علق امرأة ذات بعل وعلقتها، فحفرت له من بيتها سرَّاباً إلى الطريق، وجعلت مخرجَه عند حُبِّ الماء، تخوْفاً أن يفاجئها زوجها أو أحدٍ وهو عندها، فبينما هي ذات يوم وهو عندها إذ بلغها أنَّ زوجها بالباب، فقالت للرَّجل: اعجل واخْرُج من السَّرَّاب الذي عند الحُبِّ، فانطلق الرجل إلى ذلك المكان، فوافق الحُبِّ قد رُفع من ذلك المكان، فرجع إلى المرأة فقال: قد انتهيتُ إلى حيث أمرتِ فلم أجد الحُبِّ، فقالت المرأة: أيها المائق، وما تصنع بالحُبِّ؟ وهل سميته لك إلا لتسدل به على السَّرَّاب؟ قال: لم تكوني حقيقةً أن تذكريه

لي فتغلطيني به، فقالت المرأة: ويحك! انْج بنفسك، ودع التردد والحمق، فقال: كيف أذهب وقد خلّطت عليّ؟ فلم تزل تلك حالته حتى دخل زوجها فأوجعه ضرباً ثم رفعه إلى السلطان.

فلما خفتُ التردد والتحول رأيت ألا أتعرض لهما، وأن أقتصر على كلّ شيءٍ تشهد العقول أنه بِرٌّ، ويتحقق عليه كلّ أهل الأديان، فكففتُ يدي عن الضرب والقتل والسرقة والخيانة، ونفسي عن الغضب، ولسانني عن الكذب وعن كلّ كلام فيه ضررٌ لأحد، وكففتُ عن أذى الناس والغيبة والبهتان، وحصّنت فرجي عن النساء، والتمسّت من قلبي ألا أتمنى ما لغيري، ولا أحبّ له سوءاً، ولا أكذب بالبعث والحساب والقيامة والثواب والعقوب، وزايلتُ الأشرار بقلبي، وأحبيتُ الصالحة جهدي، ورأيتُ الصلاح ليس مثّله قرینٌ ولا صاحبٌ، ومكتتبه — إذا وفق الله له — يسیر، وأصبتُه خيراً على أهله، وأبرَّ من الآباء والأمهات، ووجّهته يدُّ على الخير، ويُشير بالنصح، فعل الصديق بالصديق، ووجّهته لا ينقص إذا أُنفق منه، بل يزداد على الإنفاق ويكتُر، ولا يخلق على الابتدا والاستعمال، بل يجُدُّ ويحسُّن، ولا خوف عليه من السلطان أن يسلبه، ولا من الآفات أن تُفسدَه، ولا من النار أن تُحرقه، ولا من اللصوص سرقةً، ولا من السباع افتراساً، ولا من ذي حمّة لدغاً، ولا من الغارة، ولا من الجواح. ووجدت الرجل الذي يزهد في الصلاح وعاقبته، ويلهيه عن ذلك قليل ما هو فيه من الحلاوة العاجلة التقاد، إنما مثّله فيما ذهبت فيه أيامه مثّلُ التاجر الذي زعموا أنه كان له جوهر كثير، فاستأجر لثقبه وعمله رجلاً بمائة دينار يومه إلى الليل، فانطلق به إلى بيته، فلما جلس إذا بصنج موضوع، فنظر إليه، فقال له التاجر: أتحسُّ أن تضرّ به؟ قال: نعم، قال: فدونك، فتناوله وكان به ماهرًا، فلم يزل يُسمِّعه صوتاً حسناً مصيباً، وترك سقط جوهه مفتوحاً وأقبل عليه. فلما أمسى قال: مُرْ لي بأجرتي، قال: وهل عملت شيئاً؟ قال: نعم، عملت ما أمرتني به، فوفاه أجرته، وبقي ما استأجره عليه غير معمول. فلم أزدد في أمور الدنيا نظراً إلّا أحدهٗ لي ذلك فيها زهداً، ورأيتُ أن أعتصم بالتأله والنُّسك، ووجّهتُهما اللذين يمهدان للعباد، كما يفعل بالمرء أبوه،^٧ وشبّهتهما الجنّة الحرizza في دفع الشر البالقي الدائم، ورأيتُهما الباب المفتوح إلى الجنّة، ووجدتُ الناسك قد فكرَ فَعلَّتْ السكينة،

^٧ في النسخ الأخرى: «كما يمهد الوالد لولده»، وكأنها توضيح للجملة التي في نسختنا.

وشكل فتواضع، وقنع فاستغنى، ورضي فلم يهتم، وخلع الدنيا فنجا من الشرور، ورفض الشهوات فصار طاهراً، وانفرد فكفي الأحزان، وطرد الحسد فظهرت منه المحبة، وساخت نفسه عن كل شيءٍ فانِ فاستكملا العقل، وأبصر العاقبة فأمن من الندامة، ولم يُخْفِ الناس فأمن منهم، ولم يُذنب إليهم فسلم. فلم أزدد في أمر النسك تفكراً إلا أحدث لي عليه حرصاً، فهممتُ أن أكون من أهله، ثم تخوَّفتُ لا أصبر على عيشهم، وأن ترُدْني العادة التي جريتُ عليها وغَذَيْتُ بها، ولم آمن إن أنا خلعتُ الدنيا وأخذتُ في النسك أن أضعف عنه، وأكون قد رفضتُ أموراً كنت أعملها قبله أرجو عائتها، فأكون كالكلب الذي مرَّ بنهر وفي فيه ضلوع، فرأى ظله في الماء فأهوى إليه ليأخذنه، وترك ما كان معه فذهب، ولم يَكُلِ الذي طمع فيه. فهبتُ النسك هيبة شديدة، فأحجمت عن الإقدام عليه، وخفت على نفسي من الضجر فيه وقلة الصبر عليه، ودعاني الهوى إلى الرضا بما كنت عليه من حال في الدنيا والثبتوت عليها، ثم بدا لي أن أقيس بين ما أشفع ألا أقوى عليه من الأذى والضيق في النسك وبين الذي يصيب صاحب الدنيا من البلاء فيها، فكان يتحقق عندي أنه ليس من شهواتها ولذاتها شيءٌ إلا وهو متحوَّلٌ مكروهاً وحزناً، وأنه كلماه الملح الذي لا يزداد الظمآن منه شريراً إلا ازداد به عطشاً، وكالعظم المتعرق الذي يُصييه الكلب فيجدُ فيه ريح حم فلا يزال يلوكه، وكلما ازداد له نهشاً زاد كدوحاً حتى يُدمي فاه، وهو لا يُكثِر التماسه إلا جَرَحَه وأدماه، وكالحَدَأَةَ التي تظفر بالبَضْعَةِ من اللحم، فتجمع علىها الطير، فلا تزال في تعب حتى تلفظها وقد أعيت وتعبت، وكالكوزة من العسل في أسفلها سُمٌّ، والذائق لها مُصيِّب منها حلاوة عاجلة وفي أسفلها موتٌ زُعاف، وكأحلام النائم التي تُفرِّحه، فإذا استيقظ انقطع عنه ذلك، وكالبرق الذي يُضيء قليلاً وينذهب وشيئاً، ويبقى راجيه في الظلام، وكَدُودَةَ الأَبْرِيسَمَ التي لا تزداد على نفسها لفألا ازدادت تشبيغاً، ومن الخروج بعدها.

فلما فكرتُ في ذلك راجعتُ نفسي في اختيار النسك وخاصمتها، فقلتُ: ما يجوز هذا، أن ^٨ أفرَّ من النسك إلى الدنيا، إذا فكرتُ في شرورها وأحزانها، ثم أهرب منه إليها إذا تذكرتُ ما فيها من الضيق والمشقة، فلا أزال في تصرف وفي تقلب لا أُبِرُّ رأياً ولا أعزِّم

^٨ هذه العبارة تشبه العبارة الفارسية التي يؤتى فيها باسم الإشارة ثم الموصول مفسراً له: «آن كه».

عليه، فصرتُ كحديرون قاضي مرو^٩ الذي سمع من أول الخصمين فقضى على الآخر، ثم سمع من الآخر فقضى له على الأول، فنظرتُ إلى الذي يتكاءُ عندي من أذى النسك وضيقه، فقلتُ: ما أصغر هذا في جنب روح الأبد وراحته! وفكَّرْتُ فيما تشرَّهُ إليه النفس من اللهو واللذة، فقلتُ: ما أوخَّمَه مع ما يُتَخوَّفُ من العذاب والهوان! فكيف لا يستحلِّي الإنسان مراراً فانيةً قليلةً تورثه حلاوةً كثيرةً باقيةً.

ولو أنَّ الرجل عُرض عليه أن يعيش ألف سنة، لا يأتي عليه يوم إلا بُضع لحمه، غيرَ أنه شُرِط له أنه إذا استوفاها نجا من الألم والمشقة، وصار إلى الأمان والسرور، كان حقيقةً لا يراها شيئاً، فكيف لا يصبر على أيام يسيرة وأدائِ حقير يُصيبيه في الدنيا؟ أوَ ليس إنما الدنيا كلها عذابٌ وبلاء؟ فإنَّ الإنسان يتقلَّب في ذلك من حين يكون جنيناً إلى أن يستوفي أيامه، فإنَّ نجد في كتب الطب أن الماء الذي يُقدَّر منه الولد السوي إذا وقع في رحم المرأة اختلط بمائهَا ودمها، فختَّرَ وغلظ، فمخضته الريح حتى يصير كماء الجبن، ثم يصير كاللبن الرائب، ثم تنقسمُ أعضاؤه لإِبَانِ أجله، فإنَّ كان ذكرًا فوجهه قبل ظهر أمه، وإن كانت أنثى فوجوها قبل بطنها، ويداه على وجهه، وذقنه على ركبتيه، مقبَّض في المشيمة كأنه مصروف في صَرَّة، وهو يتتنفس من متنفس شاقٌ عليه، وليس منه عضو إلا كأنه في وثاق، فوقه حُرُّ البطن وثقله، وتحته ما تحته، منوطٌ قمع سُرْرته إلى مريءِ بائعتها، يمْضُ به من طعامها وشرابها، وبذلك يعيش ويحيا، فهو بهذه المزلة وعلى هذا الحال إلى يوم ولادته. فإذا كان إِبَان ذلك سُلْطَت الريح على الرحم، وقوى على التحرير، فيتصوَّب رأسه قبل المخرج، فيجد من ضيقه مثلَ ما يجد صاحب الوهن من عصره، فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مسَّته يد، وجد لذلك من الألم ما يجد الإنسان الذي قد سُلَخ جلده، ثم هو في ألوان العذاب إذا جاء وليس به استطاعام، أو عطش وليس به استسقاء، أو اشتكتي وليس به استغاثة، مع ما يلقى من الوضع والرفع واللفال والحل والدهن والمسح. وإذا أُنيم على ظهره أو بطنه لم يستطع تقلباً ولا تحولاً، مع أصناف من العذاب ما دام رضيعاً؛ فإذا هو أفلَت من ذلك أَخْذَ بالأدب، وأذيق منه فنوناً وألواناً، ثم الدواء والحمية، والأوجاع والأسقام، وغير ذلك؛ فإذا هو أدرك فهمه

^٩ ليس في النسخ الأخرى تسمية القاضي ولا المدينة، ولم نجد اسم هذا القاضي في كتب الأدب العربية والفارسية.

المالُ والأهلُ والولدُ، وَتَعَبُ الشَّرَهُ والحرصُ والمخاطرةُ والسعيُ، ومجاهدةُ العدوِ، وفي كلِّ ما وصفْتُ يتقلبُ معه أعداؤه الأربعَة، من المِرَأَهُ والبلغمُ والدِمَ والريحُ، والسمُ المميتُ والهومُ والسَّباعُ والنَّاسُ، والحرُّ والبردُ والأمطارُ والرياحُ، وألوانُ مكارهِ الهرَمِ لمن بلغَهُ، فلو لم يَحْفَ من هذه الأمور شيئاً، وَوُثِقَ له بالسلامةِ منها، وكانَ حقيقةً ألا يُفَكِّرُ إلَّا في الساعةِ التي يحضرُه فيها الموتُ، ويُفَكِّرُ فيما هو نازلُ به عندها من فراقِ الأهلِ والأحبةِ والأقاربُ، وكلِّ مضنونِ به ومرغوبِ فيه، والإشرافُ على الهرول العظيمِ الفظيعِ المهوَلِ بعد الموتِ؛ لكانَ حقيقةً ألا يُعَذَّ عاجزاً مفترطاً واهناً، إنْ لم يُعَذَّ لذلكُ، ويتأهَبُ لفجأةِ قبْلِ حلولِ ونزولِه بعَقوتهِ، ويرفضُ ما يشغلُه ويُلْهيه من شهواتِ الدُّنيا وشروعها، لا سيما في هذا الزَّمانِ الهرمِ الباليِ الشَّبيهِ بالصُّبَابَهِ والكَدَرِ، فإنه وإنْ كانَ اللهُ تَعَالَى قد جعلَ الملكَ سعيدَ الأمرَ، ميمونَ النقيبةَ، حازمَ الرأيِ، بعيدَ المقدرةِ، رفيعَ الهمَةِ، بلِيقَ الفحصِ، عدلاً بِرِّا جَوَاداً صادقاً شكوراً رحْبَ الذراعِ، متقدداً للحقوقِ، مواطباً فَهِمَا حليماً رءوفاً رحِيمَاً، عالماً بالناسِ، محباً للخيرِ وأهلهِ، شديداً على الظَّلَمةِ، مُوسِعاً على رعيتهِ، فإنَّا نرى الزَّمانَ مُدِيرًا بكلِّ مكانٍ، حتى كأنَّ الفضلَ قد وُدِعَ، وأصبحَ مفقوداً ما كانَ عزيزاً فقدَهُ، موجوداً ما هو ضارٌّ لمن ظفرَ بهِ، وكأنَّ الخيرَ أصبحَ ذابلًا والشرَّ نضيرًا، وكأنَّ الغَيَّ أقبلَ ضاحكاً، وأدبرَ الرشدَ باكياً، وكأنَّ العدلَ أصبحَ غابراً، وأصبحَ الجورُ غالباً، وكأنَّ العلمَ أصبحَ مستوراً، وأصبحَ الجهلُ منشوراً، وكأنَّ اللَّؤمَ أصبحَ أمراً، وأصبحَ الكرمُ موطوءاً، وكأنَّ الودَ أصبحَ مقطوعاً، وأصبحَ الحِقدُ موصولاً، وكأنَّ الكرامةَ قد سُلِبتَ من الصالحينِ وتُوَحَّيُّ بها الأشرارُ، وكأنَّ الغدرَ أصبحَ مستيقظاً وأصبحَ الوفاءُ نائماً، وكأنَّ الكذبَ أصبحَ غضاً والصدقَ قاحلاً، وكأنَّ الحقَ ولَّ عاثراً وأصبحَ العُدوانَ قد جرى سبيلهِ، والإنصافَ بائساً والباطلَ مُستعلياً، والهوى بالحكامِ مُوكلاً، والمظلومُ بالخسفِ مُقرراً، والظالمُ لنفسهِ فيه مُسْتَطِيلاً، والحرصُ فاغراً فاه يتكلفُ من كلِّ جهةٍ ما قرُبَ منهُ وما بَعْدَ عنهِ، والرِّضا مجهوداً مفقوداً، والأشرارُ يُسَامُونَ السماواتِ، والآبارُ يريدونَ بطْنَ الأرضِ، وأصبحتِ المروءةُ مقدوفاً بها من أعلى شرفٍ إلى أسفل مهواهِ، والدناءةُ مكرَّمةً والرُّفعةُ مَجْهُوَّةً والسلطانُ مُتنقلًا من أهلِ الفضلِ إلى أهلِ النقصِ، والدنيا جذلةً مسروقةً تقولُ: قد غُيَّبتِ الحسناتِ وأُظْهِرَتِ السيئاتِ.

فلماً فكرتُ في أمرِ الدُّنيا، وعلمتُ أنَّ هذَا الإنْسَانُ هو أشرفُ الْخَلْقِ وأفضلُهُ فيَّها، ثمَّ هو على مِنْزَلَتِهِ لَا يَتَقَلَّبُ إلَّا في شَرٍّ وَلَا يَوْصِفُ إلَّا بِهِ؛ علِمْتُ أَنَّهُ لِيَسْ مِنْ أَحَدٍ لِهِ أَدْنَى عَقْلٌ يَفْهُمُ هذَا ثُمَّ لَا يَحْتَاطُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَعْمَلُ لِنَجَاتِهَا، وَيَلْتَمِسُ الْخَلَاصَ لِهَا إلَّا وَهُوَ ضَعِيفٌ



الرأي قليل المعرفة بما عليه قوله، ونظرت فإذا هو لا يمنعه من ذلك إلا لذة حقيقة يسيرة من المشرب والمطعم والشم والنظر والسمع واللمس، لعله يُصيب منه طفيفاً لا يوصف، سريع انقطاعه وامتحاقه وزواله. فالتمست له مثلاً فإذا مثله مثل رجل الجاه الخوف إلى بئر تدل فيها وتعلق بغضنين نابتين على شفرها، فوقع رجلاه على شيء عَمَدَهما، فنظر فإذا هو بأربع أفاعٍ قد أطلعن رءوسهن من أحجرتهن، ونظر إلى أسفلها فإذا هو بثنين فاغر فاه نحوه، ورفع بصره إلى الغصنين فإذا في أصولهما جرذان أبيض وأسود يقرضانهما دائبين لا يفتران، فبيتما هو على ذلك يهتم بالحيلة لنفسه إذ نظر فإذا قريب منه كُواره نحل فيها شيء من عسل، فتطعم منه واشتغل بحلوته عن التفكير في أمره، ونبي الحيات الأربع التي رجلاه عليها ولا يدرى متى يثيرن به أو إداهن، ولم يذكر أن الجُرذين دائبان في قطع الغصنين، وأنهما إذا قطعاهما وقع في فم التنين فهلك، فلم يزل لاهياً ساهياً حتى هلك.

فشبّهت البئر بالدنيا الملوءة آفاتٍ وشروراً ومخاوفاً ومتالفاً، وشبّهت الحيات الأربع بالأختلاط الأربعـة التي تعمـدت الإنسانـ، ومـنـى يـهـجـ منها شـيءـ فهو كالحـمةـ منـ الأـقـعـىـ والـسـمـ المـيـتـ، وشبـهـتـ الغـصـنـينـ بـالـحـيـاةـ، وشبـهـتـ الجـرـذـينـ بـالـلـيلـ والـنـهـارـ، وقرضـهـماـ دـأـبـهـماـ فـيـ إـنـفـاذـ الـأـجـالـ التـيـ هـيـ حـصـونـ الـحـيـاةـ، وشبـهـتـ التـتـيـنـ بـالـمـوـتـ الـذـيـ لاـ بـدـ مـنـهـ، وـالـعـسـلـ هـذـهـ الـحـلـوةـ الـقـلـيلـةـ التـيـ يـصـيبـهـاـ إـلـيـانـ فـتـشـغـلـهـ عـنـ نـفـسـهـ، وـتـلـهـيـهـ عـنـ التـحـيـلـ لـخـلـاصـهـ، وـتـصـدـهـ عـنـ سـبـيلـ نـجـاتـهـ.

فصار أمري إلى الرضا بحالـيـ، وإصلاح ما استطعتـ منـ عـلـيـ لـعـاديـ؛ لـعـلـيـ أـصادـفـ فـيـماـ أـمـامـيـ زـمـانـاـ فـيـهـ دـلـيـلـ عـلـىـ هـدـايـ، وـسـلـطـانـ عـلـىـ نـفـسـيـ، وـأـعـواـنـ عـلـىـ أـمـريـ، فـأـقـمـتـ عـلـىـ مـاـ وـصـفـتـ مـنـ حـالـيـ، وـانـصـرـفـتـ مـنـ أـرـضـ الـهـنـدـ إـلـىـ بـلـادـيـ،^١ وـانـسـخـتـ مـنـ كـتـبـهـ كـتـبـاـ كـثـيرـةـ، وـمـنـهاـ هـذـاـ الـكـتـابـ.

^١ في نسخة اليازجي: « فأقمت على هذه الحال، واتجهت إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والأدوية، ثم عدت إليها في انتساخ هذا الكتاب وانصرفت منها إلى بلادي »، وهو كلامُ له خطره في الدلالة على معرفة بربويه ببلاد الهند وذهابه إليها من قبل (انظر المقدمة، باب بعثة بربويه).

باب الأسد والثور

قال دَبِشَلِيم^١ مَلِكَ الْهَنْد لِبَيْدَبَا^٢ رَأْسَ فِلَاسْفَتِهِ: اضْرِبْ لِي مِثْلَ الرَّجُلِينَ الْمُتَحَابِيْنَ يَقْطُعُ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبَ الْخَئُونَ وَيَحْمِلُهُمَا عَلَى الْعِدَادَةِ وَالشَّنَآنَ.

قال بِيدِبَا الْفِيلِيسُوفُ: إِذَا ابْتَلَيَ الرَّجُلَانِ الْمُتَحَابِيْنَ بِأَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمَا الْخَئُونَ الْكَذُوبَ تَقَاطِعًا وَتَدَابِرًا، وَفَسَدَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُوْدَةِ، وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ دَسْتَابَندَ^٣ تَاجِرُ مُكْثِرٍ، وَكَانَ لَهُ بَنُونَ، فَلَمَّا أَدْرَكُوكُوا أَسْرَعُوكُوا فِي مَالِ أَبِيهِمْ، وَلَمْ يَحْتَرِفُوكُوا حِرْفَةَ تَرْدُّ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، فَلَمَّا هُمْ أَبْوَهُمْ وَوَعْظُهُمْ، فَكَانَ مِنْ عَظَتِهِ لَهُمْ أَنَّهُ قَالَ: يَا بَنَّيَ، إِنَّ صَاحِبَ الدِّنِيَا يَطْلُبُ ثَلَاثَةَ أَمْوَالٍ لَا يُدْرِكُهَا إِلَّا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءِ: أَمَّا الْثَّلَاثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ، فَالسَّعْدَةُ فِي الْمُعِيشَةِ، وَالْمَنْزَلَةُ فِي النَّاسِ، وَالزَّادُ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي دَرَكِهَا، فَالْكَسَابُ الْمَالُ مِنْ مَعْرُوفٍ وَجُوهَهُ، وَحُسْنُ الْقِيَامِ عَلَيْهِ، وَالتَّمَثِيرُ لَهُ بَعْدَ اكْتِسَابِهِ، وَإِنْفَاقُهُ فِيمَا يَصْلِحُ الْمُعِيشَةَ وَيُرْضِي الْأَهْلَ وَالْإِخْرَانَ، وَيَعُودُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ التَّوْقِيُّ لِجَمِيعِ الْأَفَاتِ بِجُهْدِهِ. فَمَنْ أَضَاعَ هَذِهِ الْخَلَالَ الْأَرْبَعَ لَمْ يُدْرِكِ مَا أَرَادَ؛ لَأَنَّهُ إِنْ هُوَ لَمْ يَكْتُسْ لَمْ يَكُنْ

^١ في السريانية الحديثة: «دَبِهَرَم»، ويُظَنُّ أَنَّهُ مَحْرَفٌ عَنْ «دَبِشَرَم»، وَهُوَ فِي السِّنْسَكِرِيتِيَّةِ «Dv̄śhermān»، وَيُسْهَلُ تَحْرِيفُهَا فِي الْفَهْلَوِيَّةِ إِلَى «دَبِشَلِيم»، وَفِي بَعْضِ الْمُخْطَوَطَاتِ الْعَرَبِيَّةِ: «دِيسِلَمُ» وَ«دِيشَلِيمُ».

^٢ هو في السريانية الحديثة: «دَرَبُ»، وهو مَحْرَفٌ عَنْ «بَيْدَنَا» أو «بِيدِبَا» عَلَى اختِلافِ النَّسْخِ الْعَرَبِيَّةِ، وَيُقَابِلُهُ هَذَا الْاَسْمُ فِي الْأَصْلِ الْهَنْدِيِّ: «F̄išnōw̄ḡr̄mān».

^٣ في نسخة شيخو: «دَسْتَابَا»، وَفِي النَّسْخِ الْأُخْرَى: «دَسْتَابَوْنَدَ»، وَفِي بَعْضِ الْمُخْطَوَطَاتِ: «دَسْتَابَادُ» وَ«دَسَنَا» وَكَانَ هَذَا تَحْرِيفٌ عَنْ «دَسْتَابَادُ» وَفِي الْهَنْدِيَّةِ: «D̄k̄ṣnābātā»، وَهُوَ اسْمٌ إِقْلِيمٌ الْدَّكَنِ.

^٤ في النسخ الأخرى: «حِرْفَةِ يَكْسِبُونَ مِنْهَا لِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا»، وَكَانَ هَذِهِ الْجَمْلَةُ وَضَعَتْ مَوْضِعَ جَمْلَةَ «تَرْدُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ» لِأَنَّهَا أَوْضَحُ مِنْهَا.

له مالٌ يعيش به، وإن هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحِكم تقديره أوشك أن ينْفَد، فإذا هو ليس له شيء، وإن هو وضعه ولم يُتَمَّرِه لم تمنعه قلة الإتفاق من سرعة النَّفاد، كالكُحل الذي لا يُؤخذ منه إلا مثل الغبار ثم هو سريع الفَناء، ثم إن كانت نفقة في غير مواضع الحقوق اكتسب المذمة وصار إلى عواقب الندامة، وإن هو اكتسب وأصلاح ثم أمسك عن إنفاقه في وجوهه كان كمن يُعَذَّ فقيرًا لا مال له، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يُفارقه ويدهه حيث لا يريد بالمقادير والعلل؛ كالمكان الذي لا تزال المياه تنصب إليه؛ فإن لم يكن له مفيض ومخرج يخرج منه بالقدر الذي ينبغي تحليبه وسال من نواحٍ كثيرة، وبما انبثق البثُق الذي لا يغادر قطرةً وذهب الماء ضياعًا.

ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم، وانطلق كبيرهم متوجّهاً بتجارة له إلى أرض يُقال لها مَثُور^٦، فأتى في طريقه على مكان شديد الوحل، ومعه عَجَلة يجرُّها ثوران يُدعى أحدهما شتربة^٧ والآخر نَنْدَبَة^٨، فوَحَل شتربة في ذلك الوحل، فلم يزل الرجل وأعوانه حتى أخرجوه بعد ما بلغ الجهد وأشرف على الهلكة، وخلف التاجر عنده رجلاً وأمره أن يقوم عليه، فإن رأه قد أَبْلَ وصلح لِحْقه به، فلَمَّا كان من غِد ذلك اليوم بِرِم الأجير بمكانه، وترك الثور ولحق ابن التاجر فأخبره أنه قد مات.

وإن شتربة انتعش بعدما فارقه الرجل، فلم يزل يدبُّ حتى أتى مرجاً خصيّاً كثیر الماء والكُلَّا؛ لِمَا قُضيَّ أن يُصيّبه في ذلك المكان من العَرَض الذي لم يكن ليُخْطئه، فإنهما يزعمون أنَّ رجلاً^٩ كان يجرُّ خشبًا فقصده ذئب ليأكله، فلم يفطن حتى دنا منه، فلَمَّا رأاه أشتد وجله وخرج هاربًا نحو قرية على شاطئ نهر، فلَمَّا انتهى إلى النَّهر وجد

^٥ في النسخ الأخرى: «انبثق البثُق الذي لا يصلح».

^٦ في النسخ الأخرى: اسم الأرض: «مِيون»، وفي السريانية: «متوا»، وفي الأصل الهندي (بنجا تنترا): «مَثُورًا»، وهي مدينة جنوب أجرا تسمى الآن مترًا، فنسختنا أقرب إلى الأصل.

^٧ يتبيّن من مقارنة المخطوطات ومن الرجوع إلى الأصل الهندي أنَّ «شتربة» أقرب إلى الصواب من «شترية» والصيغة الأخرى.

^٨ جاءت هذه الكلمة في المخطوطات بصور مختلفة، وأقربها إلى الأصل الهندي «نَنْدَبَة»، ولكن النسخ العربية كلها تزيد باء في آخر الكلمة، وكأنها للمجازة بين «شتربة» و«نَنْدَبَة»، فأقرب الصيغ إلى الصواب بعد هذه المجازة هي «نَنْدَبَة».

^٩ هذا المثل محكيٌ في النسخ الأخرى على لسان الأجير الذي أخبر التاجر أنَّ الثور مات، وهو ناقص في نسخة شيخو السريانية الحديثة.

عليه قنطرة منكسرة، ورَهْقه الذئب، فقال: كيف أصنع؟ الذئب يتلواني، والنهر عميق، والقنطرة مكسورة، وأنا لا أحسن السباحة، غير أن الأحرز أن أرمي بنفسي في الماء، فلما وقع فيه رأه أهل القرية، فأرسلوا إليه من استخرجه وقد أشرف على الهلكة، ثم أتاهم به، فتساند إلى حائط، فلما أفاق حَدَثُهم بما لقي، وعظَم هول ما خَلَصَه الله منه، في بينما هو على ذلك إذ تهَدَّم عليه الحائط فقتله.^{١٠}

ثم إن شتربة لم يلبث أن عَكَدَ وشحُّمَ وترَّ وجعل يُحُكُ بقرينه الأرض ويخور،^{١١} ويرفع صوته بالخوار، وكان بقريبه أَسَدٌ يُقال له بِنَكَلَة،^{١٢} وكان ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك، وكان مزهُواً متکبرًا منفردًا مكتفيًا برأيه، وإن ذلك الأسد لما سمع خُوار الثور، ولم يكن رأى ثورًا قط، ولا سمع خُواره، رُعب منه، وگرِه أن يفطن لذلك جُندُه، فلم يبرح من مكانه.

وكان فيما معه ابنا آوى، يُقال لأحدهما كليلة ولآخر دمنة،^{١٣} وكانت نَوَيْ دهاءً وأدب، وكان دمنة أشرهما نفساً، وأبعدهما همةً، وأقلَّهما رضاً بحاله، ولم يكن الأسد عرفهما، فقال دمنة لكليلة: ما ترى يا أخي؟ ما شأن الملك مقیماً في مكانه لا يتحول ولا ينشط كما كان يفعل؟ فقال كليلة: ما شأتك والمسألة عَمَّا ليس لك ولا يعنيك؟ أمَّا نحن فالحالنا حال صدق، ونحوُ على باب الملك واجدون ما نأكل، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك وما يكون من أمرورهم، فاسكت عن هذا، واعلم أنه من تكلف من القول والعمل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد؛ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

^{١٠} في النسخ الأخرى أنَّ الرجل بعد أن أُخْرِجَ من الماء رأى بيَتًا مفرداً، فأوى إليه فإذا جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجلٍ وهو يقتسمون ماله ويريدون قتله ... إلخ.

^{١١} توافق نسختنا في هذه الجملة: «وجعل يَحُك ... إلخ» النسخة السريانية الحديثة، وهي ليست في النسخ الأخرى.

^{١٢} ليس في النسخ الأخرى تسمية الأسد، وهو في الهندية: «بنَكَلَكَه»، ومعناه الأصلب، وفي نسختنا: «شَكَلَه» والظاهر أنه تحريف «بنَكَلَة»، وهو اختصار الاسم الهندي.

^{١٣} «كليلة» ذُكر في الأصل «كَرْتَكَا»، واللام والراء في الفهلوية لهما صورة واحدة، فمن اليسير أن تحرَّف الراء إلى اللام، وكذلك لا يبعد أن تحرَّف التاء إلى الياء، وأمَّا إيدال الكاف الأخيرة هاء فهو شائع بين الفهلوية والفارسية الحديثة، و«دمنة» ذُكر في الهندية باسم «دَمَنَكَه» وهو في النسخة السريانية: «كَلِيلَك» و«دَمَنَكَه».

قال كليلة: زعموا أنَّ قرداً رأى نجَاراً يشقُّ خشبة على وتدين راكباً عليها كالأسوار على الفرس، وكلما شقَّ منها ذراغاً أدخل فيها وتدًا، وأنَّ النجار قام لبعض شأنه، فانطلق القرد يتتكلف من ذلك ما ليس من صناعته، فركب الخشبة ووجهه قبل ذلك الود، وتدلَّتْ خصيته في الشق، فلما نزع الود انضمَّتْ الخشبة على خصيته، فخرَّ مغشيًّا عليه، وجاء النَّجار فكان ما لقيَ منه من الضرب أشدَّ مما مرَّ به أضعافاً كثيرة.

قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، وسمعتُ المثل الذي ضربتَ، ولكن اعلم أنَّ ليس كُلُّ من يدنو من الملوك إنما يدنو منهم لبطنه، فإنَّ البطن يُحشى بكل مكان، ولكنه يلتمس بالقرب منهم أن يُسرَّ الصديق ويُسوءَ العدو، فأدَنَ الناس وأضعفهم مروءةً الذين يرضون بالقليل ويفرحون به، كالكلب الجائع الذي يُصيب عظماً يابساً فيفرح به، فاماً أهل المروءة والفضل فلا يُغනِيهم القليل ولا يفرحون به دون أن يسمُّوا إلى ما هُم له أهل؛ كالأسد الذي يفترس الأربن، فإذا رأى العَيْر تركها وأخذها؛ أولاً ترى أنَّ الكلب يُبصِّص بذنبِه حتى تُلقى إليه الكِسرة، وأنَّ الفيل المغتلام يعرف فضل نفسه، فإذا قُدِّمَ إليه علفه مكرَّماً لم يأكله حتى يُمسح رأسه ويُتمَلَّق؟ فمن عاش ما عاش غير خامل المنزلة، ذا فضل على نفسه وأصحابه، فهو – وإن قلَّ عمره – طويلاً العُمر، ومن كان عيشه في وحدة وضيق وقلة خير على نفسه وأصحابه، فهو – وإن طال عمره – قصير العمر، فإنه يُقال: إنَّ الباقي من طال عمره في ضُرٍّ، وقيل: لِيُعَدُّ من البقر والغنم من لم تكن هِمَّته إِلا بطنه وفرجه.

قال كليلة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، فراجع عقلك، واعلم أنَّ لكل إنسان منزلة وقدراً، فإذا كان في منزلته التي هو فيها مكتفيًّا متماستَ الحال في أهل طبقته كان حقيقاً أن يقنع ويرضى، وليس لنا من المنزلة ما نسخط له حالنا التي نحن عليها.

قال دمنة: إنَّ المنازل مُتنازعة مشتركة، فذو المروءة ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرَّفيعة، والذي لا مروءة له يَحُطُّ نفسه من المنزلة الرَّفيعة إلى المنزلة الوضيعة، والارتفاع من ضعة المنزلة إلى شرفها شديد المؤنة، والانحطاط منها إلى الضعف هُنْ يسير، وإنما مثل ذلك كالحجر الثقيل الذي رفعه من الأرض إلى العائق شاق، وطرحه من العائق إلى الأرض يسير، فنحن أحق أن نرجم ما فوقنا من المنازل بمروءاتنا، ولا نقيم على حالنا هذه، ونحن نستطيع ذلك. قال كليلة: فما هذا الذي تُجمِع عليه؟ قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة، فإنه ضعيفُ الرأي، وقد التبس عليه وعلى جُنده أمرُهم، فلعلَّي أدنو منه وأصيَّ حاجتي عنده.

فقال كليلة: وما يدركك أنَّ ذلك على ما وصفت؟ قال دمنة: أعرف ذلك بالرأي والغطنة والظن والحدس، فإنَّ الرجل ذا الرأي ربما عرف حال صاحبه وغامض أمره بما يظهر له من أمره وصنعيه، حتى لعلَّ ذلك أن يكون من قبْلِ دَلَّه وشكله. قال كليلة: كيف ترجو المكانة عند الأسد ولست صاحب سلطان، وليس لك علم بخدمتهم^{١٤} وأدابهم، وما يُوافقهم ويُخالفهم؟ قال دمنة: إنَّ الرجل القوي الشديد لا يعيا بالحمل الثقيل وإنْ بُدَّه به، بل يستقلُّ به وتكون له القوة عليه، فلا يُعسِّف الشديد حملُ، ولا القُلُّ عملُ، ولا العاقل أرضُ، ولا المتواضع اللَّذِينَ الجائب أحَدُ، قال كليلة: إنَّ السلطان لا يتتوَّحُ بكرامته أفضل من بحضرته، ولكنَّه يُؤثِّر بذلك مَنْ قُرب منه، ويُقال: إنَّ مَثَلَ السلطان في ذلك كالكُرْم الذي لا يتعلَّق بأكرم الشجر ولكن بأدائها منه، وكذلك السلطان، فكيف ترجو المنزلة عند الأسد، ولست ممن يغشاه ولا تدنو منه؟ قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ وصدقَتَ، ولكنَّ اعْلَمُ أنَّ الذين لهم المنازل الحسنة عند السلطان قد كانوا وليسوا تلك حالَهم، فتقرَّبوا منه بعد الْبُعْد عنه، ودنوا إليه، فأنا ملتَمِّس مثل ذلك وطالِبُ بلوغه، وقد قيل: لا يواطِبُ أحَدُ على باب السلطان ويطرح الأنفة، ويحمل الأذى، ويُظْهِر البِشَرَ، ويُكْظم الغيظ، ويَرْفُقُ في أمره إلَّا خَلَصَ إلى حاجته منه.

قال كليلة: فهَبْك قد وصلت إلى الأسد، فما رفقك^{١٥} الذي ترجو أن تناول به المنزلة عنده؟ قال دمنة: لو قد دنوت من الأسد وعرفت أخلاقه، رفقتُ في متابعته وقلة الخلاف عليه، ثم انحططتُ في هواه، فإذا أراد أمراً هو في نفسه صوابٌ زَيَّنته له وشجَّعَته عليه، حتى يعمل به وينفذ رأيه فيه، وإذا همَّ بأمرٍ أخاف ضرَّه إيه بصرته ما فيه من الضرر والشَّرِّ، بأرْفَق ما أجد إليه السبيل وألينه، فإنَّني أرجو أن يرى مني في ذلك أَفْضَل مما يرى من غيري، فإنَّ الرَّجُل الأديب الأريب الْدَّهِيَّ لو شاء أن يُبْطل الحق ويُحقِّق الباطل أحياناً لفعل، كالمصوَّر الماهر الذي يصوَّر في الحائط تماثيل كأنها خارجة وليس

^{١٤} يستعمل الكاتب «السلطان» في معنى الجمع، وهو استعمال قديم، جاء في كتاب «الكامل» للمبرد حكاية عن الأحنف بن قيس: «ولا جئت باب أحدٍ من هؤلاء، يعني السلطان، ما لم أدع إليه». وقد دعا هذا الاستعمال بعض اللغويين إلى ادعاء أن «السلطان» جمع «سلبيط»، والظاهر أنَّ النسخ الأخرى حرَّفت الكلام لتجعل السلطان مفردًا في كل الموضع، وهذا وأمثاله مما تمتاز به نسختنا (انظر المقدمة).

^{١٥} في النسخ الأخرى، ما عدا شيخو، وضفت كلمة «توفيقك» بدل «رفقك»، والظاهر أنَّه تحريف أدى إليه جهل النسخ بمعنى «الرفق» ههنا.

بخارجة، وأخرى كأنها داخلة وليس كذلك، فإذا هو عَرَفَ نُبْلي وكمال ما عندي كان هو الذي يلتمس إكرامي وتقريري.

قال كليلة: أَمَّا إذا كان هذا من رأيك فإني أحذرك صحبة السُّلطان، فإنَّ في صحبة السُّلطان خطراً عظيماً، وقد قالت العُلماء: أمورٌ ثلاثة لا يجترئ عليها إلا الأهوج، ولا يسلم منها إلا القليل: صحبة السُّلطان، وائتمان النِّسَاء على الأُسرار، وشرب السم للتجربة، وإنما شبه العلماء السُّلطانَ بالجبل الوعر الذي فيه الشمار الطيبة، وهو معدن السباع الخوفة، فالارتفاع إليه شديد، والمُقْلَمُ فيه أشدُّ وأهول.

قال دمنة: قد صدقت فيما ذكرت وفهمته، ولكنني أعرف أنَّ من لم يركب الأهوال لم ينزل الرَّغائب، ومن ترك الأمر الذي لعَلَّهُ أن يبلغ منه حاجته مخافة لما لعله يتوقف عليه ويسقط منه، فليس ببالغ جسيماً، وقد قيل في أمور لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع همة وعظم حَطَر، منها عمَلُ السُّلطان، وتجارةُ البحر، ومناجزةُ العدو، وقيل أيضاً: لا ينبغي للرَّجل ذي المروءة أن يُرى إلا في مكаниن، ولا يليق به غيرهما: إِمَّا مع الملوك مُكَرِّماً، وإِمَّا مع النِّسَاك متبتلاً، كالفيل الذي إنما بهاوه وجماله في مكانين: إِمَّا في البرية وحشياً، وإِمَّا مركباً للملوك.

قال كليلة: خار الله لك فيما عزمت عليه.

ثم إنَّ دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلَّمَ عليه، فقال الأسد لقرايبينه:^{١٦} من هذا؟ قالوا: ابن فلان، قال الأسد: قد كنت أعرف أباه، ثم قال له: أين كنت تكون؟

قال دمنة: لم أزل بباب الملك مُرابطاً رجاءً أن يحضر أمرُ أعينُ الملك فيه برائي ونفسي، فإنَّ باب الملك يكتُر فيه الأمور التي ربما احتجي فيها إلى من لا نباها له، وربما كان صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدرها، فإنَّ العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حُكُمِّ أذنه، فالحيوان العالم بالضرر والنفع حَرِيًّا بأن يكون ذلك عنده وينتفع به.

فلما سَمِعَ الأسد كلامَ دمنة أعجبه واستظرفه، ورجا أن يكون عنده نصيحةً ورأيًّا، فأقبل على قرايبينه، فقال لهم: إنَّ الرجل ذا النُّبْلِ والفضل ليكُونُ خاملاً الذَّكْر، غامض

^{١٦} في الأصل: «لقاربته» وفي النسخ الأخرى: «لجلسائه». والظاهر أن جهل النسخ بمعنى «قرايبين» أدى إلى تحريفها إلى «قاربته» في نسختنا، وإلى إبدالها «جلسائه» في النسخ الأخرى، فلذلك وضعنا كلمة «قرايبين» مكان «قاربة» في هذا الموضع وغيره.

الأمر، فتأبى مروعته إلا أن يظهر ويستبين، كالشعلة من النار التي يصونها^{١٧} صاحبها وتتأبى إلا ضياءً وارتفاعاً، فلما عرف دمنة أنَّ الأسد قد أعجبه كلامه قال: إنَّ رعية الملك ومن بحضرته منهم يجب^{١٨} أن يعرقوه ما عندهم من المروعة والعلم، ويبذلوا له نصيحتهم، فإنَّ الملك لا يعرفهم ولا يضعهم في منازلهم التي هم أهلُها ومستحقُون لها إلا بذلك، كالزرع المدفون في الأرض من الحنطة والشعير وسائر الأنواع، فلا يستطيع أحدُ أن يعرفه ولا يصفه حتى يكون هو الذي ينجم ويظهر ويخرج على الأرض، وقد يتحقق على من خصَّه السلطان أن يطليعه على ما عنده من المنفعة والأدب، ويتحقق على السلطان أن يبلغ بكل امرئ مرتبته على قدر رأيه وما يجُدُ من المنفعة عنده. فإنه كان يُقال: أمران لا ينبغي لأحد — وإن كان ملگاً — أن يجعل شيئاً منهما في غير مكانه، وأن ينزله غير منزلته: الرجال والحلية، فإنه يُعدُّ جاهلاً من عقد على رأسه حلية الرِّجلين، وعلى رجليه حلية الرأس، ومن ضبَّ اللؤلؤ والياقوت بالرصاص، فليس ذلك بتغيير للياقوت واللؤلؤ، ولكنه جهلٌ من فعل ذلك.

وكذلك كان يُقال: لا تصاحبَ رجلاً لا يعرف موضعَ يمينه وشماله، وإنما يُستخرج ما عند الرجال ولا تُهم، وما عند الجنود قادتهم، وما في الدين علماؤه، وقد قيل في أشياء ثلاثةٍ: فضلُ ما بينها متفاوت: فضل المقاتِل على المقاتِل، وفضل العالم على العالم، وفضل الفيل على الفيل.^{١٩} وكثرة الأعوان — إذا لم يكونوا نصائح مجرَّبين — مضرَّة على العمل، فإنَّ العمل ليس بذلك رجاؤه، بل بصالح الأعوان وذوي الفضل، كالرَّجل الذي يحمل الحجر الثقيل فيُثقلُه، ولا يجد له ثمناً، والرجل الذي يحمل الياقوت فلا يَثقل عليه، وهو قادر على بيعه بالكثير من المال، والعمل الذي يحتاج فيه إلى الجُنْح لا يُجزئه القَصْبُ وإن كثُر، والواли حقيقٌ لا يحقر مروعةً وجدها عند أحد وإن كان صغير المنزلة، فإنَّ الصغير ربما عظُم، كالعصب الذي يؤخذ من المينة، فإذا عملت منه القوس أكِرْم فيقبض عليه الملك ويحتاجُ إليه في لهوه وبأسه.

^{١٧} في الأصل وشيخو: «يصونها»، وفي النسخ الأخرى: «يضر بها»، وقريبٌ من هذا في السريانية الحديثة.

^{١٨} في الأصل: «يجوز»، وفي السريانية الحديثة: «يجب»، وهو أقرب إلى سياق الكلام فلذلك أثبتناه هنا.

^{١٩} يذكر في النسخ الأخرى الأمران الأول والثاني فقط، وفي شيخو: «المتكلم على المتكلم» بدل «الفيل على الفيل»، وكانَ هذا نشأ من تحريف كلمة «الفيل» إلى «القيل» بالقاف، وفي السريانية الحديثة: «الرجال على الرجال، والفالية على الفيلة، والمعلمين على المعلميين».

وأحبَّ دمنة أن يصيب الكراهة من الأسد، والمتزلة عنده وعند جنده، ويعلمهم أنَّ ذلك ليس لمعرفة أبيه فقط، ولكن لرأي دمنة ومروءته، فقال: إن السلطان لا يُقرب الرجال لقرب آبائهم ولا يبعادهم بعدهم، ولكنه ينظر إلى ما عندهم وما يحتاج فيه إليهم، ثم يُمضي رأيه على ما يحقُّ عليه فيهم من إِنْزالِهِم مَنَازِلِهِم، فإنَّه لا شيء أقربُ ولا أَخْصُ بالرجلِ من جَسَدِهِ، ورُبَّما دَوَيَ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْذِيهِ، فَلَا يَدْفَعُ مَا بِهِ عَنْهِ إِلَّا الدَّوَاءُ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِهِ، والجُرْذُ مُجاوِرُ الْإِنْسَانِ فِي الْبَيْتِ، فَمَنْ أَجَلَ إِضْرَارَهُ نُفِيَ، وَالْبَازِي وَحشِّي غَرِيبٌ، فَلَمَّا صَارَ نَافِعًا اقْتُنَى وَاتَّخَذَ وَأَكْرَمَ.

فلما فرغ دمنة من مقالته ازداد الأسد به إعجاباً وله استظرافاً، وأحسن عليه الرد، وقال لجلسائه: إنه ينبغي للسلطان لا يلْجَ في تضييع حقِّ ذي الفضل والمرءة ولا وضع منزلته، وأن يَسْتدرك ما فاته من ذلك ولا يغُرَّهُ أن يرى من صاحبه المفعول به ذلك رضاً، فإنَّ الناس في ذلك رجلان: أحدهما طباعه الشراسة، فهو كالحِيَّة التي إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديراً أن يعود لوطئها ثانية، وآخر طباعه السهولة واللين، فهو كالصندل الذي إذا أفرِطَ في حَگَّه صار حارًّا مؤذياً.

فلما استأنس دمنة بالأسد وخلا به، قال: إني قد رأيْتُ الملك أقام منذ زمان بمكان واحد لا يبرح منه، ففيم ذلك؟ قال له الأسد، وگرِهُ أن يعلم منه دمنة جُبِنَا: لم يكن ذلك ليأس.

فيبينما هما على ذلك إذ خار الثور حُوارًا شديداً، فهيج الأسد على أن يُخْبِر دمنة بما في نفسه، فقال: هذا الصوت الذي تسمع، ما أدرى ما هو؟ غير أنه خليق أن تكون الجثة على قدر الصوت، فإن يكن ذلك كذلك فليس مكاننا هذا لنا بمكان، قال دمنة: هل راب الملك شُيُّ غير هذا؟ قال الأسد: لم يكن غير هذا، قال دمنة: ^{٢٠} ليس الملك بحقيقة أن يبلغ منه هذا الصوت أن يدع مكانه، فإن السُّكُرُ الضعيف آفَتُهُ الماء، والشرف آفَتُهُ الصَّلَفُ، والمودة آفَتُهُ النَّمِيَّةُ، والقلب الضعيف آفَتُهُ الصوت والجلبة، وفي بعض الأمثال بيان أنه ليس كل الأصوات تُهاب، قال الأسد: وما ذلك المثل؟ قال دمنة: زعموا أن ثعلباً جائعاً

^{٢٠} في النسخ الأخرى إِلَّا شيخوا أن دمنة قال للأسد: ليس من كل الأصوات تجب الهيبة، فقال الأسد: وما مثل ذلك؟ ففَقَنَ دمنة مثل الثعلب والطبل، وظاهر أنَّ ما هنا أقرب إلى سياق الكتاب، أعني أنَّ دمنة يشير إلى المثل، والأسد يطلب منه أن يقصه.

مرَّ بأجْمَةٍ فيها طبل معلق في شجرة، فهَبَتِ الريح فجعلتْ قُضبان الشجرة تقرع ذلك الطبل فيصوت صوتاً شديداً، فسمع الثعلب ذلك الصوت فتوجه إليه حيث أتاه، فلما رأه ضخماً ظنَّ أن ذلك لكترة شحمه ولحمه، فعالجه حتى شفَّه، فلما رأه أجوف قال: ما أدرى، لعل أفسل الأشياء أعظمها جثة وأشدُّها صوتاً.



وإنما ضربت لك هذا المثل رجاء أن يكون الذي يذعننا من هذا الصوت ويروعنا لو قد انتهي إلينه وجدها أيسراً أمراً مما في أنفسنا، فإن شاء الملك فليبعثني نحوه وليلقم مكانه حتى أرجع إلينه ببيان ما يحب أن يعلم منه، فوافق ذلك الأسد، وانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه شتربة.

فلما فصل دمنة من عند الأسد فكَّ الأسد في أمره، فندم على إرساله، وقال في نفسه: ما أصبتُ بائتماني دمنة على ما ائتمنته، ووجهته فيه، فإنَّ الرجل الذي بحضره السلطان إذا كان قد أطيلت جفوته عن غير جرم كان منه، أو كان مبغياً عليه، أو كان

معروفاً بالحرص والشره، أو كان قد أصابه ضُرُّ، أو ضيق فلم يُنعش، أو كان قد أجرم جُرمًا فهو يخافُ العقوبة، أو كان شَرِيرًا لا يحب الخير، أو كان قد وُقف على خيانته، أو كان قد حيل بينه وبين ما كان في يده من سلطان، أو كان يلي عملًا فُعُزل عنه أو فُرِّق عليه أو انتُقص منه أو أُشرك بيته وبين غيره فيه، أو كان أذنب في نظرائه فُعْفيَ عنهم وعوقب، أو عوقبوا جميعاً فبلغ منه ما لم يُبلغ من أحد منهم مثله، أو كان قد أبلى بلاء نظرائه فُفضلوا عليه في المنزلة والجاه، أو كان غير موثوق به في الهوى والدين، أو كان يرجو في شيءٍ مما يضر بالولاية نفعاً، أو يخافُ في شيءٍ مما ينفعهم ضرراً، أو كان لعدو السلطان مواداً، كل هؤلاء ليس السلطان حقيقاً بالاسترسال إليهم، والطَّمَانِيَّة إلى ما قبَّلُهم، والائتمان لهم، وإن دمنة داه أريب، وقد كان ببابي مطروحاً مجفواً، فلعله قد احتمل عليَّ بذلك ضغناً، ولعل ذلك يدعوه إلى أن يخونني ويبغي عليَّ، ولعله يُصادف صاحب الصوت أقوى مني وأعظم سلطاناً فيرغب فيما عنده، ويميل عليَّ معه فيدله على عورتي، فلم يزل الأسد يحدُث نفسه بذلك ويراجعها فيه حتى استخفه ذلك وقام من مجلسه، فجعل يمشي وينظر إلى الطريق حتى رُفع له دمنة من بعيد مُقِلاً وحده، فاطمأن ورجع إلى مكانه كراهةً أن يظن دمنة أن شيئاً أفلقه وأزعجه من مكانه.

فلما دخل عليه دمنة، قال له الأسد: ما صنعت وما رأيت؟ قال دمنة: رأيت ثوراً، وهو صاحب الصوت الذي سمعت، قال الأسد: فما حاله وشدة؟ قال: لا شدة له، فقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء، فلم يستطع لي شيئاً. فقال الأسد: لا يغرنك ذلك منه، ولا تضعنَّ ذلك على الضعف، فإنَّ الريح الشديدة لا تضرُّ بصغير الحشيش ولا تحطمها وهي تحطم الشجر، وكذلك الصناديد إنما يصد بعضها البعض. قال دمنة: لا يهابَنَ الملك أمره ولا يُكَبِّرنَ في صدره شيئاً منه، وأنا آتيه به حتى يكون له عبداً ساماً مطبيعاً، ففرح الأسد بذلك وقال له: دونك.

ثم إن دمنة انطلق إلى شتربة، فقال له غير هائب ولا مُتعَنِّع: إنَّ الأسد أرسلني إليك لأتié بك، وأمرني إن أنت عجلت الإقبال عليه طائعاً أن أؤمّنك على نفسك وما سلف منك من الذنب في التأخير عنه والترك للقاءه، وإن تأخرت أن أعجل الرجعة إليه فأخبره بذلك، قال شتربة: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليَّ، وأين هو؟ قال دمنة: هو ملك السباع، ومعه جند كثيرٌ منهم، فرُعب الثور من ذلك، وقال: إن أنت جعلت لي على نفسك عهداً، أو أخذت لي منه الأمان أقبلتُ معك، فأعطيه دمنة ما سأله من ذلك.

ثم أقبلًا جمِيعًا حتَّى دخلَا على الأَسْدِ، فَأَحْسَنَ الْأَسْدُ مَسَأْلَةَ شَتَّبَةِ، وَالْأَطْفَهِ، وَقَالَ لِهِ: مَتَى قَدَمْتَ هَذِهِ الْأَرْضَ؟ وَمَا نَزَعَ بِكَ إِلَيْهَا؟ فَقَصَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، فَقَالَ لِهِ الْأَسْدُ: الزَّمْنِي، فَإِنِّي مُكْرِمُكَ وَمُحِسِّنُ إِلَيْكَ، فَدَعَا لَهُ شَتَّبَةً وَأَثْنَى عَلَيْهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَسْدَ قَرَبَ شَتَّبَةَ وَأَدَنَاهُ وَكَرَّمَهُ، وَآتَسَهُ مِنْ رَأْيِهِ وَعَقْلَهُ، فَائْتَمَنَهُ عَلَى أَسْرَارِهِ وَشَاعُورِهِ فِي أَمْرِهِ، وَلَمْ تَرْدِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا إِعْجَابًا بِهِ وَرَغْبَةً فِيهِ وَتَقْرِيبًا لَهُ، حَتَّى صَارَ أَخْصَّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً؛ فَلَمَّا رَأَى دَمْنَةَ الْمَلِكَ قَدْ اسْتَخَصَّ شَتَّبَةَ وَاسْتَدَنَاهُ دُونَهُ وَدُونَ أَصْحَابِهِ، وَأَنَّهُ صَاحِبُ رَأْيِهِ وَخَلَوَاتِهِ وَأَنْسَهُ وَلَهُوهُ، اشْتَدَّ ذَلِكُ عَلَيْهِ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى كَلِيلَةِ أَخِيهِ وَقَالَ: أَلَا تَعْجَبُ لِعِجزِ رَأْيِي وَصَنْعِي بِنَفْسِي، وَنَظَرِي فِيمَا يَنْفَعُ الْأَسْدَ، وَإِغْفَالِي أَمْرِنِفْسِي، حَتَّى جَلَبْتُ ثُورًا غَلْبَنِي عَلَى مَنْزِلِتِي؟ قَالَ كَلِيلَةُ: أَصَابَكَ مَا أَصَابَ النَّاسَكَ؟ قَالَ دَمْنَةُ: وَكِيفَ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ كَلِيلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسَكَ أَصَابَ مِنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ كُسْوَةَ فَاقْحَرَة، فَبَصَرَ بِهَا لَصُ فَرَغَ بِفِيهَا، فَصَرَّفَ الْحِيلَ وَقَلَّبَ الْأَمْرَوْ لِاستِرَاقِهِ إِلَيْهَا، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَصْبِحَ كَمَا أَتَعْلَمُ مِنْكَ وَآخْذَ عَنْكَ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَزَمَهُ وَلَطَفَ بِهِ، وَأَحْسَنَ الْخَدْمَةَ لَهُ حَتَّى أَمْنَهُ وَوَثَقَ بِهِ وَفَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَهُ، حَتَّى إِذَا ظَفَرَ مِنَ النَّاسِكَ بِغُفَلَةٍ أَخْذَ الثِّيَابَ وَذَهَبَ بِهَا، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ نَحْوَ مَدِينَةِ فَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ عَلَى وَعْلَيْنِ يَتَنَاطِحَانِ وَقَدْ سَالَتْ دَمَاؤُهُمَا، وَجَاءَ ثَلَبُ فَجَعَلَ يَلْعُبُ فِي الدَّمَاءِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَلْعُبُ إِذَ التَّقِيَا عَلَيْهِ وَهُوَ غَافِلٌ فَقَتَلَاهُ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ مُمْسِيًّا فَنَزَلَ عَلَى امْرَأَةٍ فَاجْرَأَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ، وَكَانَ لَهَا جَارِيَّةٌ تَؤَاجِرُهَا قَدْ عَشَقَتْ رَجُلًا فَهِيَ لَا تَرِيدُ غَيْرَهُ، فَأَضَرَّ ذَلِكُ بِمَوْلَاتِهَا، فَاحْتَالَتْ لِقْتَلِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي عَشَقَتْهُ جَارِيَتَهَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي أَضَافَتْ بِهَا النَّاسَكَ، فَسَقَتِ الرَّجُلُ مِنَ الْخَمْرِ صِرْفًا حَتَّى سَكَرَ وَنَامَ، فَعَمِدَتْ إِلَى سُمٍّ فَوَضَعَتْهُ فِي قَصْبَةِ وَجَاءَتْ بِهَا إِلَى دُبْرِهِ لِتَنْفَخَهُ فِيهِ، وَفَمُهَا عَلَى رَأْسِ الْقَصْبَةِ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا بَدَرَتْهَا رِيحٌ خَرَجَتْ مِنْ دُبْرِ الرَّجُلِ، فَرَجَعَ السُّمُّ فِي حَلْقَهَا فَوَقَعَتْ مِيَةً، وَكُلَّ ذَلِكَ بَعْنَ النَّاسِكَ. ثُمَّ أَصْبَحَ غَادِيًّا فِي طَلَبِ مَنْزِلِ غَيْرِ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ، فَأَضَافَهُ رَجُلٌ إِسْكَافٌ، فَقَالَ إِسْكَافٌ لِأَمْرَأَتِهِ: انْظُرِي هَذَا النَّاسَكَ فَأَكْرَمِيهِ وَأَحْسِنِي إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَدْ دَعَانِي بَعْضُ أَصْحَابِي إِلَى مَنَادِمِهِمْ.

وَكَانَ لِأَمْرَأَةِ الإِسْكَافِ صَدِيقٌ قَدْ عَلَقَهَا وَعَلَقَتْهُ، وَكَانَ الرَّسُولُ فِيمَا بَيْنَهُمَا امْرَأَةُ حَجَّاجَمَ جَارَةً لَهَا، فَأَرْسَلَتْ امْرَأَةُ الإِسْكَافِ إِلَى امْرَأَةِ الْحَجَّاجَمَ، فَأَمْرَتَهَا أَنْ تَأْتِي صَدِيقَهَا وَتَخْبِرَهُ أَنَّ الإِسْكَافَ غَائِبٌ فِي الشَّرْبِ، وَأَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَّا مُمْسِيًّا وَهُوَ سَكَرٌ، فَتَأْمَرَهُ أَنْ يَأْتِي عَنْدِ الْعَشَاءِ فَيَقْعُدَ عَلَى الْبَابِ حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ فَيَدْخُلُ عَلَيْهَا، فَأَقْبَلَ صَدِيقَهَا عَشِيشًا حَتَّى قَعَدَ عَلَى الْبَابِ يَنْتَظِرُ أَمْرَأَةَ.

وانصرف الإسكاف إلى بيته حين أمسى وهو سكران، فلما رأى الرجل قاعداً على باب منزله ارتتاب به وغضب، ودخل إلى البيت فأخذ امرأته فأوجعها ضرباً وأوثقها إلى ساريّة من سواري البيت، فلما هدأت العيون جاءت امرأة الحجّام إليها فقالت لها: قد أطّال الرجلُ صديقُ القعود، فماذا تريدين؟ فقالت: لو أحسنتَ إلّي بأن تخلّيني وتربيطي نفسك مكاني ساعة حتى آتني ثم أسرع الكرة إليك، ففعلت وحلّتها وربّطت نفسها مكانها، فانتبه الإسكاف قبل أن ترجع امرأته، فناداهما باسمها فلم تجبه امرأة الحجّام مخافةً أن يعرف صوتها، ثم دعاها مراراً كثيرة وهي لا تجيبه، فازداد عليها غيظاً وحنقاً، ثم قام إليها بسكنٍ فجعد أنفها، وقال لها: تناولي هذا وأتحفي به خليلك. فلما رجعت امرأة الإسكاف ورأّت زوجها نائماً، وعرفت ما حلّ بامرأة الحجّام حلّتها وربّطت نفسها مكانها، وأخذت امرأة الحجّام أنفها بيدها ومضت إلى بيتهما، وكلّ هذا بعين الناسك.

ثم إنّ امرأة الإسكاف فكّرت في أمرها وطلبت المخرج، فرفعت صوتها تدعو وتضرع وتبكّي وتقول: اللهم إن كان زوجي قد ظلمني واعتدى عليّ فأعذّ إلّي أنفني صحيحاً كما كان، ثم نادت الإسكاف أن قم أليها الظالم! وانظر إلى أمر ربك وقضائه ونعمته على إلهه قد أعاد أنفني صحيحاً كما كان، فقال الإسكاف: ما هذا الكلام يا ساحرة؟ ثم قام فأوقد ناراً ونظر، فإذا الأمر كما قال، فتاب إلى ربه واعتذر إلى امرأته وترضاها وتنصل إليها وسأل الله المغفرة.

ولما انتهت امرأة الحجّام إلى بيتها قلبت الحيل ظهراً لبطن، والتمسّت المخرج مما وقعت فيه، وقالت: ما عذرني عند زوجي وعند الناس في جدع أنفني؟ فلما كان عند السحر استيقظ الحجّام وناداهما أن ائتيك بمداعي كله، فإني أريد أن أنطلق إلى بعض الأشراف، فلم تأته إلّا بالموسي وحده، فقال: هاتي مداعي كله، فلم تزدّه على الموسي، فغضب ورمها بالموسي، فألقت نفسها إلى الأرض ولولت، وقالت: أنفني أنفني، وأقبلت تصيح وتضطرب، فجاء أقاربها فأخذوه وانطلقوا به إلى القاضي، فقال القاضي للحجّام: ما حملك على جدع أنف امرأتك؟ فلم تكن له حُجَّةٌ يحتجُّ بها، فأمر بالحجّام أن يُعاقب، فلما أقيمت لذلك، قام الناسك فتقدّم إلى القاضي فقال: أيها القاضي، لا يشتبهُ عليك، إنَّ اللص ليس سرّقني، وإنَّ الشغل ليس الوعلان قتلاته، وإنَّ البغيَ ليس السم قتلها، وإنَّ امرأة الحجام ليس زوجها جدع أنفها، بل نحن فعلنا ذلك بأنفسنا، فسألَه القاضي عن تفسير ذلك فأخبره.

قال كليلة لدمنة: وأنت أيضًا فعلت ذلك بنفسك، قال دمنة: نعم! ما ضرّني غير نفسي، ولكن ما الحيلة؟ قال كليلة: بل أخبرني أنت عن رأيك، قال دمنة: أمّا أنا فلست أتمس أن تزداد منزلتي فوق ما كنت، ولكنني أريد أن تعود إلى ما كانت عليه، فإنَّ خلاً ثلاثة المرءُ حقيق بالتفكير فيها والاحتياط لها: ما يمضي من الضر والنفع بأن يحترس من الضر الذي أصابه لئلاً يعود إليه، ويرفق في المحبوب طلب مراجعته، وما هو مقيم فيه من ذلك فيستوثق مما يوافقه ويهرب مما يخالفه، وما هو متظر له فيطلب المرجو ويتجيئ من المحذور بالاستعداد لما يرجو أو يخاف.

وإنني لـما نظرت في أمري الذي أرجو أن يعود لي منه ما غُلبت عليه مما كنت فيه، لم أجد شيئاً غير الاحتياط لشربة حتى يُفارق الحياة، فإني إن قدرت على ذلك صرت إلى حالي عند الأسد، ولعل ذلك أن يكون خيراً له، فإن إفراطه فيه^{٢١} خليق أن يشينه.

قال كليلة: ما أرى على الأسد في شربة مضرّ ولا منقصة ولا شيئاً، قال دمنة: إنَّ السلطان إنما يؤتى من قبل سُتْ خلال: الحرمان، والفتنة، والهوى، والفظاظة، والزمان، والخرق. فأمّا الحرمان فهو أن يفقد الأعون والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، أو يُبعد بعض من هو كذلك، وأمّا الفتنة فهي تحُب الناس ووقوع التحارب بينهم، وأمّا الهوى فهو الإغرام بالنساء أو الحديث والشرب والصيّد وما أشبه ذلك، وأمّا الفظاظة فالإفراط في الشدة حتى يُبتلى اللسان بالشتم واليُد بالبطش والضرب، وأمّا الزمان فهو ما يُصيب الناس من القحط والموت ونقص الثمرات وأشباه ذلك، وأمّا الخرق فإنَّ عِمال الشدة في موضع اللين، والرفق في مكان الغلظة.

وإنَّ الأسد قد أغُرِم بشربة إغراً شديداً، فهو خليق أن يُزري به ويشينه. قال كليلة: وكيف تُعطي الثور وهو أشدُّ منك، وأكرم على الأسد، وأحسن منزلةً، وأكثر أصدقاء وأعواناً؟ قال دمنة: لا تتظرن إلى صغري وضعفي، فإنَّ الأمور ليست بالقوية والعظام، وربَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجز عنه كثيرٌ من الأقوياء، أو لم يبلغك أنَّ غراباً احتال لأسود حتى قتله. قال كليلة: وكيف كان هذا الحديث؟ قال دمنة: زعموا أنه كان وَكْر لغراب في شجرة في جبل، وكان بقربه جُحر أسود، وكان الغراب كلما فرَّخ عمَد الأسود إلى فراخه فأكلها، فاشتد ذلك عليه، وبلغ منه مبلغاً شديداً، فشكَا

^{٢١} في النسخ الأخرى: «إن إفراطه في أمر الثور» أو «... في تقريب الثور».

ذلك إلى صديق له من بنات آوى، وقال: أردت أن أستأمرك في شيءٍ هممت به إن أنت وافقتنى عليه، قال: وما هو؟ قال: أن آتى الأسود وهو نائم، فأنقز عينيه لعلي أفقأهما. فقال ابن آوى: بئست الحيلة همنت بها! فالتمس أمراً تصيب منه حاجتك، ولا يصلُ فيه مكرهٌ إليك، وإياك أن يكون مثلك مثل العلجمون الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه، قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال ابن آوى: كان علجمون مُعششاً في أجمة مُخصبة كثيرة السمك، فعاش هناك ما عاش، ثم هرم فلم يستطع الصيد، فأصابه جوع وجهد، فالتمس الحيل وقعد مفكراً حزينًا، فرأه سرطان من بعيد، فلما رأى حاله عرف ما به، فأتاها فقال له: ما لي أراك كثييرًا حزيناً؟ قال العلجمون: وكيف لا أكتئب وأحزن، وإنما كان معاشي من السمك هنا وهنَّ كثير، وإنني رأيت اليوم صيادين أتيا مكاننا هذا، فقال أحدهما لصاحبه: إن هنا سمكًا كثيراً أفلأ نصيده؟ فقال صاحبه: إنني عرفت أمامنا مكاناً فيه سمك أكثر منه، فأنا أحب أن نبدأ به ثم نرجع إلى ما هنا فنفنيه، وقد علمت أنهمما لو فرغوا من هناك رجعوا إلينا فلم يدعَا في هذه الأجمة سمكة إلا صادها، فإذا كان ذلك فإن فيه هلاكي وموتي، فانطلق السرطان إلى جماعة من السمك فأخبرهنَ بذلك، فأقبلن إلى العلجمون وقلن: أتيناك لتشير علينا، فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه، إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يشركه فيه، وأنت ذو رأي، ولك في بقائنا صلاح، فأشر علينا برأيك، قال العلجمون: أما مُكابرة الصيادين وقتالهما فليس عندهما ولا نطيقهما، ولا أعلم حيلة إلا أنا قد عرفت مكاناً كثيراً الماء والخضر، فإن شئْنَ فانتقلن إليه، فقلن له: ومن يُمْنُ علينا بذلك؟ فقال: أنا، وجعل يحمل منهن اثنتين في كل يوم، ينطلق بهما إلى بعض التلال فياكلهما.

ثم إنَّ السرطان قال له: إنني قد أشفقتُ مما حذرتنا، فلو ذهبت بي فاحتله حتى دنا من المكان الذي كان يأكلُهُنَّ فيه، فلما بصر بعظامهن مجموعة تلوح، عرف أنه هو صاحبُهنَ وأنه يريد به مثلهن، فقال: إذا لقي المرء عدوه في المواطن التي يعلم أنه هالك فيها، فهو حقيق أن يقاتل كرماً وحفاظاً، فأهوى بكلاليبه على عنق العلجمون فعصره، فوقع إلى الأرض ميتاً، ورجع السرطان إلى السمك فأخبرهنَ.

إنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنَّ بعض الحيل مُدمِّر على صاحبه مُهلك له، ولكن انطلق فالتمس حلياً، فإذا ظفرت به فاخطفه، ثم طر به — وأصحابه ينظرون إليه حيث لا تفوتهم فإنهم سيطلبونك — حتى تنتهي به إلى جحر الأسود فترمي به عليه.

فحلق الغراب طائراً، فإذا بجارية قد ألقت ثيابها وحليّها وهي تغتسل، فأهوى فأخذ عقداً نفيساً، وحلق به طائراً حيث يراه الناس حتى رماه قريباً من جُحر الأسود، فأتى الناس وأخذوا الحلي، ورأوا الأسود نائماً على باب جُحره فقتلوه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنَّ الاحتياط ربما أجزى ما لا تُجزي القوة.

قال كليلة: إنَّ شتربة لو لم يجمع مع شدته رأياً كان كذلك، ولكنه قد أُعطيَ مع ما ذكرتَ فضلاً نبيلاً وقسمًا جسيماً، قال دمنة: إنَّ شتربة لعلَّ ما وصفتَ، ولكنه بي مُغتر، فأنا خلقيُّ أن أصرعه كما صرعتِ الأرنبَ الأسدَ. قال كليلة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنَّ أسدًا كان في أرض مُخصبة كثيرة الوحوش والماء والمراعي، وكان لا ينفعهن ما هنَّ فيه من خوفهن من الأسد، فائتمرن فيما بينهنَّ، وأتتنه فقلن له: إنك لا تصيب منا الدابة إلَّا بعد تعِي ونصب، وقد اجتمعنا على أمرٍ لنا ولك فيه راحة، إنْ أنت أمنتنا فلم تُخفنا، فقال: أنا فاعل، فقلن: نُرسِل إليك لغادائك كل يوم دابة مناً، فرضي بذلك وصالحهُنَّ عليه، ووفَ لهنَّ بما أعطاهم من نفسه، ووفَّ له به، ثم إنَّ أربناً أصابتها القرعة فقالت لهنَّ: أيُ شيء يضرُكُنَّ إنْ أتنَّ رَفِقْتُنَّ بي فيما لا يضرُكُنَّ، وأريحُكُنَّ من الأسد؟ فقلن لها: وما ذلك؟ قالت: تأمُرُنَّ من يذهب معي إلَّا يتبعني لعلِي أبطئُ على الأسد حتى يتأخر غداوته فيغضب لذلك، ففعلن بها ما ذكرته، وانطلقت مُتَّدنة حتى جاءت الساعة التي كان يتعدَّى فيها، فجاء الأسد غضب وقام عن مربيشه يمشي وينظر، فلما رأها قال: من أين جئت؟ وأين الوحوش؟ فقالت: من عدْهُنَّ جئتُ، وهنَّ قريب، وقد بعضن معي بأربن، فلما كنتُ قريباً منه، عَرَض لي أسد فانتزعها مني، فقلتُ: إنها طعام الملك فلا تغصِّبني، فشتمك وقال: أنا أحقُ بهذه الأرض وما فيها منه، فأتتنيك لأخبرك، فقال: انطلق يمعي فأرينيه، فانطلقت به إلى جُبٌ صافي الماء، فقالت: هذا مكانه وهو فيه، وأنا أفرق منه، فاحملني في صدرك، ^{٢٢} فحملها في صدره ونظر في الجُبٍ فإذا هو بظلّها وظلّه، فوضع الأرنبَ من صدره، ووثب لقتال الأسد في الجُبٍ وطلبَه فغرق، وانفلت منه الأرنب ورجعت إلى سائر الوحوش فأعلمتهُنَّ بخبره.

^{٢٢} جملة «وأنا أفرق منه» مأخوذة من شيخو لتصحيح سياق الكلام، وعبارة شيخو: «هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه إلَّا أن تحملي في حضنك فلا أخافه حتى أريكه».

قال كليلة: إن قدرت على هلاك شتربة في غير مشقة تدخل على الأسد فافعل، فإن مكانه قد أضرّ بي وبك وبغيرنا من الجنّد، وإن لم تستطع ذلك إلا بما ينفع الأسد، فلا تشترين ذلك بذلك، فإنه غدرٌ مني ومنك ولوئٌ وكفر.

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أياماً، ثم أتاه على خلوة متحازناً، فقال له الأسد: ما حبسك عنِّي، منذ مدة لم أرك، أذلك لخير؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا نحن، قال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: هو كلام فظيع، قال الأسد: فأخبرني به، قال دمنة: إنه ما كان من كلام يكرهه سامعه، لم يكُن يتشَجَّع عليه قائله — وإن كان ناصحاً مشفقاً — إلا أن يتحقق بعقل المقول له، وإن لا كان القائل حرفاً، فإنه إذا كان المقول له ذلك عاقلاً احتمله واستمعه وعرف ما فيه؛ لأنَّه ما كان فيه من نفعٍ فإِنما هو للسامع، وأمّا قائله فلا ينتفع به، بل قلَّما يسلم من ضرره، وأنَّت أيها الملك ذو فضيلة في الرأي، ورجحان في الحلم، فأنا متَشَجَّع على أنَّ أخبرك بما تكره، وأتُقْ بـأَنْك تعرَف نصيحتي وإيثاري إِيَاك على نفسي، وإنَّه ليعرض لي أَنْك غير مصدِّق بما أنا مُخْبِرُك به، ولكنني إذا نظرت فذَكَرْتُ أنَّ أنفسنا — عشر السبع — مُعلقةً بـذَنْفُوك، لم أجد بُدُّا من أداء الحق الذي يلزمني لك، وإنَّت لم تَسْلُنِي عنه، وخفتُ ألا تقبله مني، فإنه من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان رأيه، كان قد غشَّ نفسه. فقال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: حَدَّثْتُ الأمين الصادق عنِّي أنَّ شتربة خلا بـبرءوس جُندك فقال لهم: قد عجمتُ الأسد، وبَلَوْتُ رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وإنَّه كائن لي ولِه شأن، وأنَّه لما بلغني هذا عرفت أنَّ شتربة خُونٌ غادر، وقد عرف أَنَّ أكرمته الكراهة كلها، وجعلته نظيرَ نفسك، فهو اليوم يظنُّ أنه مثالك، وأنَّك إن زُلت عن مكانك صار له مُلكك، فهو لا يدعُ جهداً، فإنه كان يقال: إذا عَرَفَ الملك من الرجل أنه قد ساواه في الرأي والمنزلة والهيبة والمآل والتابع فليصرُّعه، فإنه إن لم يفعل كان هو المتصروع، وأنت أيها الملك أعلم بالأمور وأبلغ فيها رأياً، وأنا أرى أنَّ تحتمل للأمر قبل تفاقمه، ولا تنتظر وقوعه، فإِنَّك لا تؤمنُ أن يفوتك ثم لا تستدركه، فإنه كان يُقال: الرجال ثلاثة: حازمان وعاجز، فأحدُ الحازمين من إذا نزل به البلاء لم يذهب، ولم يذهب قلبه شعاعاً، ولم يَعِيْ برأيه وحيلته أو مكيدته التي بها يرجو المخرج والنجاة، وأحرز من هذا المتقدم ذُو العُدَّة، الذي يعرف الأمر مبتدأً قبل وقوعه، فيُعظِّمه إعطاءه، ويحتالُ له حيلته كأنه قد لزمَه، فيحسمُ الداء قبل أن يُبْتَلِي به، ويدفعُ الأمر قبل وقوعه، وأمّا العاجز فهو الذي لا يزال في التردد وتمْنُّ الأمانِي حتى يُهْلِك نفسه، ومَثُّ ذلك مَثُّ السِّمَكَاتِ الْثَّلَاثَةِ. قال

الأسد: وكيف كان مَتَّهُنْ؟ قال دمنة: زعموا أنَّ غديراً كان فيه ثلاثة سمكٍ: كيْسَة، وأكيْسٌ منها، وعاجزة، وكان ذلك المكان بنجوة من الأرض، لا يكاد يقربه من الناس أحد، فلما كان ذات يوم مرّ صيادان على ذلك الغدير مجتازِين، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا الثلاث السمكَات اللواتي رأيا هنَّ فيه، فلما رأتهما الحازمة ارتبَت بهما، وتخوَّفتَ منها، فلم تعرَّجْ أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر، وأمَّا الكيْسَة فتابَثَت حتى جاء الصيادان، فلما أبصرتهما قد سَدَا مخرجاها، وعرفت الذي يريدان بها قالت: فرَّطْتُ، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص وقلَّما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكنَّ العالم لا يقْنطُ على كل حال، ولا يدعُ الأخذ بالرأي، ثم تماوت وجعلت تطفو على وجه الماء منقبلة، فأخذها فأليقىها على الأرض غَيْرَ بعيدٍ من النهر، فوثبت فيه فنجت منها، وأمَّا العاجزة فلم تَزَلْ في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صادها.

وأنا أرى لك أيها الملك معاجلة الحزم والحيلة، فتحسُّم الداء قبل أن تُبْتلى به، وتدفع الأمر قبل نزوله.

قال الأسد: قد فهمتُ ما ذكرتَ، ولكن لا أظُنْ شرتبة بيعيني سُوءاً ولم أفعله به.

قال دمنة: ألا إنه لا يحمله على ذلك إلَّا ذلك، فإنك لم تَدعْ خيراً إلَّا صنعتَه به، ولا مرتبة شريفة إلَّا بلَّغَته إليها، فلم يبق شيء يسمو إليه إلَّا مكانُك، فإنَّ اللئيم الكافور لا يزال ناصحاً نافعاً حتى يُرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل، فإذا فُعلَ ذلك به التمس ما فوقها بالغش والخيانة، ولا يخدم السلطان ولا ينصح له إلَّا عن فرق أو حاجة، فإذا استغنى وأمن عاد إلى أصله وجوهِه، كذَبَ الكلب الأعْقَف لا يزال مُستقيماً ما دام مربوطاً، فإذا حُلَّ عاد إلى ما كان عليه، واعلم أنه من لم يقبل من نصائحه ما يُثقل عليه مما ينظرون له فيه لم يَحْمَدْ مَغْبَةَ أمره ورأيه؛ كالمريض الذي يترك ما يَنْعَتْ له الطبيب ويعدِّ لما تشتتهي نفسه، وحقُّ على وزير السلطان أن يبالغ في الحِضْيَضِي له على ما يزيشه، ويكون فيه رشدٌ وكفُ الشين والغَيْ عنده، وخير الأعوان أَقْلُم مصانعة، وأفضل الأفعال أحلاها عاقبة، وأحسنُ الثناء ما كان على أنفواه الأحرار، وأشرفُ السلطان ما لم يخالطه بطر، وأيسَرُ الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً، وأفضل الأصدقاء من لم يُخَاصِم، وأمثال الأخلاق أعنونها على الورع، وقد قيل: لو أن امرءاً توَسَّدَ النار وافتَرَشَ الحَيَّاتَ كان أَحَقَّ بِأن يَهِنَّهُ النُّومُ عليهما منه إذا أحسَ من صاحبه الذي يغدو عليه ويروح بعداوَةٍ يُريدُ بها نفسه، وأعجَّ الملوك آخذهم بالهُوَيْنا، وأشباههم بالفيل المغفل

الذى لا يلتفت إلى شيء، فإن حزبه أمر تهاون به، وإن أضاع ما ينفعه، جعل ذلك على قرائبه.

قال الأسد: لقد أغلظتَ القول، وذلك من الناصح مقبول، ولو كان شتبة لي عدواً كما تذكر لم يقدر على ضرّي، وكيف يستطيع ذلك وهو آكلُ عشب وأنا آكل لحم، وإنما هو لي طعام وليس عليَّ منه مكره، ولا إلى الغدر به سبيل بعد إيماني إيه وإكرامي له، وشئائي عليه على رءوس جندي، فإن أنا غيرتُ ذلك أو بذلتَه فقد جهلتُ نفسي وحتررتُ بذمتي. قال دمنة: لا تغترر إلى ذلك، فإن شتبة إن هو لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبلي غيره، وقد قيل: إن نزل بك ضيفٌ ساعةً من النهار، وأنت لا تعرف أخلاقَه فلا تأمنه على نفسك، واحذر أن يصل إليك منه مثلُ ما وصل إلى القملة من ضيافة البرغوث، قال الأسد: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنَّ قملةً لزمتِ فراشِ رجلٍ من الأشراف، فكانت تصيب من دمه وهو نائم، وتدبُّ دببًا رفيناً فلا يشعر بها، ثم إنَّ برغوثاً ضافها، فقالت له: بِتْ هنا الليلة في دمِ طيبٍ وفراشِ وطنيِّ لَينِ، ففعل، فلما آوى الرجل إلى فراشه، لدعه البرغوث فأوجعه، فاستيقظ وأمر بفراشه أن يفتحَ وينظر ما فيه، فواثب البرغوث فنجا، وأخذوا القملة فقتلوها.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنَّ صاحب الشر لا يُسلِّم منه، وإن ضَعْف احتال
بغيره، فإن كنت لا تخاف شتبة وقد وثقت به، فرُبَّ موثوقٍ به غادر، فأشقوه من
جندك، فإنه قد أَلَّبَّهم وحملَّهم على عداوتك، وجراهم عليك، مع أَنِّي قد عرفتْ أنه لا يُريد
مناظرتك، ولا يكُلُّ العمل إلى غيره في ذلك من أمرك، فوقع في نفس الأسد ما قال دمنة،
وقال له: ما ترى؟ فقال دمنة: إنَّ صاحب الضرس المأكول لا يزال في أَذى منه حتى
يفارقه، والطعام الذي غَيَّثَت منه النفس راحتُها في قذفه، والعدُوُّ المخوف دواوئه في فقده
أو قهره.

قال الأسد: لقد تركتني كارهًا لجواردة شرتبة، فأنا مُرسِلٌ إليه فذاكر له ما وقع في نفسي، وأمره باللحاق حيث أحبّ، فكره دمنة ذلك، وعرف أنَّ الأسد إنْ كلم شرتبة وسمع مرجوعه عليه، عذره وصدقه ولم يُخْفِ عليه أمره، فقال: ما أرى ذلك لك أينها الملك؛ فإنه لا يزال لك من رأيك الخيار ما دام لا يعلم بأنَّ أمره قد وصل إليك، فإنَّه إنْ شعر بذلك خفت أن يكابرك أو يتنهَّى عنك، فإن قاتلك قاتلك مستعدًا، وإن فارقك ففارقك حذراً، وكان له عليك في ذلك الفضل، مع أنَّ الملوك حَزَمَة لا يُعلِّنون بالعقوبة إلا من ظهر ذنبه، وما كان من ذلك مكتوماً سترُوها منه.

قال الأسد: إنَّ الملك إذا عاقب أحداً أو أهانه عن أمرٍ — يطُّنه به — لا يستيقنه، ثم علم أنَّ ذلك ليس كما بلغه، فبنفسه فعل ذلك، وإياها عاقب ونكب.

قال دمنة: فلا يدخلنَّ عليك شرتبة إلَّا وأنت مستعدٌ له، واحذر أن يصيب منك غرَّةً، فإني لا أحسبك لو قد نظرت إلَيْه حين يدخل عليك إلَّا سترعف أنه قد همَّ بعظميَّة، ومن علامات ذلك أن ترى لونَه مُتغيِّراً وأوصاله ترتعد، وهو يلتقط يميناً وشمالاً، ويُهدي قرنيه كأنه يهمُ بالنظر.

قال الأسد: سأخذ بمشورتك في ذلك، ولئن أنا رأيته على ما وصفت فليس في أمره عندي شك.

فلما فرغ دمنة من تضريب الأسد على الثور، وأوقع في نفسه الذي أراد، همَّ بأن يذهب إلى شرتبة ليُغريه به ويحمله عليه، وأحَبَ أن يكون ذلك بأمر الأسد وعن علمه، لثلا يبلغه ذلك عن غيره ففيه، فقال: ألا آتي شرتبة فأنظر إلى حاله وأسمع كلامه لعلَّي أطلع على بعض أمره، فأعلم الملك به؟ قال الأسد: شأنك وما تريده، ثم إنَّ دمنة انطلق إلى شرتبة فدخل عليه كالحزين المكتئب، فرَّحَ به شرتبة، وقال: لم أرُك منذ أيام، فما حَبَسَك؟ أهو خير؟ فقال دمنة: ومتى كان من أهل الخير من لا يملك نفسه، ومن إنما أمرُه بيد غيره، ومن لا يُوثق به، ومن لا ينفك في خوف منه، حتى ما من ساعة يامنها فيها على نفسه؟

قال شرتبة: فما ذلك؟ قال دمنة: حدَثَ أمراً، فمن ذا يغلِّب القدر؟ ومن بلغ في الدنيا جسيماً فلم يَبْطِرَ، أو اتَّبعَ الهوى فلم يَعْثُرَ، أو جاورَ النساء فلم يَفْتَنَنَّ، أو طلبَ إلى اللثام فلم يُهَنَّ وَيُحرَمَ، أو واصلَ الأشرار فسلَّمَ، أو صاحبَ السلطانَ فدامَ له منه الإحسان؟ لقد صدقَ الذي يقول: إنما مَثُلُهم — في قِلَّةٍ وفائقُهم لأصحابِهم وسخاءُ أنفُسِهم عنَّ فَقدوا منهم — مَثُلُ المكارى^{٢٣} كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه. فقال شرتبة: أسمع لك كلاماً أعرف به أنه قد رايك من الأسد شيء، قال دمنة: ذلك كذلك، ولكن ليس في أمر نفسي، وقد تعرَّفَ حَقَّك علىَّ، ووَدَّ ما بيني وبينك، وما كنتُ جعلتُ لك من ذمَّتي أيام كان الأسد أرسلني إليك، فلم أجد بُدُّا من حِفْظِك والنصحَة لك، وإطلاعك على ما أخاف فيه الهلكة عليك، قال شرتبة: وما ذلك؟ قال دمنة: حدَثَتني الأمين الصدوق أنَّ الأسد قال

^{٢٣} في الأصل ونسخة شيخو: «مَثُلُ الْبَغَيِّ كُلَّمَا ذَهَبَ وَاحْدَجَاءَ آخَرَ مَكَانَه»، وقد غيرنا العبارة لشناعتها.

لبعض أصحابه: لقد أعجببني سمن شربة، وليست بي حاجة إليه، وما أراني إلا أكمله ومُطعِّمَك منه، فلما بلغني ذلك عرفت كفره وغدره، وأقبلت إليك لأنذرك لتحتال في نجاتك في رفق.

فلما سمع شتبة كلام دمنة، وتنذَّر ما كان جعل له، وفَكَرَ في أمر الأسد، ظنَّ أنه قد صدَّقه، فاهاهْتَ وقال: ما ينبغي للأسد أن يغدر بي، ولم أذنب إليه، ولا إلى أحدٍ من جُنده، وأظنه قد حُمِّلَ علَيَّ، وشُبِّهَ عليه في أمري، فإنه قد صحبه قوم سوءٍ، جَرَّبَ وعرف منهم أشياء هي تُصدِّقُ عنده ما بلغه عن غيرهم، فإنَّ مقارنة الأشارر ربماً أورثت أهلها تهمة الأخيار، وحملهم ذلك على خطأ البطة التي رأت في الماء ضوء كوكب حاولت أن تصيده، فلما لم تره شيئاً تركته، حتى إذا كان عند المساء أبصرت فيه نوناً فحسبت أنه مثل ما رأت قبله فرفضت طلبه.

فإن كان ما بلغه عنِي باطلًا فحَقَّه لِما اختبر من غيري، وبالحرى، وإن كان لم ينتِ إليه من ذلك شيءٌ فأراد هلاكي عن غير علة فذلك عجب، وأعجب منه أن تكون أطلب رضاه وموافقته فلا يرضى، وأعجب من ذلك أن التمس محبتَه وأجتنب مخالفته فيغضب ويسخط، وإن كان موجدته عن غير سبب انقطع الرجاء؛ لأنَّ العلة إذا كانت العتبة في ورودها كان الرضا في إصدارها، وهي تذهب أحياناً وتوجد أحياناً، والباطلُ قائمٌ غير مفقود، وقد تذكَّرتُ فلا أعلم لي ذنباً فيما بيبي وبيان الأسد – إن كان – إلا صغيراً، ولأعمري ما يستطيع امرؤ صاحبٍ أحداً أن يتحفظ حتى لا يفُرُّط منه شيءٌ يكرهه، ولكنَ الرجلَ ذا العقل والوفاء إذا سقط صاحبُه نظر في ذلك، وما حُدُّ مبلغه، وخطأً كان أو عمداً، وهل في الصفح عنه مخوف، ثم لا يؤاخذه مهما وجد إلى العفو عنه سبيلاً. فإنَّ كان الأسد يعتدُّ عليَّ جرماً فلسْتُ أعرفه إلاًّ أني كنتُ أخالف عليه في بعض رأيه، فلعله يقول: ما جرَّأَه على أن يقول «نعم» إذا قلت «لا»، أو يقول «لا» إذا قلت «نعم»؟ ولا أجدُني في ذلك مخصوصاً؛ لأنَّي لم أكن أريد بذلك إلاً منفعته، ولم أكن أجاهر به على رءوس جنده، ولكنَّ أخلو به فأكلمه فيه وأنا هائِّبُ له، وعرفت أنه من التمس الرخصة من الإخوان عند المشاورة، والأطباء عند المرض، والفقهاء عند الشبهة، فقد أخطأ الرأي، وزاد في المرض، واحتمل الوزر. فإنَّ لم يكن هذا فعسى أن يكون من سكرات السلطان، فإنَّ منها أن يسخط على من لم يستوجب السخط، ويرضى عَمِّن لم يستحق ذلك في غير أمِّ معلوم، وكذلك قيل: قد غرَّر من لَجَّ في البحر، وأشدُّ منه مخاطرةً صاحب

السلطان؛ فإنه خلِيقٌ – وإن هو لزمهم بالوفاء والاستقامة والمودة والنصيحة – أن يعثر فلا يتعش.

وإن^{٤٤} لم يكن هذا فلعل بعض ما أعطيته من الفضل جُعل فيه هلاكي، فإنَّ الشجرة الحسنة رُبَّما كان فسادها في طيب ثمرتها إذا تنوولت أغصانها وجذبت حتى تكسر وتفسد، والطاووس رُبَّما صار ذَنبَه الذي هو حسن وجماله وبالاً عليه، فاحتال إلى الخفة والنجاة من يطلبه، فيشغله عن ذلك ذَنبَه، والفرس الجوار القويَّ ربما أهلكه ذلك فأجْهَد وأتَعب واستعمل لما عنده من الفضل حتى يَهْلك، والرجل ذَا الفضل ربما كان فضله ذلك سبب هلاكه: لكثرَة من يحْسُدُه ويبغي عليه من أهل السوء، وأهلُ الشَّرِّ أكثرُ من أهل الخير بكل مكان، فإذا عاذوه وكثروا عليه أوشكوا أن يُهلكوه. فإن لم يكن هذا فهو إذن القدر الذي لا يُدفع، فإنَّ القدر هو الذي يسلُب الأسد شِدَّته وقوَّته حتى يُدخله التابوت، وهو الذي يحمل الضعيف على ظهر الفيل، وهو الذي يسلُط الحَوَاء على الحياة فينزع حُمَّتها فيلعب بها كيف شاء، وهو الذي يُعْجز الأريب ويُحْزم العاجز، ويثبُط الشهم ويشهِّم التبيط، ويُوسع على المُقتَر ويُقْتَر على الموسر، ويُشجِّع الجبان ويُجْبِن الشجاع عندما تعثر به المقادير من معاريض العلل التي عليها قدَّرت مجاريه.^{٤٥}

قال دمنة: إنَّ إرادة الأسد لما يريد ليس لشيءٍ مما ذكرت من تحمل الأشرار ولا غير ذلك، ولكنه الغدر والفجور، فإنه جبارٌ غدارٌ، أولُ طعامه حلاوة، وآخره مرارة، بل أكثره سُمٌّ مميت، قال شترية: صدقت، لعمري لقد طعمتُ فاستلذت، فأراني قد انتهيت إلى الذي فيه الموت، وما كان – لولا الحَيْنُ – مُقامي مع الأسد وهو آكل لحم وأنا آكل عشب، فقبَّا للحرص وقبَّا للأمل، فهما قذفاني في هذه الورطة، واحتبساني عن مذهبِي كاحتباس النحل فوق النيلوفر – إذا وجدت ريحَه واستلذت به وأغفلت منهاجها الذي يينبغي لها أن تطير فيه قبل انضمام النيلوفر – فتلُّج فيه فتموت، ومن لم يرض

^{٤٤} من أول «وإن لم يكن هذا فلعل» إلى «ساعة من نهار» صفحات ساقطة من الأصل، وقد أخذناها من نسخة شيخو، وهي أقرب النسخ إلى نسختنا.

^{٤٥} في النسخ المصرية ونسخة طبارية: «من العلل التي وضعَتُ عليها الأقدار»، وفي نسخة اليازجي: «بالعدل التي اتفقت لها»، وعبارة هذه النسخة المقلولة عن نسخة شيخو أقرب إلى أسلوب الكاتب في مثل هذا الموضوع (انظر قوله: «ولكل سبب علة، ولكل علة مجرى») [انظر: باب توجيهه كسرى أنو شروان بربوبيه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب (الناشر)].

بالكفاف من الدنيا، وطمحت نفسه إلى الفضول والاستكثار، ولم ينظر فيما يتلخص في ذلك أبداً، كان كالذباب الذي ليس يرضي بالشجر والرياحين حتى يطلب الماء الذي يسيل من أدنى الفيل المغلتم، فيضررُه الفيل بأذنيه فيقتله، ومن بذل نصيحته واجتهاده لمن لا يشكر له؛ فهو كمن بذر بذرة في السباخ أو أشار على الميت.

قال دمنة: دعْ عنك هذا الكلام، واجتهد لنفسك، قال شترية: بأي شيء أحتال لنفسي إن أراد الأسد قتيلاً؟ فما أعرَفني بأخلق الأسد ورأيه، وأعرفني بأنه لو لم يُرد بي إلا الخير ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي عنده قدروا على ذلك! فإنه لو اجتمع المكرة الظلمة على البريء الصحيح كانوا خلقاء أن يُهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وكان قويًا، كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل، حين اجتمعوا عليه بالمر والخلابة؛ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال الثور: زعموا أنَّ أسدًا كان في أجمة مجاورة طريقاً من طرق الناس، له أصحاب ثلاثة: ذئب وابن آوى وغراب، وأنَّ أناساً من التجار مرروا في ذلك الطريق فتختلف عنهم جمل لهم، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد، فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ فأخبره بشأنه، فقال له: ما تريدين؟ قال أريد صحبة الملك، قال: فإن أردت صحبتي فاصحبني في الأمن والخصب والسعفة، فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يوم توجَّه الأسد في طلب الصيد؛ فلقي فيلاً فقاتله قتالاً شديداً، ثم أقبل الأسد تسيل دماءه مما جرحة الفيل بنابه، فوقع مُثخناً لا يستطيع صيدها، فلبيَّ الذئب وابن آوى والغراب أيامًا لا يُصبن شيئاً مما كُنْ يعيشَ به من فضول الأسد، وأصابهم جوعٌ وهزال شديد؛ فعرف الأسد ذلك منهم فقال: جهْدُتْنَ واحتَجْتُنَ إلى ما تأكلنَ، فقلن: ليس همُنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى، ولسنا نجد للملك بعض ما يصلحه، قال الأسد: ما أشكُ في موَدَّتكم وصحبتكم، ولكن إن استطعتم فانتشروا، فعسى أن تصيبوا صيدها فتتأتونِي به، ولعلَّ أكسيكم ونفسي خيراً، فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتحتو ناحية واتّمروا بينهم، وقالوا: ما لنا ولهذا الجمل الأكل العشب، الذي ليس شأنه شأننا، ولا رأيه رأينا؟ ألا نُزِّيَنَ للأسد أن يأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى: هذا ما لا تستطيعان ذكره للأسد، فإنه قد أَمَنَ الجمل، وجعل له ذمة. قال الغراب: أقيموا مكانكم ودعاني والأسد، فانطلق الغراب إلى الأسد، فلما رآه، قال له الأسد: هل حصلت شيئاً؟ قال له الغراب: إنما يجدَ من به ابتلاء، ويُبصرَ من به نظر، أمَّا نحن فقد ذهبَ منَّا البصر والنظر لما أصابنا من الجوع، ولكن قد نظرنا في أمر واتفق عليه رأينا، فإن وافقتنا عليه فنحن مُخْصِبون؛ قال الأسد: وما ذلك الأمر؟ قال الغراب: هذا الجمل الأكل

للعشب المتمرغ بيتنا في غير منفعة، فغضب الأسد وقال: ويلك! ما أخطأً مقالتك، وأعجز رأيك، وأبعدك من الوفاء والرحمة! وما كنت حقيقةً أن تستقبلني بهذه المقالة، ألم تعلم أنني أمّنتُ الجمل وجعلت له ذمة؟ ألم يبلغك أنه لم يتصدق المتصدق بصدقه – وإن عظمت – هي أعظم من أن يُجير نفساً خائفة، وأن يَحِقَنْ دمًا مهدوراً؟ وقد أجرت الجمل، ولستُ غادراً به، قال الغراب: إنني لأعرف ما قال الملك، ولكنَّ النفس الواحدة يفتدي بها أهلُ البيت، وأهل البيت تفتدي بهم القبيلة، والقبيلة يفتدي بها مصر، والمصرِّ فدَى الملك إذا نزلت به الحاجة، وإنني جاعلُ للملك من ذمته مخرجاً، فلا يتکلف الأسد أن يتولى غدرًا ولا يأمر به، ولكنَّ محталون حيلة فيها وفاءً للملك بذمته وظفرُ مَنَا ب حاجتنا، فسكت الأسد.

فأتى الغراب أصحابه فقال: إنني قد كَلَمْتُ الأسد حتى أقرَّ بـكذا، فكيف الحيلة للجمل إذا أبى الأسدُ أنْ يليَ قتيله أو يأمرَ به؟ قال أصحابه: برفقك ورأيك نرجو ذلك، قال الغراب: الرَّأيُ أن نجتمع والجمل، ونذكر حال الأسد، وما قد أصحابه من الجوع والجهد، ونقول: لقد كان إلينا مُحسناً، ولنا مُكرِّماً، فإنْ لم يَرَ مَنَّا اليوم – وقد نزل به ما نزل – اهتماماً بأمره وحرصاً على صلاحة، أنزل ذلك مَنَا على لوم الأخلاق وكُفر الإحسان، ولكن هلمُوا فتقَدُّموا إلى الأسد نذكر له حُسن بلائه عندنا، وما كَنَّا نعيش به في جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا، وأنَّا لو كَنَّا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندَّخر ذلك عنه، فإنْ لم نقدر على ذلك فأنفسنا له مبنولة، ثم ليعرض عليه كلُّ واحد مَنَّا نفسه، وليلقل: كُلُّني أيها الملك، ولا تُمْتُ جوعاً، فإذا قال ذلك قائل، أجابه الآخرون: ورُدُّوا عليه مقالته بشيءٍ يكون له فيه عُذر، فيسكت ويستكتون، ونسَلُّمُ كُلُّنا ونكُونُ قد قضينا زمام الأسد، فعلوا وواطأهم الجمل على ذلك.

ثم تقدموا إلى الأسد، فبدأ الغراب وقال: إنك احتجت أيها الملك إلى ما يُقيِّمُك، ونحن أحُقُّ أن نهَبَ أنفسنا لك، فإنَّا بك كَنَّا نعيش، وبك نرجو عيشَ مَنْ بعدها من أعقابنا، وإن أنتَ هلكَتَ فليس لأحد مَنَّا بعدك بقاء، ولا لنا في الحياة خير، فأنَا أَحُبُّ أن تأكلنِي، فَمَا أَطِيبَ نفسي لك بذلك؛ فأجابه الذئب والجمل وابن آوى أنِ اسْكُتْ فما أَنْتَ؟ وما في أكلك من الشَّبع للملك؟ قال ابن آوى: أنا مُشْبِعُ الملك. قال الذئب والجمل والغراب: أنت مُنْتَنِي البطن والريح، خبيثُ اللحم، فنخافُ إن أكلك الملك أن يقتله خُبُثُ لحمك، قال الذئب: لكنني لست كذلك، فليأكلنِي الملك، قال الغراب وابن آوى والجمل: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب، فإنه يأخذه منه الخُناق، وظنَّ الجمل أنه إذا قال مثل ذلك عن

نفسه يلتمسون له مخرجاً كما صنعوا بأنفسهم، ويسلّمُ ويرضي الأسد، قال الجمل: لكن أيها الملك، لحبي طيب ومريء، وفيه شیع للملك، قال الذئب والغراب وابن آوى: صدقتكَ وتكرمتَ وقلتَ ما نعرف، فوثبوا عليه فمزقوه.

وإنما ضربتُ هذا المثل للأسد وأصحابه لعلمي بأنّهم إن اجتمعوا على هلاكي لم أمتّن منهم، ولو كان رأيُ الأسد في غير ما هو عليه، ولم يكن في نفسه إلا الخير، فإنه قد قيل: إنَّ خير السلطان من أشبه النسور حولها الجيف، لا من أشبه الجيف حولها النسور، ولو أنَّ الأسد لم يكن في نفسه إلا الرَّحْمَةُ والحبُّ لم تُلِّثِه الأقاويل إذا كثرت عليه أن يذهب ذلك كله حتى يستبدل به الشرارة والغلظة، إلا ترى أنَّ الماء ألين من القول، وأنَّ الحجر أشدُّ من القلب، وليس يليث الماء إذا طال تحذره على الحجر الصَّلَدْ أن يؤثِّر فيه؟

قال دمنة: فماذا ت يريد أن تصنع؟ قال شترية: ما إنْ أرى إلا أنْ أجاهده، فإنه ليس للمصلي في صلاته، ولا للمُنْتَصِّدِقَ في صدقته، ولا للورع في ورعيه مثلْ أجر المُجاهد بنفسه ساعةً من نهار إذا كان مُحِقاً، وكان عدوه مُبِطِلاً، فإنه من ذلك على أمررين يستيقن منهما الأخيار: إنْ قُتِلَ فالجنة، وإنْ قُتِلَ فأجزٌ وظفر.

قال دمنة: ليس ينبغي لأحد أن يُخاطر بنفسه، فإنه إن فعل ذلك وهلك كان قد أضاع نفسه وأثم، وإن ظفر كان من قبْل القضاء، ولكنَّ ذا العقل يجعل القتال آخر حِيلَه، ويببدأ بما استطاع من رفق أو تمْحُل ولا يَعْجل، وقد قيل: لا تحقَّرَنَّ العدوَ الضعيف المَهين، ثم لا سيمَا إن كان ذا حيلة، فكيف بالأَسَد، وهو في جُرأته وشدةٍ على ما قد عرفت؟ فإنه من استنصرَ أمر عدوه وتهاون به أصحابه ما أصاب وكيلاً البحر من الطِّيطَويَ. قال شترية: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن طائراً من طيور الماء يُدعى الطِّيطَوي كان هو وزوجته في بعض سواحل البحر، فلماً كان إِبَان بيضها أعلمته بذلك، وقالت له: التمس مكاناً حريراً أَبِيضاً فيه. فقال لها: ليكُن ذلك في منزلنا، فإنَّ العشب والماء كثير، ومنَّا قريب، وذلك أرفق بنا من غيره. فقالت: يا غافل، لِتُحسِّنَ نظرك فيما تقول، فإننا بمكاننا هذا على غَرَر؛ لأنَّ البحر لو قد مدَّ ذَهَب بفراخنا؛ فقال: لا آراه يحمل علينا لما يخاف الوكيل عليه من الانتقام منه، فقالت: ما أَشَدَّ بغيك في هذه المقالة! أوَّ ما تستحي وتتعرَّفُ قَدْرَ نفْسِكَ في وعيك مَنْ لا طاقة لك به، وتهديك إِيَاه؟ وقد قيل: إنه

ليس من شيءٍ أشدَّ معرفةً لنفسه من الإنسان،^{٢٦} وذلك حقٌ فاسمع كلامي، وأطِعْ أمري، فلأبِي أن يُجِبِها إلى ما تدعوه إليه.

فلما رأت ذلك قالت: إنَّ من لا يسمع القول النافع من أصحابه يُصيِّبه ما أصحاب السلفة؛ قال: وكيف كان ذلك؟ قالت: زعموا أنَّ عيناً كان فيها بطنان وسلحفاة، وكان قد أَلَفَ بعضُهم بعضاً وصادقه، ثم إن تلك العين نقص ماؤها في بعض الأزمان نقصاً فاحشاً، فلما رأى الطبلتان ذلك قالت: إنه لينبغي لنا تركُ ما نحن فيه والتحول إلى غيره، فوَدَّعا السلفة وقالت: عليك السلام؛ فإنَّا ذاهبتان. قالت السلفة: إنما يشتَدُّ نقصان الماء على مثلي؛ لأنَّي لا أعيش إلَّا به، فاحتلا لي واذهبنا بي معكم؛ فقالت: لا تستطيع أن تفعل ذلك بك حتى تشرطي لنا أننا إذا حملناك فرآك أحدُ ذكرك ألا تجبيه؛ فقالت: نعم، ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما؟ قالت: تعَضَّين على وسَطِ عُوب، وتأخذُ كلَّ واحدٍ منَّا بطرفه، فرضيت بذلك وطارا بها، فرأها الناس فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى العجب، سلفة بين بطتين تطيران بها في الهواء، فلما سمعت ذلك قالت: رغم لأنفكم، فلما فتحت فاها بالمنطق وقعت إلى الأرض فماتت.

قال الطيطوى للأنثى: قد فهمتُ ما ذكرتِ، فلا تخافي وكيل البحر، ولا ترهبِيه، فباعت مكانتها وفرَّخت، فلما سمع وكيل البحر ذلك أحبَّ أن يعلم كُنه الذي يقدر عليه الطيطوى من الاجتزاء منه، وما حيلته في ذلك، وأمهله حتى مَدَ البحر، وذهب بالفراخ في عُشَّهن فغَيَّبُهن، فلما فقدتهن أمُهُنَّ قالت للطيطوى: قد كنتُ عارفةً في بدء أمرنا أنَّ هذا كائن، وأنَّها سترجع علىَّ وعليك؛ قلَّة معرفتك بنفسك، فانظر إلى ما أصحابنا من الضرر في سبب ذلك، فقال: سترین صُنْعِي، وما يصِرُّ إليه عاقبة أمري، وانطلق إلى أصحابه فشكَا ذلك إليهم، وقال: إنكم إخوتي وأهُلُّ موَدَّتي وثقتِي، وأنا أطلب ظُلْامِي، فأعينوني

^{٢٦} هذه الجملة: «إنه ليس من شيءٍ أشدَّ معرفة ... إلخ» ليست في النسخ الأخرى ما عدا شيخو، وفي نسخة شيخو: «ليس شيءٌ أقلَّ معرفة لنفسه من الإنسان»، وفي منظومة ابن الهبارية:

قد قيل أقوى الناس جمِعاً معرفة عارفٌ قدرِ نفسه بلا صفة (سفه؟)

وفي ترجمة نصر الله بن عبد الحميد: «خويشن شناسی نیکوست» أي: معرفة النفس حسنة، ويرى القارئ أنَّ ذكر الإنسان هنا لا يخلو من غموض.



وظافروني، فإنه عسى أن ينزل بكم مثلُ ما نزل بي. فقالوا له: نحن على ما وصفت، وأنت أهلٌ لأن تُسعف بما طلبت، ولكن ما عَسِينَا أَن نقدر عليه من ضُرٌّ البحر ووكيله؟ قال: فاجتمعوا بنا، فلنأتِ سائر الطير فلنذكُر ذلك لهم، فأجابوه إلى ذلك، وأعلمهم ما أصابه وحلَّ به، وحذَّرُهُنَّ أَن ينزل بهنَّ مثله، فقلن له: الأمرُ على ما ذكرت، فما الذي نستطيع من مساعدة البحر ووكيله؟ فقال: إِنَّ مَلْكَنَا، معاشر الطير، العنقاء^{٢٧}، فتعالوا نصرُّخ بها حتى تبدو لنا؛ ففعلوا ذلك، فظهرت لهنَّ وقالت: ما جَمَعْكُنَّ؟ ولمَ دعوتُموني؟ فأنهيَنَ إِلَيْها ما لَقَيْنَا من البحر ووكيله، وقلن لها: إنك مَلْكُنَا، والملك الذي يقتعدك أقوى

^{٢٧} للعنقاء التي تسمى بالفارسية «سيمرغ» مكانة في أدب الإيرانيين والأريين عامه (انظر التعليقات على الترجمة العربية للشاهنامه ص ٥٦، وصفحات أخرى مبينة في الكتاب) وهو فهرس الأعلام.

من وكيل البحر، فانطلق إلى عليه، ففعلت ذلك، فأجابها إلى ما سألت، وانطلق ليقاتلها، فلما علم بذلك وكيل البحر، وعرف ضعفه عند قوته، رد فراح الطيطوى عليه. وإنما ضربت لك هذا المثل لأنني لا أرى لك قتال الأسد، ولا الجاهرة له به، قال شتبة: ما أنا بناصِب للأسد العداوة، ولا متغَير له عما كنت عليه؛ حتى يبدُّلني ما أتخوف منه فأشغل به، فكره ذلك دمنة، وظن أنَّ الأسد إن لم ير من شتبة العلامات التي وصف له اتهامه، فقال: انطلق، سيستبين لك إذا دخلت عليه آيات ما ذكرت لك، قال شتبة: وكيف أعرف ذلك؟ فقال دمنة: إن أنت رأيت الأسد حين تدخل عليه ينتحب مُقْعِيًّا ويرفع صدره، ويُسَدِّد إليك بصره، ويضرب بذَنْبِه، ويتمَّظِّف، فاعلم أنه يريد قتلك، فاحذره ولا تغتر إليه، فقال شتبة: لئن أنا عاينت منه ما وصفت، فما في أمره عندي شك.

فلما فرغ دمنة من تحمل الأسد على شتبة وشتبة على الأسد، توجه إلى كليلة، فلما لقيه قال: إلام انتهى عملك الذي كنت فيه؟ فقال دمنة: يا أخي، قد تقارب نجاحه على الذي تُحب، فلا تُشَكِّن في ذلك، ولا تظنَّ أنَّ الإباء بين الأخوين ثابت إذا احتال لقطعه الأريب الرَّفيق، فانطلقوا حتى أتي الأسد في عرينه، ووافقا شتبة قد دخل عليه فرأه على حال ما ذكر دمنة ووصفه له، فاستيقن بالهلكة، وقال: ما صاحبُ السلطان — فيما يُتخوَّف من بوادره عندما يرقى أهلُ البغي إليه — إلَّا كمجاور الحَيَّة في بيته، والأسد في عرينه، والسابح في الماء الذي فيه التماسيح^{٢٨} لا يدرى متى يهيج به بعضُهم؛ ففكَّر في ذلك وتهيأ لقتاله، ونظر إليه الأسدُ فعرف ما كان دمنة ذكر له منه، فواكبَه فاقتلا فقتلَا شديداً سالت منه الدماء بينهما.

فلما رأى كليلة ذلك قال لدمنة: أيها الفَسْل! انظر إلى حيلتك، ما أنكدها وأوخر عاقبتها! فإنك قد فضحتَ الأسد، وأهلكت شتبة، وفرقت كلمة الجُند، مع ما استبان لي من خُرُق فيما أدعى فيه الرفق، أولئك تعلم أنَّ أَعْجَزَ الرَّأْيِ ما كَلَّفَ صاحبه القتال، وهو عنه غَنِي؟ وأنَّ الرجل رُبَّما أُمِكِّنَتْه فرصةٌ في عدوه فتركها مخافةَ تعرُض النكبة، ورجاءَ أن يقدر على حاجته بغير ذلك، وإذا كان وزير السلطان يأمُرُه بالمحاربة

^{٢٨} ذكر «التماسيح» هنا ليس مستغرباً، فإنَّ أنهار الهند فيها تماسيح، حتى ظَنَّ بعض القدماء أن نهر السندي ونيل متصلان لما في السندي من تماسيح.

فيما يقدر على بُغيته فيه بالمسالة فهو أشدُّ من عدوه له ضرراً، وكما أنَّ اللسان يُدركه الضعف عن نهكة الفؤاد، فكذلك النجدة تلحقها السخافة عن خطأ الرأي، فإنهم إذا فقد أحدهما صاحبه لم يكن للآخر عمل عند اللقاء، وللرأي عليها الفضل؛ لأنَّ أموراً كثيرة يجزئ فيها الرأي، ولا تبلغ هي شيئاً إلَّا به، ومن أراد المكر ولم يعرف وجه الأمر الذي يأتيه منه ويحيد فيه عنه، كان عمله كعملك، ومن عرف التمُّل والرُّفق، وهو ضعيفٌ بنفسه وعدوه قويٌّ، فإنه أقوى من عدوه؛ لأنَّ الفيل والأسد مع قوتهم، والحياة الأسود مع سمه ونهرته، وقوه الماء والنار والريح والشمس، فإنَّ الرجل الضعيف بالرفق والحيل يظفر بهم، وبالحيل يركب الفيل، ويأخذ الحياة ويلعب بها، ويُصِير الأسد في التابوت، ويُحرِّي الماء على موضع ما يُريد، ويَمْنَع مضررة النار والريح والشمس، ويستخدم القويَّ. وقد كانت لي معرفة ببغيك وعجبك بنفسك، ولم أَزَلْ أتوقع منذ رأيت شَرَهَك وحرشك داهيَّةً تجني بها عليَّ وعليك، فإنَّ ذا العقل يُفَكِّر في الأشياء قبل ملابستها، فما رجا أن يتمَّ له أَقْدَمْ عليه، وما خاف أن يتعدَّر عليه انصرف عنه، ولم يمنعني من تأنيبك في أول أمرك ووقفك على حَطَّل رأيك إلَّا أنَّ ذلك كان ما لا أستطيع إظهاره، ولا ابتلاء الشهود عليك فيه، فأمَّا الآن فإني سأفسِّر لك ما أنت عليه من ذلك؛ فإنك تُحسِّن القول ولا تحكم العمل، وقد قيل: ليس شيء بأهلك للسلطان ممن كان كذلك، وهذا الذي غَرَّ الأسد منك، ولا خير في الكلام إلَّا مع الفعل، ولا في الفقه إلَّا مع الورع، ولا في الصدقة إلَّا مع النية، ولا في المنظر إلَّا مع المخبر، ولا في المال إلَّا مع الجُود، ولا في الحياة إلَّا مع الصحة والسرور والأمن. وقد سوَطَت أمراً لا يُداوِيه إلَّا العاقل الرفيق، كالمريض الذي يجتمع عليه فساد المرأة والبلغم والدم، فلا يذهب ذلك عنه إلَّا الطبيب الحاذق الماهر.

واعلم أنَّ الأدب يدفع عن اللبيب السُّكُر، ويزيد الأحمق سُكُرًا، كالنهار فإنه ينير لكل ذي بصر من الطير وغيره، ولا تستطيع الخفافيش الاستقلال فيه، وذو الرأي لا تُبطره منزلة أصابها؛ كالجبيل الذي لا يتزلزل وإن اشتتد الريح، وذو السخف يُنذفه أدنى أمر كالحشيش الذي يُمْيله الشيء اليسيير. وقد قيل: إنَّ السُّلطان إن كان صالحًا، وزراؤه غير صالحين قلَّ خيره على الناس، وامتنع منهم، فلم يجترِ عليه أحد، ولم يدُنْ منه؛ كالماء الصافي الطيب الذي فيه التماسيح، فلا يستطيع الرَّجل دُخُولَه وإن كان سابحاً وإليه محتاجًا، وإنما حليمةُ الملوك وزينتهم قرابينهم أن يكثروا ويصلحوا، وإنك أردتَ إلَّا يدُنُو من الأسد غيرك، وإنما السلطان بأصحابه وأعوانه كالبَحْر بأمواجه، ومن الحُمق التماس الإخوان بغير الوفاء، والأجر بالرِّباء، ومودة النساء بالغلظة، ونفع المرء

نفسه بضرّ الناس، والفضل والعلم بالدّعّة والخضّ، ولكن ما غناهُ هذه المقالة وجّهـاـ هذا التأنيـبـ، وأـنـاـ أـعـرـفـ أنـ الـأـمـرـ فـيـهـ كـمـاـ قـالـ الرـجـلـ لـلـطـائـرـ: لا تـلـتـمـسـ تـقـوـيـمـ ماـ لـاـ يـعـتـدـ، وـلـاـ تـبـصـرـ مـنـ لـاـ يـفـهـمـ. فـقـالـ دـمـنـةـ: وـكـيـفـ كـانـ ذـلـكـ؟ قـالـ كـلـيـلـةـ: زـعـمـواـ أـنـ جـمـاعـةـ مـنـ الـقـرـدـةـ كـنـ فيـ جـبـلـ، فـرـأـيـنـ فيـ لـيـلـةـ بـارـدـةـ يـرـاعـةـ، فـحـسـبـنـاـ نـارـاـ، فـجـمـعـنـ حـطـبـاـ فـوـضـعـنـهـ عـلـيـهـاـ، وـجـعـلـنـ يـنـفـخـنـ بـأـفـوـاهـهـنـ، وـبـرـوـحـنـ بـأـيـدـيهـنـ، وـقـرـبـ ذـلـكـ الـمـوـضـعـ شـجـرـةـ عـلـيـهـاـ، فـقـالـ لـهـنـ: لـاـ تـتـعـبـنـ أـنـفـسـكـنـ، فـإـنـ الـذـيـ تـرـىـنـ لـيـسـ بـنـارـ كـمـاـ تـحـسـبـنـ، فـلـمـ يـسـمـعـنـ مـنـهـ، وـلـمـ يـطـعـنـهـ. فـلـمـ طـالـ ذـلـكـ عـلـيـهـ، نـزـلـ إـلـيـهـنـ، فـمـرـ بـهـ رـجـلـ فـقـالـ: أـيـهـاـ الطـائـرـ، لـاـ تـلـتـمـسـ تـقـوـيـمـ ماـ لـاـ يـعـتـدـ، وـتـبـصـرـ مـنـ لـاـ يـفـهـمـ، فـإـنـ الـحـجـرـ الـذـيـ لـاـ يـقـدـرـ عـلـىـ قـطـعـهـ لـاـ تـجـرـبـ بـهـ السـيـوـفـ، وـالـعـوـدـ الـذـيـ لـاـ يـنـحـنـيـ لـاـ يـعـالـجـ حـنـيـهـ، فـإـنـ مـنـ فـعـلـ ذـلـكـ نـدـمـ؛ فـلـمـ يـلـتـفـتـ إـلـىـ قـوـلـهـ، وـدـنـاـ مـنـهـنـ لـيـصـرـهـنـ، فـتـنـاـوـلـهـ بـعـضـهـ وـضـرـبـ بـهـ الـأـرـضـ فـقـتـلـهـ، فـهـذـاـ مـثـلـكـ فـيـ قـلـةـ الـأـنـتـفـاعـ بـالـمـوـعـظـةـ، مـعـ أـنـهـ قـدـ غـلـبـ عـلـيـكـ الـمـكـرـ وـالـعـجـبـ، وـهـمـاـ خـلـتـ سـوـءـ، إـنـهـ سـيـصـيـبـكـ مـنـ عـاقـبـةـ مـاـ أـنـتـ فـيـهـ مـاـ دـخـلـ عـلـىـ الـخـبـ شـرـيـكـ الـمـغـلـ، قـالـ دـمـنـةـ: وـكـيـفـ كـانـ ذـلـكـ؟

فـقـالـ كـلـيـلـةـ: زـعـمـواـ أـنـ رـجـلـينـ، أـحـدـهـماـ خـبـ وـالـآخـرـ مـغـفـلـ اـشـتـرـكـاـ، فـبـيـنـمـاـ هـمـاـ يـتـمـشـيـانـ إـذـ وـجـدـاـ بـدـرـةـ فـيـهـاـ أـلـفـ دـيـنـارـ فـأـخـذـاـهـاـ، وـبـدـاـ لـهـمـاـ أـنـ يـرـجـعـاـ إـلـىـ مـديـنـتـهـمـ، فـلـمـ دـنـوـاـ مـنـهـاـ قـالـ الـمـغـفـلـ لـلـخـبـ: خـذـ نـصـفـهـ وـأـعـطـنـيـ نـصـفـهـ، فـقـالـ الـخـبـ: وـكـانـ قـدـ أـضـمـرـ الـذـهـابـ بـهـاـ كـلـهاـ: لـاـ، فـإـنـ الـمـفـاـوـضـةـ أـدـوـمـ لـلـمـصـافـةـ، وـلـكـ يـقـبـضـ كـلـ وـاحـدـ مـنـاـ مـنـهـاـ شـيـئـاـ يـنـفـقـهـ، وـنـدـفـنـ بـقـيـتـهـاـ مـكـانـاـ حـرـيـزاـ، فـإـذـاـ اـحـتـجـنـاـ إـلـيـهـاـ اـسـتـرـنـاـهـاـ: فـأـجـابـهـ إـلـىـ ذـلـكـ، وـدـفـنـاـهـاـ تـحـتـ شـجـرـةـ عـظـيمـةـ، ثـمـ خـالـفـ إـلـيـهـاـ الـخـبـ فـذـهـبـ بـهـاـ، وـلـقـيـهـ الـمـغـفـلـ فـقـالـ: اـخـرـجـ بـنـاـ إـلـىـ وـدـيـعـتـنـاـ فـلـنـقـبـضـهـاـ؛ فـاـنـطـلـقـاـ إـلـىـ الـمـكـانـ فـاـحـتـفـرـاـهـ فـلـمـ يـجـدـهـاـ، فـجـعـلـ الـخـبـ يـنـتـفـ شـعـرـهـ وـيـلـقـ صـدـرـهـ، وـيـقـولـ: لـاـ يـقـنـ أـحـدـ بـأـحـدـ، رـجـعـتـ إـلـيـهـاـ فـأـخـذـهـاـ. وـجـعـلـ الـمـغـفـلـ يـحـلـفـ أـنـهـ مـاـ فـعـلـ، ثـمـ اـنـطـلـقـ بـهـ إـلـىـ الـقـاضـيـ فـقـصـ عـلـيـهـ الـأـمـرـ، فـقـالـ لـهـ: هـلـ مـنـ يـشـهـدـ: قـالـ نـعـمـ! الـشـجـرـةـ تـشـهـدـ لـيـ بـمـاـ أـقـولـ، فـأـنـكـرـ ذـلـكـ عـلـيـهـ الـقـاضـيـ أـشـدـ الـإـنـكـارـ، وـأـمـرـ بـهـ فـكـفـلـ، وـقـالـ: وـافـونـيـ بـهـ غـدـاـ باـكـراـ، فـاـنـصـرـفـ إـلـىـ أـبـيـهـ وـأـعـلـمـهـ بـذـلـكـ، وـقـالـ: إـنـيـ لـمـ أـقـلـ الـذـيـ ذـكـرـتـ إـلـاـ لـأـمـرـ قـدـ رـوـأـتـ فـيـهـ، فـإـنـ أـنـتـ طـاوـعـتـنـيـ أـحـرـزـنـاـ مـاـ أـخـذـنـاـ، وـأـضـفـنـاـ إـلـيـهـ مـثـلـهـ مـنـ الـمـغـفـلـ، فـقـالـ: وـمـاـ ذـاكـ؟ قـالـ: إـنـيـ قـدـ كـنـتـ تـوـخـيـتـ بـالـدـنـانـيرـ شـجـرـةـ عـظـيمـةـ مـنـ الدـوـحـ جـوـفـاءـ فـيـهـ مـدـخـلـ لـاـ يـرـىـ، فـدـفـنـتـهـ فـيـ أـصـلـهـاـ، ثـمـ خـالـفـتـهـ إـلـيـهـ فـأـخـذـتـهـاـ وـأـدـعـيـتـ

على المغفل^{٢٩}، فأنما أحب أن تذهب الليلة فتدخلها، فإذا جاء القاضي فسألها قلت: «المغفل أخذ الدنانير»، فقال: يا بُنَيَّ، إنه رُبَّ امرئ قد أوقعه تمحُّله في ورطة، فإياك أن تكون كالعلجم الذي أهلكه تحيله.^{٣٠} قال: وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أنَّ علجموماً كان مجاوراً لأسود، وكان لا يدع له فرخاً إلا أكله، وكان وطنه قد وافقه وأعجبه، فحزن لذلك واهتم، ففطن له سلطان، فسألته عن حاله فأخبره به، فقال: ألا أذلك على شيء يُريحك منه؟ قال: بلى! فأشار إليه وقال: انظر إلى ذلك الجُحر، إنه^{٣١} جُحر ابن عرس — وأعلمك عداوته إيه وجوهره — وقال: أجمع سمّاكاً واجعله له سطراً فيما بين مكانيهما، فإنه يأكل الأول فالأول حتى ينتهي إليه فيهلكه، فعل ذلك به فتبعد حتى وجد الأسود فقتله، ثم جعل ابن عرس يخرج من بعد ذلك يتلمس العادة، فلم يزل يطوف حتى وقع على عُش العلجم، فأكله وفراخه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنَّه من لم يتثبت، أوقعه ما يحتال به فيما عسى ألا يخلص منه، قال: قد فهمت ما ذكرت، فلا تهابنَ، فإنَّ الأمر يسير، فلم يزل به حتى أطاعه، واتَّبع رأيه.

فلما انتهى القاضي إلى الشجرة وسائلها، أجابه من جوفها بأنَّ المغفل أخذ الدنانير، فاشتدَّ عجبُه من ذلك، وطاف بها فلم ير شيئاً، فأمر بحطِّ فجُمع، وألقى عليها، وجعل فيه ناراً، فلما دخل عليه الدخان ووصل إليه الوجه، تصرَّ ساعنة ثم صاح، فأخرج بعد ما أشْفَى على الموت، ثم عاقبه القاضي وابنه، فمات الشيخ وانصرف به ابنه يحمله ميتاً، ورجع المغفل وقد أخذ الدنانير وفَلَّاج عليهم.

وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لأنَّ الخديعة والمكر ربما كان صاحبهما هو المغبون، وأنت يا دمنة جامعُ الخصال الرديئة التي وصفت، فكان الذي اجتنبت من ثمرة عملك ما ترى، مع أنني لا أحسُّك تنجو، فإنك ذو لونين ولسانين، وإنما صلاح أهل بيتك ما

^{٢٩} في عبارة الأصل هنا خلل ونقص تداركتاهما من النسخ الأخرى، وعبارة الأصل: «أني كنت تؤحيت أعظم ما أقدر عليه من الروح خوفاً حتى أصيبي».

^{٣٠} محاورة الخبر وأبيه ومثُل العلجم والأسود ليسا في النسخ المصرية ونسخة طبارة.

^{٣١} في الأصل: «انظر جحر ابن عرس ... إلخ»، وقد صحناه بما يوافق سياق الكلام ويُفهم من النسخ الأخرى.

لم يدخل فيه مُفسِد، وبقاء إخاء الإخوان ما لم يَحْتَلْ له مثُلك، فإنَّه لا شيء أشَبَّهُ بك من الحيَّة التي يجري من نابها السم، وقد كنتُ لذلك من لسانك خائفاً مُشَفِّقاً، لقربك مني كارهاً، فإنَّ العُقلاء قد قالوا: اجتَنِب أهلَ الفُجور، وإنْ كانوا ذوي قرابتك، فإنَّ من كان كذلك فإنما هو بمنزلة الحيَّة التي يرقيها صاحبُها ويمسحها، ثم لا يكون له منها إلا اللدغ، وكان يُقال: الزَّمْ ذَا العُقْلَ والكِرْمَ واسترسل إِلَيْهِ، وإِيَّاكَ وفِرَاقَهِ، ولا عليك أَنْ تصحبَ مَنْ لَا جُودَ لَهِ إِذَا كَانَ مُحَمَّدَ الرَّأْيِ، واحترسَ مِنْ سَيِّئِ أَخْلَاقِهِ، وانتفِعْ بِمَا عَنْهُ، ولا تدعْ مُوافِلَةَ السُّخْيِ وإنْ كَانَ لَا نُبْلِ لَهِ، واستمتعْ بِسُخْيَّهِ، وانفعْ بِلُبُّكَ، واهربْ مِنْ الْلَّئِيمِ الْأَحْمَقِ. وأَنَا بِالْفَرَارِ مِنْكَ وَالْتَّنَحِّي عَنْكَ جَدِيرٌ حَقِيقٌ، وكيفَ يرجو إِخْوَانَكَ وفَاعِكَ لَهُمْ، وقد صنعتَ بِمَلِكِ الْذِي شَرَّفَكَ مَا أَرَى؟ وَمَتَّلَّكَ فِي ذَلِكَ قُولُ التَّاجِرِ: إِنَّ أَرْضًا يَأْكُلُ جُرْذَانَهَا مَائَةً مَّنْ مِنْ الْحَدِيدِ، غَيْرُ مُسْتَكِرٍ أَنْ تَخْطُفَ بُزُّاتُهَا الْفِيلَةَ. فَقَالَ دَمْنَةُ: وكيفَ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ كَلِيلَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ مَرِدَاتٍ^{٢٢} تَاجِرٌ مُقْلٌ، فَأَرَادَ الشَّخْوَصَ إِلَى حَاجَةِ لَهِ، وَكَانَ لَهِ مَائَةً مَّنْ مِنْ حَدِيدِ، فَاسْتَوْدَعَهَا رَجُلًا مِنْ مَعَارِفِهِ، وَانْطَلَقَ إِلَى حَاجَتِهِ.

فَلَمَّا رَجَعْ طَلْبَهَا مِنْهُ، وَكَانَ قَدْ بَاعَهَا وَاسْتَنْفَقَ ثُمَّنَهَا، فَقَالَ لَهُ: كُنْتُ تَرْكَتَهَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ فَأَكَلَهَا الْجُرْذَانُ، فَقَالَ لَهُ: لَقِدْ يَلْعَلُنَا أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءًا بِأَقْطَعِ الْحَدِيدِ مِنْ أَنْ يَأْكُلَهُ، وَمَا أَهْوَنَ الْمَرْزِيَّةَ فِي ذَلِكَ إِذَا سَلَّمَكَ اللهُ، فَفَرَحَ بِمَا سَمِعَ مِنْهُ، وَقَالَ: اشْرَبِ الْيَوْمَ عَنِي، فَوَعْدَهُ بِذَلِكَ، وَخَرَجَ فَأَخْذَ ابْنَاهُ لَهُ صَغِيرًا حَتَّى خَبَّأَهُ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَالَا فِي شَأْنِهِمَا حَتَّى ذَكَرَ التَّاجِرَ ابْنَهُ وَافْتَقَدَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ ابْنِي؟ فَقَالَ صَاحِبُ الْحَدِيدِ: لَقَدْ رَأَيْتُ حِينَ دَنَوْتُ مِنْكُمْ بَازِيَاً اخْتَطَفَ غَلَامًا فَلَعِلَّهُ هُوَ فَصَاحِبُ التَّاجِرِ وَقَالَ: يَا مَنْ حَضَرْ! هَلْ سَمِعْتُمْ بِمَثَلِ هَذَا قَطْ؟ فَقَالَ: إِنَّ أَرْضًا يَأْكُلُ جُرْذَانَهَا مَائَةً مَّنْ حَدِيدًا لَيْسَ بِمُسْتَكِيرٍ لَهَا أَنْ تَخْطُفَ بُزُّاتُهَا الْفِيلَةَ، فَقَالَ: أَنَا أَكْلُتُ حَدِيدَكَ، وَسُمَّاً أَدْخَلْتُ جَوْفِي، فَادْفَعْ إِلَيَّ ابْنِي، وَأَرْدُ إِلَيْكَ مَا أَكْلَتُ لَكَ، وَمَا كُنْتَ اسْتَوْدَعْتِي، فَفَعَلَ ذَلِكَ.

إِنَّمَا ضَرَبَتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّكَ إِذَا غَدَرْتَ بِمَلِكِ ذِي الْبَلَاءِ الْحَسَنِ عَنْدَكَ، فَإِنَّهُ لَا شَكَّ فِي صَنْيِعِكَ مِثَلَ ذَلِكَ بِمَنْ سَاوَاكَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْمُوَدَّةِ عَنْدَكَ مَنْزَلَةً وَلَا مَكَافَةً، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَضَبَعَ مِنْ إِخَاءٍ يُمْنَحُ مِنْ لَا وَفَاءَ لَهُ، وَبِلَاءٍ يُضَيَّعُ عَنْدَ مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ، وَأَدِبٌ

^{٢٢} ليس في النسخ الأخرى تسمية الأرض، ولكن فيها: «أرض كذا»، وكذلك تُحَذَّف من النسخ الأخرى كثيُّرُ أسماء البلاد والأشخاص، وفي هذا تمتاز نسختنا أيضًا.



يُستودع من لا يفهمه، وسرٌ يُستكتمه من لا يحفظه، ولستُ في طمَّعٍ من تغيير طبعتك
ولا تحول أخلاقك، فإني قد عرفتُ أنَّ ثمرة الشجرة المرأة لو طُليت بالعَسْل لم تنقلب
عن جوهرها، وقد خفت صحبتك على رأيي وأخلاقتي، فإنَّ صحبة الأخيار تورث الخير،
وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرَّت على النتن حملت نتناً، وإذا مرَّت بالطَّيِّبِ
حملت طيباً.

وقد عرفتُ ثقل كلامي عليك، وكذلك الجَهَال لم يزالوا يستثقلون عقلاهم، واللؤماء
كريامهم، والسفهاء حلماءهم، والمعوجُ منهم المستقيم.
فانتهى كلام كلية إلى هذا المكان، وقد فرغ الأسد من شتربة، وفكَّر بعدما قتله وقد
ذهب عنه الغيط، فقال: لقد فجعني شتربة بنفسه، وقد كان ذا رأي وعقل، ولا أدرى
لعلَّه كان مَبِغِياً عليه، فحزن وندم.

وبُصْرٌ به دمنة، فترك مُحاورة كليلة وتقَدَّمَ إلى الأسد، وقال: قد أظفرك الله أَيُّها الملك، وأهلك عدوك، فما الذي تهتم له ويحزنُك؟ فقال الأسد: لقد أشافتُ على قتل شتيبة لعقله وكرم حُلُقه، فقال دمنة: لا تفعلنَ ذلك أَيُّها الملك ولا ترحم من تخافه، فإنَّ الملك الحازم رُبِّما أبغض الرجل وأقصاه، ثم تکاره عليه، فقرَّبه وولاه لما يعرّفه من غنائمه وفضله، فعلَ المتكاره على الدواء البشع رجاء منفعته ومغبَّته، وربَّما أحبَّ الرجل وأدناه ثم أهلكه واستأصله مخافة ضرره، كالذى تلدغ الحية إصْبَعَه فيقطّعُها مخافةً أن ينتشر السُّمُّ في جسده كله فيقتله، فلَمَّا سمع الأسد ذلك منه صدَّقه وقرَّبه.

ثم ^{٣٣} قال الفيلسوف للملك: فكان في صُنْع دمنة — في صِغرِه وضعفه وهو من أرذل السباع وأحقرها — بالأسد والثور ما شغب به بينهما، وألب كل واحد منهما على صاحبه، حتى قطع وُدُّهما وإخاءهما، من الأعاجيب والعَبَر لذوي الألباب في الاتقاء والحذر لأهل النمية والوهُس، والنظر فيما يزروُون من خديعاتهم ومكرهم ويسعياتهم، وذوو العقول أحقُّ أن يتقووا كذب أولئك ويتجنّبوا عطفهم، ويفحصوا عن هذه الأشياء منهم، ثم لا يقدِّموا على شيءٍ من أقاويلهم إلا عن ثبت وضياء نور، وأن يرفضوا كل من عَرَفُوا مثل ذلك منه؛ فإنه الرأيُ والحزنُ والأخذُ بأمر السعادة إن شاء الله.

^{٣٣} هذه الخاتمة تنفرد بها نسختنا.

باب الفحص عن أمر دمنة^١

قال دَبْشَلِيم ملك الهند لَبِيْدَبا الفيلسوف: قد سمعتُ خبر الواشي المحتال الماهر بالخلابة كيف يُفْسِد — بتشبيهه وتلبيسه — الود الثابت بين المتحابين، فأخبرني إلام آل أمره، وما كانت عاقبته.^٢

قال بيديبا: إنّا وجدنا في الكتب أنَّ الأَسَدَ لَمَا قُتل شتربة، ومرَّ لذكِرِ أَيَامِهِ، خرج النِّمر ذات يوم — وكان يُدعى المعجب الوشِّي، وكان معلمَ الأَسَدِ وأَمِينَهُ وموضع سُرِّه — يطلب قبساً، فاضطربَتِ السماواتِ إلى منزلِ كليلة ودمنة، فلما انتهى إلى الباب سمع كليلة يُعاتب دمنة ويلومه على سوء رأيه وصنعيه، وما ارتكب من شتربة في غير ذنبِ أَنَاهِ إليه، فكان في بعض قوله: إنَّ الذي أُتِيتَ من النَّمِيَّةِ والخِلَابَةِ سَيُظَهِّرُ لِلأسدِ وَيُطَلَّعُ طَلَعَهُ بَعْدَ الْيَوْمِ، ولستَ بِنَاجٍ مِنْهُ إِلَّا بِأَكْثَرِ مَا يُعَاقَبُ بِهِ أَهْلُ الذُّنُوبِ، ولستُ أَنَا أَيْضًا — فيما بعد اليوم — بمُتَّخِذِ خَلِيلًا، ولا مُفْشِ إِلَيْكَ سُرًّا، ولا مُقاَرِيكَ فِي شَيْءٍ، فإنَّ الْعُلَمَاءَ قد قالوا: تباعدُ مَنْ لَا رَغْبَةَ لَهُ فِي الصَّلَاحِ، وإنَّمَا عَمَلَهُ النَّمِيَّةُ والخِلَابَةُ، وكذلك حملَتِ الملكَ على خليلِه البريء الرَّفِيقِ العَالَمِ شتربة، ولم تزلْ بِهِ حَتَّى اتَّهَمَهُ فَقْتَلَهُ.

^١ هذا الباب يُحسب من زيادات النسخة العربية لكتاب «كليلة ودمنة»، فهو لا يُعرف في الأصل الهندي ولا الترجمة السريانية القديمة، ويظُنُّ بعض الباحثين أنَّه لم يكن في الترجمة الفهلوية أيضًا (انظر المقدمة).

^٢ في النسخة السريانية الحديثة يطول سؤال الملك فيتضمن الاستفهام عن موضوع الباب كله: كيف أتُهم دمنة، وكيف دافع عن نفسه، وكيف عُرِفَ أمره، وكيف عوقب؟ ونسختنا أوجز من النسخ الأخرى في هذا السؤال، كما أنها لا تشير في آخر الباب السابق إلى موضوع هذا الباب.

فَلَمَّا سمع النَّمِرُ قولَ كليلة رجع فدخل على أَمِّ الأَسْدِ فحَدَثَهَا الْحَدِيثُ الَّذِي سَمِعَ كُلُّهُ، فلَمَّا أَصْبَحَتْ انطَلَقَتْ إِلَى ابْنَهَا فرَأَتْهَا حزِينًا كَئِيًّا، فلَمَّا عَانِتْ ذَلِكَ مِنْهُ عَرَفَتْ أَنَّهُ لِيُسَّ إِلَّا عَلَى شَرْبَةٍ، فَقَالَتْ: إِنَّ الْأَسْفَ وَاللَّهُمَّ لَا يَرَدَانْ شَيْئًا، وَهُمَا يُنْحَلِّانِ الْجَسْمَ، وَيُذْهَبَانِ الْعُقْلَ، وَيُضْعِفَانِ الْقُوَّةَ، فَأَعْلَمْنِي شَائِكَ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا يُنْبَغِي لِكَ أَنْ تَحْزَنَ لَهُ وَتَخْبِلَ عَنْهُ فَلَسْتُ وَلَا أَحَدُ مِنْ جَنْدِكَ يَخْلُو مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا هُوَ لِقَتْلِ شَرْبَةٍ فَقَدْ اسْتَبَانَ لَنَا وَلَكَ أَنَّكَ رَكِبْتَ ذَلِكَ مِنْهُ ظُلْمًا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ وَلَا غَشًّا وَلَا حَدَّثَ، فَلَوْ كُنْتَ فَكَرْتَ فِي أَمْرِهِ، وَقِسْتَ مَا لَكَ فِي نَفْسِهِ بِمَا تَجَدَ فِي نَفْسِكَ لَهُ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مُعْتَبِرٌ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّ امْرَأًا لَا يَوْدُ أَحَدًا وَلَا يُبَغْضُهُ إِلَّا وَجَدَ لَهُ فِي نَفْسِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَعْلَمْنِي هُلْ تَرَى ضَمِيرِكَ يَشَهِدُ أَنَّ الَّذِي فَعَلْتَ بِشَرْبَةٍ كَانَ عَلَى حَدَّ وَعْدَوَةٍ؟ فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ لَكَ عَدُوٌّ، وَقَدْ أَظْفَرَكَ اللَّهُ بِهِ وَأَرَاحَكَ مِنْهُ، فَدَعِيَ الْحَزَنُ عَلَيْهِ وَالتَّأْسِفُ لِفَرَاقِهِ، فَإِنَّ الْعِدَادَةَ لَا تُسْتَقَالُ، وَإِنْ كَانَ قَلْبُكَ لَا يَشَهِدُ بِعْدَوَتِهِ وَلَا يَذْكُرُ مِنْهُ حَقَّدًا وَلَا مُخَالَفَةً لَكَ، فَأَنْتَ حَرَّيٌ بالْحَزَنِ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَمِّ الْأَسْدِ: مَا زَلْتُ لِشَرْبَةٍ سَلِيمَ الصَّدْرَ، وَاثْقَابًا بِهِ، مُعْجِبًا بِرَأْيِهِ مُحِبًّا لَهُ، مُسْتَرِسًا إِلَيْهِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيَّ لِقْتَلَهُ هُمْ شَدِيدٌ، وَمَا أَنْكَرْتُ مِنْ نَفْسِي لَهُ شَيْئًا قَبْلِ قَتْلِهِ وَلَا بَعْدَهُ، وَإِنِّي لَنَادِمٌ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي، مُتَاهِفٌ لَهُ مُوجَعٌ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَيَّ الرَّأْيُ أَنَّهُ بِرِيءٍ مَا لَطَخَ بِهِ غَيْرُ مَتَّهِمٍ، وَلَكِنْ قُتِلَ لِتَحْمِيلِ الْأَشْرَارِ وَبِغَيْهِمْ وَزِخْرَفَتِهِمُ الْكَلَامُ الْكَاذِبُ. وَلَكِنْ أَعْلَمْنِي هُلْ سَمِعْتَ شَيْئًا أَوْ حَدَّثَكَ بِهِ أَحَدٌ؟ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الرَّأْيُ مُوافِقًا لِإِخْبَارِ الْمَوْتُوقِ بِهِ كَانَ أَسْدًا لِلْبَصِيرَةِ وَأَثْلَجَ لِلصَّدْرِ، وَأَحْرَى أَنْ يُقْدِمَ الْمَرْءُ بِهِ عَلَى غَيْرِ الشَّبَهَةِ وَالشَّكِ.

فَقَالَتْ أَمِّ الْأَسْدِ: حَدَّثَنِي الْأَمْيَنُ الصَّدِيقُ عَنْدَكَ أَنَّ دَمْنَةَ لَمْ يَرْكِبْ مِنْ شَرْبَةِ الَّذِي رَكِبَ مِنْ تَحْمِيلِهِ إِيَّاكَ عَلَيْهِ، إِلَّا لَحَسَدَهُ إِيَّاهُ عَلَى مَنْزِلَتِهِ مِنْكَ، وَمَكَانَهُ عَنْدَكَ؛ فَقَالَ أَمِّ الْأَسْدِ: وَمَنْ خَرَّبَكَ بِهَذَا؟ فَقَالَتْ أَمِّ الْأَسْدِ: قَدْ اسْتَحْفَظْنِيهِ، وَالْمُسْتَكْتَمُ مُؤْتَمِنٌ، وَمَنْ أَفْشَى سَرًا اسْتَوْدَعَهُ فَقَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ بَشَّرُ الْمَنَازِلِ فِي الْمَعَادِ؛ فَقَالَ أَمِّ الْأَسْدِ: لِعْمَرِي لَقَدْ صَدَقَتِ، وَلَكِنْ لِيُسَّ هَذَا مَا يُنْبَغِي أَنْ يُكْتَمَ، بَلْ يَحْقُّ عَلَى صَاحِبِهِ أَنْ يُعْلَنَ، وَيُظَهَّرَ شَهَادَتُهُ عَلَيْهِ، وَيِسْتَكْمَلَ الأَجْرُ فِيهِ، وَلَا يُبْطَلَ حَقًّا عَلَيْهِ — وَلَا سِيمًا فِي دَمِ الْمَظْلُومِ —

فإن الكاتم لجُرم المجرم في وَتَغْ مُبْتَغٍ شركه فيه،^٣ وإنَّ السُّلْطَانَ لَا يُنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَاقِبَ عَلَى الظُّنُونِ وَالشَّهَقَةِ، فَإِنَّ الدَّمَ عَظِيمٌ شَأْنَهُ، وَأَنَا – وإنْ كُنْتُ أَوْطَئُ عَشْوَةً فِي شَتْرَبَةِ – أَكْرَهُ أَنْ أَرْكَبَ مِنْ دَمْنَةِ مَثَلَّهَا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَا يَقِينٍ، وَقَدْ رَمَى إِلَيْكَ مِنْ أَخْبَرِكَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَقَذَفَ فِي عَنْقِكَ. قَالَتْ أُمُّ الْأَسْدِ: صَدِقَتْ، وَلَكِنِي كُنْتُ أَظْنَنُ أَنَّكَ تَسْتَكْفِي بِي فِيمَا حَدَّثْتَنِي بِهِ، فَلَا تَتَهَمِّنِي عَلَيْهِ.

فقال الأسد: ما أنت عندى بمردودة القول، ولا أنت في نفسي بمتهمة، ولا أنا في نصحك بمرتاب، ولكن أحب أن تعلميني من هو ليكون أشفى لصدرى، قالت أم الأسد: فإن كنت عندك كذلك فعاقب هذا الفاجر عقوبة مثلك. قال الأسد: وما عليك أن تخبريني من ذكر ذلك لك؟ فإنه لا مضرّة فيه عليك، فقالت أم الأسد: ضرر هذا على في خلال ثلاثة: أمّا الأولى فانقطاع ما بيني وبين صاحب هذا السر من المودة لإباحثتي بسره، والثانية خيانتي ما استحضرت من الأمانة، وأمّا الثالثة فوجل من كان يسترسل إلي قبل اليوم وقطعهم أسرارهم عنى، ومتنى أفعل ذلك لا يثق بي أحد، ولا يطمئن إلي. فلما سمع الأسد ذلك منها وعرف أنها غير مخبرته باسم من أخبرها قال: الأمر على ما قلت، وما أنا عمّا كرهت بالمعنى، وما يختلف في صدرى الارتباط بنصحك، فأخبريني بجملة الأمر إنذا كرهت أن تخبريني باسم صاحب السر.^٤ فأخبرته بجملة الأمر، وقالت: لست أجهل قول العلماء في تعظيم فضل العفو عن أهل الجرائم، ولكن ذلك إنما هو فيما دون النفوس، أو خيانة العامة التي يقع بها الشر، ويحتاج بها السفهاء عند ما يكون من أعمالهم السيئة، واستغشاش الملك بالأمر الذي يصل خطأ – إن كان فيه – إلى العامة، وكان فيما يُقال: لا ينبعي للولاة استبقاء الخونة الفُجَّارُ أهْلُ الْغَدْرِ وَالنَّمِيَّةِ، والتَّحْيُّلُ وَالْإِفْسَادُ بين الناس، ومن يكرهون صلاهم ولا يرحمونهم لما نزل بهم، وأولى من نفني عن الرعية ما أفسدهم، وساق إليهم ما أصلحهم، القادة المتولون لأمورهم، وأمنت بقتل دمنة حقيق، فإنه كان يُقال: إفساد جُلُّ الأشياء من قِبَلِ خَلَّتِينِ: إذاعة السر، واثتمان أهل الفجور،

^٣ في الأصل: «فإن الكاتم لدم المجرم في رتع منتفع شركه إيهاف فيه»، وهي عبارة محَرَّفة مختلة، وقد صحّناها جهد الطاقة في العبارة التي هنا.

^٤ سقطت من نسختنا الكلمات التي بين «أخبرها» و«فأخبرته»، فتداركتها من شيخو على قدر الضرورة.

وإنَّ الذي أنشب العداوة بينك وبين شترَبةٍ أَنْصَحِ الْوَزَرَاءِ وَخَيْرِ الْأَعْوَانِ حَتَّى قُتْلَتَهُ غَدَرًا، دَمْنَةٌ بِحِيلَتِهِ وَخَلَابَهِ وَمَكْرَهِ وَخِيَانتِهِ، وَقَدْ اطَّلَعَتْ عَلَى مَكْنُونِهِ، وَبِدَا لَكَ مَا كَانَ يَخْفِي عَلَيْكَ، وَعَلِمَتْهُ فِي نَحْوِ مَا تَذَكَّرُ مِنْ حَدِيثِهِ إِيَّاكَ قَبْلَ الْيَوْمِ، فَالرَّاحَةُ لَكَ وَلِجَنْدُكَ — إِذْ ظَهَرَ لَكَ مِنْهُ مَا يَكْتُمُ — قَتْلُهُ عَقْوَبَةً لِجَرِيمَتِهِ، وَإِبَقاءً عَلَى جَنْدَكَ مِنْ شَرِّهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى مُثْلِهَا بِمَأْمُونٍ، وَلَعْلَكَ أَيُّهَا الْمَلَكُ أَنْ تَرْكَنَ إِلَى مَا آثَرَتْهُ مِنَ الْعَفْوِ عَنْ أَهْلِ الْجَرَائِمِ، فَإِنَّ رَوَّاتِ فِي ذَلِكَ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ جُرْمَهُ جَرَمَ دَمْنَةَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسْدُ ذَلِكَ نَادَى فِي جَمَوعَهُ، فَحَضَرُوا وَأَتَيَ بِدَمْنَةَ، وَنَكَسَ الْأَسْدُ مُسْتَحِبِّيَا مَا رَكَبَ مِنْ قَتْلِ شَتَرَبَةَ، فَلَمَّا رَأَى دَمْنَةَ ذَلِكَ قَالَ لِبَعْضِ مَنْ يَلِيهِ مُتَجَاهِلًا: مَا لِي أَرَى الْمَلَكَ مُكْتَبًا مَهْمُومًا؟ هَلْ حَدَثَ أَمْرٌ جَمَعَكُمْ لَهُ؟ فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ أُمُّ الْأَسْدِ قَالَتْ مُجَبِّيَةً لَهُ: الَّذِي كَرَبَ الْمَلَكَ بِقَوْكَ حَيَّا إِلَى الْيَوْمِ — مَعَ عَظِيمِ حَدَّثِكَ وَجُرْمِكَ — أَيُّهَا الْغَادِرُ الْكَذُوبُ! قَالَ دَمْنَةُ: وَمَا الَّذِي جَنَيْتَ مَا يُسْتَحْلِّ بِهِ قَتْلِي وَيُكَرِّبُ الْمَلَكَ بِقَائِي؟ قَالَتْ أُمُّ الْأَسْدِ: أَعْظَمُ الْحَدَثِ حَدَّثِكَ، وَأَشَدُّ الْخِيَانَةِ خِيَانتِكَ، وَاسْتَجَهَا الْمَلَكُ، وَقَتَلَكَ الْبَرِيءُ مِنْ وَزَرَائِهِ. قَالَ دَمْنَةُ: إِنْ تَصْدِيقَ مَا كَانَ يُذَكَّرُ قَدْ حَضَرَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: مَنْ اجْتَهَدَ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ أَسْرَعَ إِلَيْهِ الشَّرِّ، وَلَا يَكُونُ الْمَلَكُ وَجْنُودُهُ الْمُثَلُ السَّوْءِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ قَلِيلٌ فِي صَحْبَةِ الْأَشْرَارِ أَنَّهُ مَنْ صَحْبُهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَنْجُ مِنْ شَرِّهِمْ، وَلَذِكْ رَفْضُ أَهْلِ الدِّينِ وَالنَّسْكِ الدُّنْيَا وَلِذَّتِهَا، وَاخْتَارُوا الْوَحْدَةَ وَتَرَكُوا مُخَالَطَةَ النَّاسِ وَمُحَاذِثَتِهِمْ؛ لَمَا يَرَوْنَ فِيهَا مُؤَاخِذَةَ الْأَبْرَارِ بِأَعْمَالِ الْفَجَارِ، وَإِثَابَةَ الْفَجَارِ بِأَعْمَالِ الْأَبْرَارِ، وَأَثَرُوا الْعَمَلَ اللَّهُ عَلَى الْعَمَلِ لِخَلْقِهِ؛ لَأَنَّهُ لِيُسَأَّلُ أَحَدٌ يَجْزِي بِالْخَيْرِ حِيرًا إِلَّا اللَّهُ، وَأَمَّا مِنْ دُونِهِ فَقَدْ تَجْرِي أَمْرُهُمْ فُنُونًا يَغْلِبُ عَلَى أَكْثَرِ ذَلِكَ الْخَطَأِ، وَمَا أَحَدٌ أَحَقُّ بِالصَّفَاتِ الْجَمِيلَةِ مِنَ الْمَلَكِ الْمُوْفَّقِ الَّذِي لَا يُصَانِعُ أَحَدًا لِحَاجَةِ بِهِ إِلَيْهِ، وَلَا لِعَاقِبَةٍ يَتَحَوَّفُهَا مِنْهُ، فَإِنَّ أَحَقَّ مَا عَظَمْتُ فِيهِ رَغْبَةَ الْمُلُوكِ مِنْ مَحَاسِنِ الصَّوَابِ الْمُكَافَأَةِ لِأَهْلِ الْبَلَاءِ الْحَسَنِ عِنْهُمْ،^٦ وَمِنْ يُرْقَى إِلَيْهِمْ نَصِيحَتِهِ، وَهَذَا أَقْرَبُ مِنْ أَمْرِي وَأَشَبَهُ فِيمَا حَمَلْنِي النَّصْحُ لِلْمَلَكِ، وَالْإِثْيَارُ لِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَالنَّظَرُ لِلْعَامَّةِ مِنْ إِعْلَانِ سُرِّ الْخَائِنِ الْكُفُورِ، وَمَا كَانَ رَبِّصُ فِي نَفْسِهِ

^٥ وضع اسم الإشارة موضع الضمير في قوله: «فُنُونًا يَغْلِبُ عَلَى أَكْثَرِ ذَلِكَ الْخَطَأِ». يُشبِّه التعبير الفارسي.

^٦ كان في الأصل: «رَغْبَةُ الْمَلَكِ» بالإفراد مع إعادة الضمير جمعًا فيما بعده، وليس هذا بعيديًا من أسلوب الكتاب وأساليب الفرس، ولكن لم تتحقق بعبارة الكتاب لكثرتها تحريفها فغيّرنا كلمة «الملك» إلى «المملوك» مجازاً للنسخ الأخرى، ولعلها كانت في الأصل «السلطان» وهو يستعمل جمعاً في هذا الكتاب.

وارتفعت إليه همته من الغدر بالملك والوثوب عليه، وقد كان استبان للملك، الذي كان منطويًا عليه ومُضمِّنًا له من العداوة والغل، بالأمارات **البيئات** الواضحة التي لا تحتاج معها إلى غيرها بالذى لقيه به حين لقيه وثارَّه، ولم يأت إليه شيئاً إلَّا عن بصيرة، وإن هو أيضًا تحريَ الأمر وسأله عنه ونظر فيه عرف مصدق ما كنْتُ قلتُ له، فإن النار التي تكون في الحجر والعود إنما تُستخرج بالحيل، وليس يخفى مثل ذلك، فإن جُرم المرأة إذا فُحص عنه وفُتنَش ازداد استنارة واستبانة، كما أنَّ كل نَّثْنٍ من حَمَاءٍ وغيرها إنما تُورَّت ظهر ريحها وقدرها، ولقد علم الملك ومن حضر أَنَّه لم يكن بيدي وبين الثور أمرٌ أضطغنه عليه ولا أبغيه به غائلة، وما كان يملك من ضرٌّ ولا نفعٌ لي، ولقد كان الملك — فيما أعلمته من أمره حتى أبصر مصادقه — أفضل رأيَا وأشد عزماً، وإنني لأعرف أنه يتخوف منها مني غير واحدٍ من أهل الغشِّ والعدوان والعداوة للملك، فنصبوا لصيبي واجتمعوا على هلاكي.

فلما سمع الأسد قوله ارتاب به، فأخرجه وأمر بالفحص عنه ورفعه إلى القضاة لينظروا في أمره، فسجد دمنة للملك وقال: أيها الملك، لست بحقيقٍ بمعاجلة أحدٍ بالعقوبة عن قول الأشرار دون الفحص والتثبت، وإنني لواشقُ عن فحشك ببراءتي وتصديق مقالتي، وقد قالت العلماء: إنَّ من استخرج النار من الحجر — وهي كامنةٌ فيه — كالقادر أن يستخرج بالفحص وطول البحث ما خفيَ عليه من الأمور، ولو كنت مجرماً سرَّني تركُ التفتيش عنِّي، ولما كنت مُرابِطاً بباب الملك، ولو كنت مذنبًا هربتُ في الأرض وكان لي فيها مذهب، ولكن — لثقتي ببراءتي ونصيحتي — لم أُبرحه ولم أفارقَه، وأنا أرغب إليه — إن كان في شك من ذلك — أن يأمر بالنظر فيه، ويكون من يوليَّه إياه ذا أمانة وإسلام^٧، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يكون عنده محاباة لأحدٍ ولا غمزه، ويرفع إليه عذرِي وما يسمع من غيري فينظرُ فيه ولا يأخذه فيه أقوايل البُّغَة علىَ الحسدة لي؛ فإنه قد كانت لي منه منزلةٌ أناقُسُها وأحسَدُ عليها، فإنَّه لم يفعل ذلك فيَّ، ويكن رأيه عليه، فلا مؤمَّل لي ولا منجى إلَّا الله الذي يعلم سرائر العباد وخفى صَمِيرهم. ولعلَّ الآءُ تكون بذلك أضرَّ منه، وقد كان يُقال: إنَّ الذي يعمل بالشبهة ولا يتَّهَّدُ عندها ولا يتثبت

^٧ كلمة «إسلام» ليست في النسخ الأخرى، ولعلها من سهو واضح هذا الباب، وربما تعدُّ من الأدلة على أن هذا الباب موضوع في العربية ابتداءً (انظر المقدمة).

فيها يكون قد صدّق ما ينبغي أن يُشكّ فيه، وكذب ما ينبغي أن يُصدقّه، فيكون أمره كأمر المرأة التي بذلت نفسها لعبدتها حتى فضحتها. قال الأسد: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: كانت بأرض كشمير مدينة تسمى برود، وكان فيها تاجر يُقال له كيبرغ،^٨ وكانت له امرأة ذات حُسن، وكان له جار مصوّر، وهو صديق لها، فقالت له المرأة في بعض أحيانها التي كان يأتيها فيها: إن استطعت أن تصنع شيئاً يكون علامة بيني وبينك أطلع بها على مجيك إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمي ولا شيء يُرتاب به، رفق ذلك بك وببي، قال المصوّر: نعم، ملأة بلقاء، بياضها كضوء القمر، وسودادها كسوداد الحدة، فإذا رأيتها فاخرجي فهي آية بيني وبينك. فأعجبها ذلك وفرحت به، وكان يأتيها في تلك الملاءة متى أراد، وسمع عبد التاجر حديث الملاءة، وكان لأمة المصوّر صديقاً، فطلب العبد إلى أمة المصوّر أن تُعيّره الملاءة التي له ليريها صديقاً له ويُسرع ردها — وكان المصوّر غائباً في دار الملك — فأعطيته إياها ولم ترتب بشيء من شأنه، فأخذها ومضى إلى سيدته ليلاً، فلم ترتب به لما رأتها عليه، فظننته صديقها المصوّر فبذلت له نفسها، وقضى حاجته، ورجع العبد بها إلى الأمة فوضعتها في موضعها، ولما مضت هدأة من الليل رجع المصوّر إلى بيته فلبسها، ثم أتى المرأة، فلما رأته دنت منه وقالت له: ما شأنك؟ لقد أسرعت العودة بعد قضاء حاجتك. فلما سمع كلامها عرف أنه قد ذُهي، ومضى من وقته إلى ولدته فأوجعها ضرباً، فحدّثته الحديث فأخذ الملاءة فخرقها وأحرقها.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لثلا تعجل لأمر فيه تشبيه وكذب، فإنَّ الكذب مُعِنْتُ لصاحبِه، وأنَّ بالنظر في أمري جدير، ولست أقول ما تسمع شفقاً من الموت، فإنه — وإن كان كريهاً — لا منجى منه ولا محيس عنه، ولو كنتُ أعلم لي مائة نفس، أعلم هواه في تلفها، جدتُ بها له، فقال بعض جلساء الملك: لم تتطق بهذا الحبُّ الملك ولا لكرامته عليك، ولكن ذلك للدفع عن نفسك، ولطلب الخلاص من الورطة التي قد لزمنتك، والتماس العذر مما وقعت فيه؛ فأقبل عليه دمنة فقال: إني إن كنتُ كما ذكرتَ، فلستُ أَجِدُّني مخصوصاً ولا ملوماً على دفع البلاء عن نفسي ما استطعت، والتلمس البراءة لها، وجّر العافية إليها، ولا أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه، ولا أولى بنصحها وإظهار عذرها منه،

^٨ في نسخة شيخو اسم المدينة: «تأثيرون»، واسم التاجر: «حبل»، وليس في النسخ الأخرى العربية تسمية المدينة ولا التاجر، واسم التاجر في السريانية: «بكيزيب».

فَأَمَا أَنْتَ فَلَكُ الْوَيْلُ بِمَا أَظْهَرْتَ مِنْ ضَعْفٍ عَهْدَكَ وَوَدْكَ لِنَفْسِكَ وَسُوءِ حَالِهَا عِنْدَكَ وَأَنْكَ عَدُوُّهَا فَمَنْ دَوَاهَا أَوْلَى، وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْمُسْتَهِجِنَ لِنَفْسِهِ الْمُبِغْضَ لَهَا، لِغَيْرِهَا أَشْنَأُ وَأَقْطَعُ، وَلِنَسَاها أَغْشُ وَأَرْفَضُ، وَمَا أَنْزَهَ الْمَلِكُ عَنْ صَحْبِكَ، بَلْ أَجْدَنِي مِنْهُ لِلْبَهَائِمِ عَنْ أَخْلَاقِكَ، مَكْرُومًا لَهَا عَنْ خَلْطَتِكَ. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ دَمْنَةَ لَمْ يُحْرِجْ جَوَابًا، فَقَالَتِ أُمُّ الْأَسْدِ: إِنَّ مِنَ الْعَجْبِ انْطَلَاقُ لِسَانِكَ بِالْقَوْلِ مُجِيبًا لِمَنْ تَكَلَّمُ، وَقَدْ كَانَ مِنْكَ الَّذِي كَانَ، فَقَالَ دَمْنَةُ: فَعَلَامَ تَنْتَظِرِينَ بَعْدَنِ وَاحِدَةٍ وَتَسْمِعِينَ بِأَذْنِ وَاحِدَةٍ؟ وَلِذَلِكَ شَقِيْ جَدِّيْ، مَعَ أَنِّي أَرِي كُلَّ شَيْءٍ تَغْيِيرًا وَتَنْكِرًا، فَلَيْسَ أَحَدٌ يُنْطِقُ بِحَقٍّ وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْهُوَى، وَمِنْ بَيْبَابِ الْمَلِكِ – لِثَقْتِهِمْ بِلِيْنِهِ وَطَمَائِنِتِهِمْ إِلَى كَرْمِهِ – لَا يَتَقَوَّنُ ذَلِكَ فِيمَا وَافَقَ الْحَقَّ أَوْ خَالِفَهُ؛ لَأَنَّهُ لَا يَغْيِيرُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَبْدُهُمْ وَلَا يَزْجُرُهُمْ؛ فَقَالَتِ أُمُّ الْأَسْدِ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْفَاجِرِ الَّذِي يَرْكِبُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ، ثُمَّ هُوَ يَأْخُذُ بِأَعْيُنِ النَّاسِ لِيُبَطِّلَهُ وَيُبَرِّئَ نَفْسَهُ مِنْهُ. قَالَ دَمْنَةُ: إِنَّ صَاحِبَ مَا ذَكَرْتَ مِنْ يُذْبِعِ السَّرَّ وَلَا يَدْفَنُهُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي يَلْبِسُ لِبَاسَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْبِسُ لِبَاسَ الرَّجُلِ، وَالضَّيْفُ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْبَيْتِ، وَمِنْ يُنْطِقُ فِي الْمَجْمَعِ عِنْدَ الْمَلِكِ بِمَا لَا يُسْأَلُ عَنْهُ؛ فَقَالَتِ أُمُّ الْأَسْدِ: أَمَا تَعْرِفُ سَوْءَ عَمَلِكَ فَتَحْذِرْهُ، وَتَبَصِّرُ غَرَّ قَوْلِكَ فَتَنْتَقِيَهَا؟ فَقَالَ دَمْنَةُ: إِنَّ الَّذِي يَرْكِبُ الْمُنْكَرَ لَا يُحِبُّ لَأَحَدٍ خَيْرًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ مَكْرُوهًا. قَالَتِ أُمُّ الْأَسْدِ: أَيْهَا الْفَاجِرُ، إِنَّكَ لِتَجْتَرَى عَلَى مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ عِنْدَ الْمَلِكِ! عَجَّبًا لِهِ كِيفَ تَرْكَ حَيَاً! فَقَالَ دَمْنَةُ: إِنَّ صَاحِبَ مَا وَصَفَتِ الَّذِي يَؤْتَى بِالنَّصِيحَةِ، وَيَمْكُنُ مِنْ عَدُوهُ، فَإِنَّا إِسْتَمْكَنَ مِنْهُ قَتْلَهُ، ثُمَّ لَا يَشْكُرُ ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنْ فَعْلِهِ، وَيُرِيدُ قَتْلَهُ بِغَيْرِ ذَنْبِ اجْتِرَاهُ. فَقَالَتِ أُمُّ الْأَسْدِ: أَيْهَا الْكَانِبُ، أَتَرْجُو أَنْ تَنْجُو مِنْ ذَنْبِكَ الْعَظِيمِ؟ فَقَالَ دَمْنَةُ: إِنَّ أَهْلَ مَا ذَكَرْتَ الَّذِي يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ، وَإِنِّي نَطَقْتُ بِالْحَقِّ، وَجَئْتُ عَلَيْهِ بِالثَّبَّتِ وَالْحُجَّةِ، فَقَالَتِ أُمُّ الْأَسْدِ: مَا الَّذِي كَنْتَ قَلْتَ، وَمَا الَّذِي صَدَقْتَهُ بِهِ؟ فَقَالَ دَمْنَةُ: الْمَلِكُ يَعْلَمُ أَنِّي لَوْ كَنْتُ كَانِبًا لَمْ أَقْلُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عِنْهُ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَسْتَبِينَ لِهِ صَدْقَتِي وَبِرَاءَتِي وَصَحَّةِ مَا قَلْتَ؛ فَلَمَّا رَأَتِ أُمُّ الْأَسْدَ أَنَّ الْأَسْدَ لَا يُنْطِقُ بِشَيْءٍ فِي أَمْرِ دَمْنَةَ شَكَّتْ فِي أَمْرِهِ وَقَالَتِ: لَعْلَهُ مَكْذُوبٌ عَلَيْهِ فِيمَا رُمِيَّ بِهِ، فَإِنَّ الْعَتَدَرَ عِنْدَ الْمَلِكِ بِمَحْضِرِ الْجَنْدِ – لَا يُرُدُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ مَنْطِقَهُ – لَشَبِيهِ بِأَنْ يَكُونَ مُحِقًا فِيمَا تَكَلَّمُ بِهِ.

فَأَمْرُ الْأَسْدِ عِنْدَ ذَلِكَ بِدَمْنَةِ فُقْدَزْتَ فِي عَنْقِهِ جَامِعَةً ثُمَّ حُسِّسَ، وَأَمْرٌ بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِهِ؛ فَقَالَتِ أُمُّ الْأَسْدِ: لَقَدْ بَلَغْنِي عَنْ هَذَا الْفَاجِرِ الْكَذَابِ شُرُّ مَا يُقَالُ عَنْ أَحَدٍ، وَتَتَابَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ، وَهُوَ لِهِ مُحِيلٌ، وَلَيْسَ يَخْفِي أَمْرَهُ عَلَيَّ، وَالَّذِي ذَكَرَهُ لِي الْأَمْيَنُ الصَّدُوقُ، فَلَيْسَ تَرْجُحُ

منه ولا يناظره، فقال الأسد: اسكتي عنِي واهديَيْ، فإني ناظرٌ في أمره وفاحصُ عنه، وغير عاجلٍ عليه، ولا أشتري ضرًّا نفسي باتباع هوى غيري من لا أدرى ما صدقه من كذبه، مَنِ الذي وصفتِ؟ فسمّيَه لي، فقالت أمُّ الأسد: هو خليلك ومُؤْدِبُك وأمينك النمر، فقال الأسد: بحسبكِ! سترين ما أصنع به وآمُّ فيه، فانصرفي؛ فلما ذهبت هدأةً من الليل بلغ كليلة أنَّ دمنة قد حُبس واستوثق منه، فانطلق إليه يهمس همساً، فلما رأه موثقاً بكي بكاءً شديداً، وقال: قد بلغ الأمر يا أخي إلى ما لا أبالي ألاً أعلظ لك معه في الكلام، ولا أستقبلك بما تكره منه، وإنَّ ليخطر بيالي ما كنتُ أشير به عليك، ولقد كنتُ رأيت ذلك وأبلغتُ في الموعظة، فلم تقبل مني ولم تأخذ به لعجبك برأيك، فوينُ لحلنك وفطنتك! لقد ضلَّا عنك ونُزعاً منك وذهباً مع حياتك ضياعاً، فقال دمنة: إنك لم تزلَ تتكلم بالحقٍ وتتأمر به، ولكن لم أسمع منك لما كان فيَّ من الشرَّ والشهوة، ولما كُتب علىَّ من البلاء، ولولا ذلك كان فيما وعظتني به ما مثله أنتهي إليه وأنتفع برأيك فيه، قالت العلامة: إنَّ الذي لا يسمع من إخوانه ونصحائه يصير أمره إلى التَّدَامَة، وقد حلَّ ذلك بي: ولكن ما عسيتُ أن أصنع؟ فإنَّ الحرص وطموح العين يغلبان رأيِّ الحليم ونظر العالم؛ كالملريض الذي قد عرف أنَّ شهوته من الطعام مُضرةٌ به مُشدَّدةٌ للوجع عليه، فلا يدع تناولها والإصابةَ منها، فيزدادُ مرضًا ولعلَّه يموتُ منه، ولستُ أحزنَ اليوم على نفسي، ولكن عليك؛ لأنَّي أخافُ أن تؤخذ فيَّ بسببِ الذي بيني وبينك من القرابة، فتعذَّب فلا تجد من إطلاعهم على أمري بَدَأ، فأقتل بإظهارك سرِّي وتصديقهم إياك علىَّ. فقال كليلة: قد فَكَرَتُ في ذلك، وليس يُعدَّ بالحياة شيءٌ، وقد يُضطرُّ الرجل إذا نزل به البلاء إلى أن يقرِّ نفسه بما لم يفعل ولم يعلم رجاءَ الحياة والتخفيف عنه، وقد قالت العلامة: إنَّه من أريدت مهجته لأمر يُسأَل عنه، غيرُ مقتصر على ما كان، ولكنه قائلٌ ما لم يكن إشفاقاً عليها، فالذي وجَّلت منه نفسُك علىَّ هو ما حاذرت، وقد طال مقامي عندك، وأنا منطلق خيفة أن يدخل أحدَ فيرانِي عندك أو يسمع تحاورنا مستمع، وأنا أشير عليك أنَّ تعترف بجُرمك وتبوح بذنبك، فإنك ميتٌ لا محالة، وإنك إنْ تُقتل في الدنيا بما كان منك خيرٌ لك من العذاب الدائم في الآخرة مع الأئمَّة الفُجَّار. قال دمنة: قد صدقتَ فيما ذكرتَ، ولكنَّ العمل به شاقٌّ، ولكنني غيرُ مُحِيرٍ كلاماً حتى يُفرق في أمري، ثم إنَّ كليلة انطلق إلى منزله فوقَ في همٍّ وحزنٍ مخافةً أن يؤخذ بذنب دمنة، فاستطُلَّ بطنُه فمات في ليلته.

وكان في السجن سبعَ، وكان نائماً قريباً من كليلة ودمنة حيث اجتمعا في السجن، فاستيقظ بكلامها، فسمع جميع ما تحاورا فيه وتراءعا بينهما، فحفظ ذلك وكتمه.

ثم إنَّ أَمَّ الأَسْد دخلتْ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَتْ: اذْكُرْ الَّذِي وَعَدْتَنِي الْبَارِحةَ فِي أَمْرِ هَذَا الْفَاجِرِ، وَقَوْلِكَ لِجَنْدِكِ: إِنَّهُ لِيَنْبَغِي لِلمرءِ أَنْ يَعْمَلْ بِالْتَّقْوَى وَلَا يَتَوَانَى فِي ذَلِكِ، وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ أَمْرًا أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْاسْتِرَاحَةِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْمُعْنَى لِذِي الْأَثَامِ عَلَى خِيَانتِهِ شَرِيكُ لَهُ فِي أَعْمَالِهِ، فَأَمَّا أَسْدُ النَّمَرِ وَالْقَاضِي أَنْ يَجْلِسَا وَيَدْعُوَا بِدَمْنَةَ عَلَى رِءُوسِ الْجَنْدِ، ثُمَّ يَسْأَلُ عَنْهُ، وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ الَّذِي يَذَكُرُونَ لَهُمَا مِنْهُ^٩ وَجَوَابِهِ إِيَاهُمْ فِيهِ، وَلَا يَدْعُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا أَنْهِيَاهُ إِلَيْهِ، فَخَرَجَا لِذَلِكَ وَجْمَعَا الْجَنْدَ، وَبَعْثَوْا إِلَى دَمْنَةَ، فَلَمَّا أَتَيَ بِهِ تَوْسُّطَ مَحْفَالِهِمْ، فَانْتَصَبَ النَّمَرُ قَائِمًا وَجَهَرَ بِصَوْتِهِ، وَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُمْ، مَعْشِرُ الْجَنْدِ، مَا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ مِنَ التَّأْلُمِ بِقَتْلِ شَرِبَةِ وَالتَّوْجُعِ لَهُ، وَلَمْ يَزُلْ مَهْمُومًا حَزِينًا وَجَلَّا أَنْ يَكُونَ دَمْنَةَ شَبِّهَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ، وَأَرْهَقَهُ فِيهِ مَيْنَانًا وَبَاطِلًا، وَأَحَبَّ أَنْ يَسْتِيقَنَّ ذَلِكَ، وَقَدْ نَصَبُنَا لِلنَّظَرِ فِي أَمْرِهِمَا، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ لَا تَكْتُمُوهُ سَرًّا وَلَا تَدْخِرُوهُ عَنْهُ نُصْحًا، وَلَا تُخْفُوهُ عَلَيْهِ حَرْفًا، وَلِيُقْلِّ كُلُّ امْرَءٍ مِنْكُمْ مَا يَعْلَمُ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَفْرُطَ بِعَقْوَةِ أَحَدٍ لِهَوَى مِنْهُ أَوْ لِغَيْرِهِ فِي ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ اسْتِيَاجَابٍ مِنْهُ لِلْعَقْوَةِ.

فَقَالَ الْقَاضِي: انْظُرُوا مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الْأَمْمَيْنِ فَاتَّبِعُوهُ، وَقَدْ سَمِعْتُمُ الَّذِي قَيَّلَ لَكُمْ، فَلَا يَكُتُّنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا عَلِمَهُ لِثَلَاثٍ حِلَالٍ: أَمَّا وَاحِدَةُ الْفَالِصَدْقِ فِيمَا اسْتَشَهِدْتُمْ بِهِ، وَأَلَا تَجْعَلُوْا الْعَظِيمَ مِنَ الْأَمْرِ فِي الْحَقِّ صَغِيرًا، وَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَكْرُهُوْا وَقَوْعَةُ الْقَضَاءِ عَلَى مَا وَافَقُكُمْ أَوْ خَالِفُكُمْ، وَلَا تُصْغِرُوْا مِنْهُ شَيْئًا، وَأَوْيُ عَظِيمٍ أَعْظَمُ مِنْ سَرِّ عُورَةِ مِنْ أَفْرَطَ الْأَخِيَّارِ وَاسْتَرَلَهُمْ بِوَسْبِيْهِ وَكِيدَهِ: فَالْكَاتِمُ عَلَيْهِ غَيْرُ بَرِيءٍ مِنْ مَضَّرَّةِ حِيلَتِهِ، وَلَا بَعِيدٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرِيْكًا لَهُ فِي عَمَلِهِ، فَإِنَّ يَسِيرَ الْحَقُّ عَظِيمًا، وَأَفْطَعَ مِنْهُ عَنْدَ اللَّهِ أَنْ يُقْتَلَ بَرِيءٌ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ لِنَمِيَّةِ فَاجِرٍ كَذَابٍ. وَالثَّالِثَةُ أَنَّ عَقْوَةَ الْمَذْنَبِ بِذَنْبِهِ مَقْمُعَةٌ لِأَهْلِ الرِّبِّيَّةِ، وَمَصْلَحةُ الْمَلِكِ وَالرَّعْيَةِ. وَالثَّالِثَةُ أَنَّ الْأَشْرَارَ إِذَا قُتِلُوْا وَنَفُوا مِنَ الْأَرْضِ كَانُوا فِي ذَلِكَ رَاحَةً لِلْمَلِكِ وَالرَّعْيَةِ وَصَلَاحُهُمْ. فَلِيُقْلِّ كُلُّ امْرَءٍ مِنْكُمْ مَا يَعْلَمُ، كَيْمًا يَكُونَ الْقَضَاءُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْحَقِّ لَا عَلَى الْهَوَى وَالْبَغْيِ، فَرَمَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَأَطْرَقُوا مَلِيًّا لَا يُحِيِّوْنَ كَلَامًا؛ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا مِنْ أَمْرِهِ عَلَمًا وَاضْحَى يَتَكَلَّمُونَ بِهِ، وَكَرِهُوْا القَوْلُ بِالظُّنُونِ تَخُوفًا أَنْ يَفْصِلَ قَوْلَهُمْ حُكْمًا، وَيَوْجِبَ قَتْلًا.

^٩ إن لم تكن «منه» محرفة عن «عنه» فهي ترجمة الكلمة الفارسية «أَنْ» التي تأتي بمعنى من وعنه، وتستعمل في مثل هذا التركيب [انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر)].

قال دمنة: ما يُسِّكتكم؟ ليُقل كل امرئٍ منكم ما يعلم، واعلموا أنَّ لكل قرية ثواباً إما عاجلاً وإما آجلاً، ولا بدَّ أن تقولوا في أمري بعلمكم، ولعلم كل متكلِّم منكم أنَّ منطقه في قوله حُكْم في إحياء نفس أو موتها، واعلموا أنَّ من قال ما لم يَرَ، وادعى علم ما لم يعلم أصحابه ما أصاب الطبيب الجاهل المتتكلف. فقال له القاضي: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنَّه كان في مدينة من مدائن السند^{١٠} طبيب عالمٌ رفيقٌ فمات، فنظروا في كتبه؛ فكانوا ينتفعون بها ويتعلمون منها، فأتاهم رجلٌ زعم أنه طبيب وأنَّ له رفقاً ولم يكن كذلك، وكانت للكهم ابنة كريمة عليه وكانت حاملاً، فأصابها بطُن فجعلت تُحْسِن الأعراض، فبعث الملك في طلب الأطباء فأتت رسلاه رجلاً منهم كان له علم على رأس فرسخ، فوجدوه قد عَمِيَ فوصفو له وجع ابنة الملك، فأمرهم أن يسوقوها دواء يُقال له زامهران، فرجعوا إلى الملك فأخبروه بذلك، فأمر أن يُطلب طبيب ليهيء ذلك الدواء، فأتاه الرَّجل الجاهل فأخبره أنه عالمٌ عارفٌ بالأدوية وأخلاقها، فدعا الملك بالأسفاط التي فيها أدوية الطبيب، فوضع بين يديه، فأخذ من أحدها صَرَّة فيها سُمٌّ فجعل منها ومن غيرها زامهران، فلما رأى الملك سُرعة فراغه من ذلك ظنَّ أنه عالم، فأمر له بحلٍّ وكسوة حسنة، وسقى الجارية منه فلم تثبت أن تقطَّع أمعاؤها فماتت، وأمر أبوها فُسقيَ الطبيب من الذي صنع لها من الأدوية فهلك.

وإنما ضربتُ هذا المثل في جماعتكم كيلاً تتكلموا بما لم تعلموا – تلتمسون به رضا غيركم – فيصيِّبكم ما أصاب ذلك الطبيبَ الجاهل؛ فإنَّ العلماء قد قالوا: إنما جزاء كل أحدٍ بقوله وفعله، وأنا بريءٌ مما لُطخت به، قائمٌ بين أيديكم؛ فتكلم سيد الخنازير^{١١} إدلاً بمتنزلته من الأسد وأمه فقال: اسمعوا عشر الجنود، وتفكروا فيما أقول لكم؛ فإنَّ العلماء لم يَدَعُوا شيئاً من آيات الأسرار والأخبار إلا قد أثبتوه، وإنَّ علماء الفجور في هذا الشقِّي ظاهرةٌ، وقد طار له مع ذلك نثَّا سوءٌ؛ فقال عظيم الجنود لرؤس الخنازير: قد سمعنا ذلك، وقليلٌ من يعرفه، فأعلمنا ما الذي رأيتَ في هذا البائس، فقام

^{١٠} في النسخة السريانية الحديثة: «في مدينة ساحلية من مدن الحبشة»، ونسخة شيخو توافق نسختنا، وليس في النسخ الأخرى تسمية المكان.

^{١١} في شيخو والسريانية: «فتكلم صاحب المائدة»، وفي ابن الهبارية: «الخبار»، وفي النسخ الأخرى: «سيد الخنازير»، واتفقت النسخ على أنه صاحب المائدة، ونحسب أنَّ عمله هذا قد يَسِّرَ أن تحرَّفَ «الخنازير» إلى «الخَبَازِين» والكلمتان مُتشابهتان خطأً.

رأس الخنازير وأخذ بيد دمنة وقال: إنَّ في كتب العلماء أنَّ من كانت عينُه اليسرى صغيرة كثيرة الاختلاج، وأنفه مائلًا إلى شقَّة الأيمن، وما بين حاجبيه من الشعر متبعاً، ومنابت شعره ثلاثة شعرات ثلاثة شعرات، وإذا مشى نكس ولا يزال ملتفتاً إلى خلفه، فإنه صاحب نسمة وفجور وغدر، وهذه العلامات كلُّها بيَّنة في هذا الشقي؛ فقال دمنة: نحن كلنا تحت السماء ولسنا فوقها، وأنتم ذوو الأحلام وتقيسون بالعلم الكلام، وقد فهمتهم ما قال فاستمعوا منِّي، فإنه يظن أنه لا أحد أعرف بالأمور منه، وأنه لا علم إلا عِلْمُه، وإن كان ما ذكر من العلامات حَقّاً، فلا أسمع أنَّ أحداً يقدر على أن يعمل خيراً ولا شرراً إلا بها، وإنما تجازُون بذلك وتعاقبون عليه، وليس لامرئ من رأيه شيء، فليس مُجتهدٌ وإن حرص على الخير بنافعه حرصه، ولا مسيء وإن أذنبه بضائِره ذنبه، وقد شقيتُ أنا بالعلامات التي في جسدي، وذلك أمرٌ ليس إلى إن كانت، وأعوذ بالله أن تكون، ولو كان إلى الناس من ذلك شيءٌ جعلوا فيه أفضل ما يقدرون من الآيات والشامات، ولم يكن مني غير العادة، ولم أركب غير الحقّ، وقد استبان لمن حضرك قلة عقلك وعلمك بالأمور وبصرك بها، وقد قال رجل مرة لامرأته: احفظي نفسك ثم اطعنني على غيرك، ودعني الناس وأصلحي عيوبك التي أنت بها أعرف، وذلك مثالك؛ فقال سيدُ الخنازير لدمنة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنه كان مدينة تدعى بَرْزَجِر^{١٢} قد أغار عليها العدوُّ، فقتلوا الرجال وسَبَّوا النساء والذرية، فأصابَ رجُلٌ من أولئك في الغنية رجلاً حرَّأناً وامرأتين له، فكان يُسيء إليهم في المطعم والمشرب ويُجيعهم ويُعرِّيهم، فانطلق الرجل وامرأته ذات يوم يحتطبون، فوجدت إداهما خرقة بالية في الصحراء فغطت بها عورتها؛ فقالت الأخرى لزوجها: لا تنتظر إلى هذه الزانية تمشي عريانة؟ فقال لها زوجها: ويحك ألا تنتظرين أنت إلى نفسك؟ فإنَّ جسمك كله عارٍ، وتعيبين التي قد غطَّت عورتها.

وأنت أيضًا أيها المتكلم، أمرك عَجَب حين تدنو من طعام سيدك وتقوم بين يديه، مع ما بجسمك من القدر والقبح والنتن واللؤم وما فيه من العيوب، ثم أن تجرئ أن تقوم بين يدي الملك وتلي طعامه، وقد علم عيوبك غيري من الجن، ولم يكن ينبغي لي

^{١٢} اسم المدينة في نسخة شيخو: «بورخشت»، وليس في النسخ الأخرى تسمية المدينة، وفي النسخة العربية «مروات».

التكلم بها، إلّا أنه لم يكن يضر أحداً إكرامه إياك، وكنتُ لك أخاً وقد كنتُ أحفظك لذلك، فأمّا إذ باديتنى بالعداوة ونطقت بالبهتان علىَّ من غير علم، فإنه لا ينبغي أن يكون صاحب السلطان دباغاً ولا حجاجاً، دع أن يكون بالنزلة التي أنت بها منه، فقال رأس الخنازير: ألي تقول ما أسمع؟ فقال: نعم! حقاً لك أقول، فإنك قد جمعت أنك آدر ميسور تحكُّ ذلك النهار كله، أفعُّ متسلٍّ الخلق خبيثه. فلما سمع ذلك رأس الخنازير وما رماه به، خنقته العبرة فبكى لجراحته عليه وإغلاظه له؛ قال له دمنة: إنه لينبغي أن تبكي وتشكّر دموعك، فإنَّ الملك لو قد اطلع على أمرك وعلم الذي أنت عليه أقصاك وأبعدك، فلما سمع ذلك أمين الأسد الذي أمره بحفظ ما يقولون — وكان اسمه شهرخ^{١٢} — رفعه إليه، فعزل رأس الخنازير عن عمله، وأمر بإخراجه وإقصائه عنه.

وكتب النمر والقاضي ما قال دمنة وما قيل له، وختما عليه، وبعثا به إلى السجن. ثم إنَّ صديقاً لклиلة يُقال له فيروز^{١٣} انطلق إلى دمنة فأخبره بموت كليلة، فبكى بكاءً شديداً، وقال: ما أصنع اليوم بالحياة وقد هلك أخي وصفي؟ لقد صدق القائل: إنَّ الإنسان إذا ابْتليَ أتاه الشُّرُّ من كل جانب، واكتنفه من الهمِّ والحزن مثل الذي بي، وقد رُزئتَ — مع ما دخل علىَّ — بمُؤدبٍ ومُتعهدٍ بما فيه رشدي، وقد أبقي الله لي منك أخاً ليس بدونه، بل أرجو أن تكون أفضل منه عطفاً علىَّ ونظرًا لي، وأن تهتمَّ في أمري بما يعتني به أخو الحفاظ، فإن رأيت أن تنطلق إلى منزل كليلة فتأتيني بما كان لي وله فيه فافعل، فلما جاء به أعطاه نصيب كليلة كله، وقال: أنت أحقُّ به من غيرك، وطلب إليه أن يَحْضُرَه عند الأسد بخير، وأن يُعلمه ما تذكّرُ أَمُّ الأسد منه^{١٤} عنده، فوعده ذلك، وقبل ما أعطاها.

ثم إن فيروز غداً إلى الأسد فوافق النمر عنده والقاضي، قد أتياه بالكتب فوضعاها بين يديه، فنظر فيها وأمر كاتبه بنسخها ودفعها إلى النمر، وقال له وللقاضي: انطلقوا

^{١٢} ليس في النسخ الأخرى تسمية هذا الأمين، وفي نسخة اليازجي وطبارة والنسخ المصرية أنه «شهر» كان الملك ائتمنه، وفي العربية: «شهرج» ويظهر أن «شهر» في النسخ الأخرى محرف عن هذا الاسم.

^{١٣} في النسخة السريانية الحديثة والنسخ الأخرى: «رُوزبه» بدل «فيروز»، وهذا اختلافٌ جديرٌ بالنظر، فإنَّ ابن المقعف فيما يُقال كان اسمه «رُوزبه»، والظاهر أنه لا يصحّن وضع اسمه في مثل هذه القصة، فـ«فيروز» أقرب إلى الصواب من «روزبه» هنا. وقصة فيروز هذه ليست في نسخة شيخو.

^{١٤} وهذا مثل آخر من استعمال هذه العبارة: «يذكر منه»، وهي شبيهة بالتعبير الفارسي.



بدمنة فِقْفَاه لِلْجُنْد، ثُمَّ ارْفَعَا إِلَيْيَّ ما يَكُونُ مِنْهُ، وَعُذْرَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ عَنْدِ الْأَسْدِ أَنْتَهُ أَمْهُ فَقَرَأَ عَلَيْهَا تِلْكَ الْكِتَبِ، فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسْدِ: لَا تَجْدَنَّ عَلَيَّ إِنْ أَنَا أَغْلَظُتُكَ فِي الْقَوْلِ، فَإِنِّي لَا أَرَاكَ تَعْرِفُ مَا يَضْرُبُكَ مَا يَنْفَعُكَ، أَلِيْسَ هَذَا مَا كَنْتُ أَنْهَاكَ عَنْهُ مِنْ اسْتِمَاعِ قَوْلِ هَذَا الْفَاجِرِ الْمُحْتَالِ؟ فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَبَقْتِهِ أَفْسَدْتِهِ لِيْكَ جُنْدَكَ وَفَرَّقْتِهِ مَلَهْمَ، وَانْصَرَفْتِ مِنْ عَنْهُ وَهِيَ غَضْبَى عَلَيْهِ، ثُمَّ إِنَّ فِيروزَ أَتَى دَمْنَةَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي حَدِيثِهِ إِذَا أَتَاهُ رَسُولُ الْقَاضِي فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَقَالَ عَظِيمُ الْجَنْدِ: قَدْ عَلِمْتُ أَمْرَكَ وَتَيقَنْتُهُ، وَأَتَانِي بِهِ مَنْ هُوَ عَنِّي أَمِينٌ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْأَلَ عَنْ شَأنِكَ وَلَا أَنْظُرَ فِيهِ سَوْى مَا قَدْ فَحَصَتْ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوكَ: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ عَلَمًا وَمَصْدَاقًا فِي الدُّنْيَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَنْبِيَاءُهُ وَرَسُلُهُ، وَلَوْلَا مَا أَمْرَنَا بِهِ الْمَلَكُ — لِرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِالرَّعْيَةِ — لَكَانَ الْقَضَاءُ بَيْنَنَا عَلَيْكَ. فَقَالَ دَمْنَةُ: إِنَّ مَنْطَقَكَ لَيْسَ بِذِي وَجْهٍ وَلَا رَأْفَةً، وَلَا نَظَرٍ فِي أَمْرٍ مُظْلُومٍ، وَلَا طَلْبٍ لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَلَكِنِّي أَرَاكَ رَاكِبًا لِهَوْكَ، تَرِيدُ قَتْلِي وَلَمْ يَسْتَضِئُ

لك شيءٌ من أمري وما قدِفتُ به، ولم أبلغ ثلاثة أيامٍ بعدُ، ولستَ بملومٍ بذلك عندي؛ لأنَّ الفاجر لا يُحبُ الصلاح وأهله، ولا من يعمِلُ أعمالَ التقى؛ فقال القاضي: إنَّ حقا على الوالي أنْ يُجازِي المرءَ بصلاحه، ويعرف له؛ لأنَّه أهلٌ لكل خيرٍ أتي إليه، وأنْ يُنْكِل بال مجرم عن إساعته ويعذبه ويعاقبه عليه؛ ليزداد أهلُ الخير في الصلاح رغبة، وأهل الجرائم عن الإساءة نُزوغاً، ولعمرِي لأنَّ تُعاقب في الدنيا خيرٌ لك من أنْ تُعذَّب في الآخرة غداً، فأقرَّ بذنبك، وبُوْ بإساعتك، واعترف بصنيعك؛ فإنه أفضلُ لك في عواقب الأمور إنْ أنتْ هُدِيتَ إلى ذلك ووُفِقتَ له. فقال دمنة: أيها القاضي الصالح، نطقت بالعدل، وقلت مقالة الحكماء، ولعمرِي إنَّ من سعادة المرءِ الْأَلَا ببيع آخرته بدنيا فانية منقطعة، ولا يشتري رُوحًا يسيِّراً بعذابٍ طويل، ولكنَّي مما قُرِفتُ به بريءٌ، فكيف آمرُ بقتل نفسي وأعينُ عليها وأنا مظلوم، بل أنطق بكذب لم أتفوه به ولم يُعرف مني؟ فشدِيدٌ عليَّ أنْ أقرَّ بما لم أعمل، وأنْ أبوء بما لم أجنِ، فـأكونَ مُعييناً على نفسي، وشريكاً لمن أراد قتلي، فإنَّك تعرِفُ عِقابَ مَنْ فعل ذلك في الآخرة، وأنا بريءُ العِرض، بارِز العُذر، فإنَّ أردتم قتلي مظلوماً فكفي بالله ناصراً، ولعل ذلك – إنْ فعلتموه – الْأَلَا يكون شَرّ أموري لي عاجلاً وآجلاً، فأنا أقول اليوم مثل مقالتي أمس: اذكروا حساب الآخرة وعقابها، ولا تأسفوا غداً إذا دخلتم اليوم في أمر تندمون عليه حين لا تنفع الندامة؛ فإنَّ القضاة لا تقضي بظنونها، وأنا أعلم بنفسي منكم، وإياكم أنْ يُصيِّبكم ما أصابَ القائلَ بما لا يعلم، وما لم يُحِطْ به حُبْراً.

قال عظيم الجنود والقاضي: وكيف كان ذلك؟ فقال دمنة: زعموا أنه كان مَرْزِبان في مدينة فارotas،^{١٦} وكانت له امرأة حسناء عاقلة، وكان للمرزبان عبدٌ بازيار،^{١٧} وقد هوَيَها وعَرَضَ لها مِراراً، كل ذلك لا تلتفت إليه، فأضمر في نفسه فضيحتها، فخرج ذات يوم إلى الصيد فصاد فرخَي بِبَغَاءَ، فهياً لها وَكِرَا، وجعل يعلِّم أحدَهما أن يقول: «رأيت البَوَّابَ مضاجاً مولاتي»، وعلِّم الآخر أن يقول: «أَمَّا أنا فلستُ بـقَائِلَ شَيْئاً»، فحفظ الفرخان ذلك بلسان البَلْخِية، ولم يكن أهلُ تلك البلاد يعرفونها، فلماً كان ذات يوم ومولاه يشربُ إذ أتاه بهما، فصاحت بـتَيْنِكَ الكلمتين بين يديه، فأعجب المَرْزِبان ترجيعبهما

^{١٦} في السريانية: «مازَرَب»، وليس في النسخ الأخرى تسمية المدينة، والقصة كالماء ناقصة في شيخو.

^{١٧} «البازيار»، كلمة فارسية معناها القائم على الربوة المعدة للصيد.

ما قالا بأصواتهما — من غير أن يكون فقهه شيئاً مما قالاه — وأمر امرأته بالاحتفاظ بهما والإحسان إليهما، وألطف الغلام وأحسن إليه، ومكثاً عنده زماناً.

ثم إنَّه قدم عليه أَنَّاسٌ من عظَمَاءِ أَهْلِ بَلْخَ، فصنع لهم طعاماً وشراباً، فلَمَّا أَصَابُوا مِنْ ذَلِكَ دُعَا بِالْفَرَخِينِ لِيُعَجِّبُهُمْ مِنْهُمَا، فَصَوْتًا، فَلَمَّا سَمِعُوا صِيَاحَهُمَا نَظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَنَكَسُوا رَءُوسَهُمْ حَيَاءً مِنْهُ، ثُمَّ قَالُوا لَهُ: هَلْ تَعْلَمُ مَا يَقُولُونَ؟ فَقَالَ: لَا، غَيْرُ أَنَّ ذَلِكَ لِي مُعْجِبٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَهُ: لَا تَجِدُ عَلَيْنَا إِنْ حَدَّثْنَاكَ بِهِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمَا يَزْعُمُ — بِلْسَانِ الْبَلْخِيَّةِ — أَنَّ الْبَوَابَ يَفْجُرُ بِأَمْرِ أُنْتَكَ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيَقُولُ: «أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ بِقَائِلٍ شَيْئاً»، وَإِنَّمَا مِنْ شَأْنِنَا أَلَا نُصِيبُ فِي بَيْتِ امْرِئٍ — امْرَأَتُهُ فَاجِرَةً — طَعَاماً، فَنَادَى الْبَازِيَارُ مِنْ خَارِجٍ: أَنَا أَشْهَدُ عَلَى مَقَالَتِهِمَا أَنَّهَا حَقٌّ، وَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَةٍ، فَأَمَرَ الرَّبِيعَ بِبَقْتِ امْرَأَتِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنْ افْحَصْ عَمَّا ذُكِرَ لَكَ، فَسَيِّدُو لَكَ مَنِ الْفَاجِرِ الْكَذَّابِ؟ وَمُرْهُولُ الْعَظَمَاءِ فَلِيُسَأُلُّوهُمَا وَلِيَنْظُرُوْهُمَا هُلْ يَعْلَمُانِ أَوْ يُحْسِنُانِ مِنْ لُسَانِ الْبَلْخِيَّةِ غَيْرِ هاتِيْنِ الْكَلْمَتَيْنِ، فَتَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَعْلِيمِ الْبَازِيَارِ؛ لَأَنَّهُ أَرَادَنِي عَلَى نَفْسِي فَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَكَلَمُوهُمَا فَإِنَّهُمَا لَا يُحْسِنُانِ غَيْرَهُمَا، فَعَرَفُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَعْلِيمِ الْبَازِيَارِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَتَاهُ وَعَلَى يَدِهِ بَازٌ، فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: وَيْلَكَ! أَنْتَ رَأَيْتِنِي عَلَى مَا قَذَفْتِنِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ! فَوَثَبَ الْبَازِيَارُ عَلَيْهِ فَنَزَعَ عَيْنِيهِ بِمَخَالِبِهِ؛ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ النَّكَالَ بِكَذِبِكَ عَلَيَّ، فَإِنَّكَ زَعَمْتَ أَنِّكَ عَايَنْتَ مَا لَمْ تَرَ، وَشَهَدْتَ عَلَيَّ بِزُورٍ وَبِاطِلٍ.

وَإِنَّمَا ضَرَبَ لَكُمْ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَعْلَمَ بِمَثِيلِ مَا عَمِلَ بِهِ الْبَازِيَارُ مِنِ الْإِفْتَرَاءِ وَالْبَهْتَانِ كَانَ جَزَاؤُهُ الْعَقُوبَةُ فِي الْعَاجِلِ وَالْأَجِلِ.

ثُمَّ إِنَّ الْقَاضِيَ كَتَبَ مَا قِيلَ لِدَمْنَةَ، وَمَا رَدَ عَلَيْهِمْ، وَأُرْسَلَ بِهِ إِلَى السُّجْنِ، وَانْطَلَقَ عَظِيمُ الْجَنْدِ إِلَى الْمَلْكِ، وَتَفَرَّقَ سَائِرُهُمْ، وُحِسِّ دَمْنَةَ بَعْدَ ذَلِكَ سَبْعَ لَيَالٍ يَتَكَلَّمُ بَعْدَهُ، فَلَمْ يَقْدِرُوْهُ أَنْ يَقْرَرُوهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَنْبِهِ، وَلَا يَخْصِمُوهُ فِيهِ.

ثُمَّ إِنَّ أَمَّ الْأَسَدَ قَالَتْ لَهُ: لَئِنْ أَنْتَ خَلَّيْتَ سَبِيلَ دَمْنَةَ — بَعْدَ الَّذِي ارْتَكَ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ — لِيَجْتَرِئَنِ عَلَيْكَ جَنْدُكَ، وَلَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ أَحَدٌ — فِي فَظِيعِ يَرْتَكِبُهُ — عَقْوَبَتِكَ، وَلِيَنْتَشِرَنَّ أَمْرُكَ بِمَا لَا تَطِيقُ لَمَ شَعْثَهُ، وَلَا شَعْبَ صَدِعَهُ، وَلَا رَتْقَ فَتَقَهُ، وَأَحْضَرَتِ النَّمَرَ فَشَهَدَ عَلَى دَمْنَةَ بِمَا سَمِعَ مِنْهُ وَمَرَاجِعَةَ كَلِيلَةَ إِيَاهُ.

^{١٨} في النسخ الأخرى أنَّ صاحب الدار سأله الضيوف عَمَّا يقول البيغاوان فامتنعوا أن يخبروه، فألَّهم حتى أخبروه، والنسخة السريانية الحديثة توافق نسختنا.

وَلَمَا شهد النِّمر بذلك أرسل السبع المسجون — الذي سمع قول كليلة لدمنة ليلة دخل عليه في السجن — أن عدلي شهادة فأخرجوني لها، فبعث إليه الأسد، فشهد على دمنة بما سمع من قول كليلة وتوبخه إيهاد بدخوله بين الأسد والثور بالكذب والنميمة حتى قتله الأسد، وإقرار دمنة بذلك.^{١٩} فلما كررت أم الأسد ذلك عليه وكلمتها فيه ووقع في نفسه أن دمنة حمله على زَيغٍ وأوطأه عَشوةً أمر به فُقْتِلَ شَرِّ قتلة.

ثم قال الفيلسوف للملك: فلينظر أهل التفكير في الأمور في هذا وأشباهه، وليعلموا أنه من يلتمس منفعة نفسه بهلاك غيره — ظالماً له بخدعه أو مكر أو خلابة — فإنه غير ناجٍ من وبال ذلك عليه وعاقبته ومغبته، وأنه مُكافأٌ به ومجزيٌ بما عمل عاجلاً وأجلأً، وصائرٌ إلى البوار على كل حال.

^{١٩} من قوله: «ولما شهد النمر» إلى قوله: «فلما كررت أم الأسد» منقول من نسخة شيخو، وهو موافق للنسخ كلها، وهو مقتضى سياق القصة، فقد أراد واضعها أن يأتي بشاهدين على إقرار دمنة بذلك، ولذلك نجد في النسخ الأخرى أنَّ الأسد سأله النمر والسبع: ما منعكم من الشهادة؟ فاعتذرنا بأنَّ شهادة الواحد لا توجب حكماً، وفي نسخة شيخو أنَّ الذي سُئلَ هذا السؤال هو السبع المسجون وحده.

باب الحمامنة المطوقة

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب الخائن النمام، وما يصير إليه أمره، فأخبرني عن إخوان الصفاء كيف يبدأ تواصلهم، ويستمتع بعضهم ببعض.

قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بصالح الأعوان شيئاً من العقد والمكاسب؛ لأنَّ الإخوان هم الأعوان على الخير كلِّه، والمواسون عندما ينوب من مكروه، ومن أمثال ذلك مثل الحمامنة المطوقة والظبي والغراب والجُرَذ والسلحفاة؛ قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض دستاد، عند مدينة يُقال لها: «ماروات»^١، مكان للصيد يتصدَّى فيه الصيادون، وكان في ذلك المكان شجرة عظيمة كثيرة الغصون مُلتفة بالورق، وكان فيها وَكْرُ غراب يُقال له حائر.^٢ في بينما الغراب ذات يوم واقف على الشجرة إذ بَصُرَ بِرجل من الصيادين قبِح المنظر سيء الحال، وعلى عُنقه شبكة، وفي يده شَرك وعصا، وهو مُقْبِل نحو الشجرة، فذُعر الغراب منه وقال: لقد ساق هذا الصياد إلى هنا أمر، فما أدرى ما هو! أَلْحَيْنِي أَمْ لِحَيْنِي غيري؟ ولكنني ثابتُ على كل حال، وناظرُ ما يصنع؛ فنصب الصياد شبكة ونشر فيها حَبَّه وكمَن قريباً، فلم يلبث إلَّا قليلاً حتى مرَّت

^١ في النسخ الأخرى: «أرض سكاوندجين، عند مدينة داهر»، وقد وقع في النسخ العربية والسريانية تحريفٌ كثيرٌ في هذين الاسمين، وأصلهما في السنسكريتية: «دكشيناباتا» و«ماهلاروبيا» (انظر مقدمة النسخة السريانية لرِئْت The Book of Kalilah and Dimnah P. XVIII الأرض ولا المدينة.

^٢ ليس في النسخ الأخرى تسمية الغراب.

به حمامه يُقال لها المطوقة — وكانت سيدة الحمام — ومعها حمام كثير، فرأى الحبَّ ولم تر الشبكة، فانقضَّتْ وانقضَّ الحمام معها، فوقعن في الشبكة جمِيعاً، وجعلت كل حمامة منهاً تتضطرب على ناحيتها و تعالج الخلاص لنفسها، فقالت المطوقة: لا تخاذل في العالجة، ولا تكون نفسُ كل واحدة منكُنْ أهُمْ إلينا من نفس صاحبتها، ولكن تعاوَنْ فلعلنا نقلع الشبكة فَيُنجِي بعضاً بعضاً، ففعلن ذلك فانتزعن الشبكة حين تعاوَنْ عليها، وطُرِنْ بها في غُلوِّ السماء، ورأى الصيادُ صنيعهنَّ فأتبَعَهُنَّ يطلبُهُنَّ، ولم يقطع رجاءهُنَّ لهُنَّ لا قرِيباً حتى يقعُنْ، وقال الغرابُ: لَا تَبْعَهُنَّ حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرُهُنَّ وأمرُهُ، والتقت المطوقة فلما رأت الصياد يقفوهُنَّ قالت للحمام: ها هو ذا جاء يطلبُكُنَّ، فإنَّ نحن أخذنا في الفضاء لم يَخْفَ عليه أمرُنا، ولم يَزُلْ يُتَبعُنا، وإنَّ نحن أخذنا في الشجر والعمران لم نثبت أنَّ يَغْبَى عليه أمرُنا، ولم يَزُلْ يُتَبعُنا حتى يَسأَلَ مَنَا فينصرف، ومع ذلك إنَّ قرِيباً من الطريق جُحْر جُرْنَ، وهو صديقٌ لي، فلو انتهينا إليه لقطع عناً هذه الشبكة وخلَّصنا منها.

ففعل الحمام ما أمرتهنَّ به المطوقة، وخفينَ على الصياد فأليس منهنَّ وانصرف، وثبت الغراب على حاله لينظر هل للحمام من حيلة للخروج مما هنَّ فيه فيتعلَّمها، وتكون عَدَّة لغفته إن وقع في مثلها. فلما انتهت المطوقة إلى مكان الجرد أمرت الحمام بالنزول فوقعنَّ، ووجدت الجرد قد أعدَّ مائة جُحر للمخاوف، فنادته المطوقة باسمه – وكان اسمه زيرك^٣ – فأجابها من الجر و قال: مَن أنت؟ فقالت له: خلياتك المطوقة، فخرج إليها مُسرعاً، فلما رأها في الشبكة قال لها: يا أختي، ما أوقعك في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟ قالت له: أما تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلَّا وهو محظوم على من يُصيبه بِأيامه وعلله ومُدْتَه وكُنْه ما يُبْتَلَى به من قِلَّته وكثُرته؟ فالمقادير هي التي أوقعتني في هذه الورطة، ودللتني على الحَبْ، وأخْفَتْ على الشبكة حتى لجأت فيها وصُويحتي، وليس أمري وقلة امتناعي من القدر بعَجَبٍ، لأنَّ المقادير لا يدفعها من هو أقوى مني، أما تعلم أنَّ بالقدر تُكسَف الشمس والقمر، وتُصاد السمكة في البحر الذي لا يسبح فيه أحد، ويُستنزل الطير من الهواء إذا قُضي ذلك عليهم، والسبب الذي يُدرِّك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وحاجته. ثم إنَّ الجرد أخذ في تقريب العُقد

^٣ «زيرك» بالفارسية: الذكي، واسم الفأر في الأصل الهندي: «هرنياكا».

التي كانت فيها المطوقة، فقالت له: أبدأ بتقريض عقد سائر الحمام قبلي وانصرف إلى: فأعادت ذلك عليه مراراً – كل ذلك لا يلتفت إلى قوله – فلما ألحّت عليه قال لها: قد كررت على هذه المقالة كأئل ليس لك في نفسك حاجة، ولا ترين لها عليك حقاً، فقالت له المطوقة: لا تلمني على ما سألك، فإني قد كلفت لجماعتها بالرياسة، فحق ذلك على عظيم، وقد أدين إلى حقي في الطاعة والنصيحة، بمعوتها وطاعتها، وبذلك نجانا الله من الصياد، وإنني تخوفت – إن أنت بدأت بقطع عقدي – أن تملّ وتكلّ ويبقى بعض من معى، وعرفت أنك إن بدأت بهن وكتبت أنا الأخيرة لم ترض – وإن أدركك الكلال والفتور – حتى تخلصني مما أنا فيه؛ فقال لها الجرز: وهذا أيضاً مما يزيد أهل موذتك فيك رغبة، عليك حرصاً؛ وأخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها، وانطلقت المطوقة والحمام راجعات إلى أماكنهنَّ.

فلما رأى الغراب صُنْعَ الْجُرْزَ وتألِيَّصَهُ الحمام، رغب في مصادقته، وقال: ما أنت بأمنٍ أن يُصيّبني ما أصابهنَّ، ولا أنا عن موذَّةِ الجرز بغنىٌ، فدنا من جُحْره وناداه باسمه، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا الغراب، كان من أمري كيت وكيت، فلما رأيْتُ وفاءك لأصدقائك رغبتُ في إخائِك، وجئت أطلب ذلك منك؛ فقال الجرز: ليس بيبي وبينك سبيل تواصلٍ، وإنما ينبعي للعاقل أن يلتمس من الأمور ما يرجو دركه، ويترك طلب ما لا يقدر عليه؛ لئلا يُعدَّ جاهلاً، كرجل أراد أن يُجري السفن في البرّ، ويُجرِّ العَجَل على الماء، وليس إلى ذلك سبيل، وكيف يكون بيننا سبيل تواصل! وإنما أنا لحم وأنت آكل لحم فأنا لك طعم! قال الغراب: اعتبر بعقلك: إنَّ أكلي إياك – وإن كنت طعاماً لي – لا يُغْنِي عنِّي شيئاً، وإنَّ في بقاءك وموذتك أنساً لي، واعتبر بما جرّت طول الدهر، هل تجد من يبيع منفعته بمضرّته على علم منه بذلك؟ وإنني لم أرْغَب فيك – إذ رغبتُ – إلا لنفسي والمفعة لها، فإنَّ بقاءك لي فيه منفعةٌ من نائية أو نازلة تنزل بي، وأنت حقيقٌ – إذ رغبتُ فيك – إلا تُبعدني من نفسك ولا تنازعك النفس إلى سوء الظنِّ مع ما أسوّفك من نفسي، وأوثق لك من عهدي، وقد ظهر منك جميلُ الْحُلُق، وذو الفضل لا يخفى فضله – وإن هو أخفاه وكتمه بجهده – كالمشك الذي يُخْفِي ويُكْتَم، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح، فلا تُغَيِّرَنَّ عليَّ ودَك، ولا تمنعني خُلُكك. فقال الجرز: إنَّ أشدَّ العداوة عداوةً الجوهر، وهي ضربان: منها عداوة من يجتزيان على ذلك كعداوة الأسد والفيل، فإنه ربّما قتل الأسدُ الفيل، وربّما قتل الفيلُ الأسد، والأخرى إنما ضررها من أحد الجانبين على الآخر، كعداوة ما بيبي وبين السُّنَّور، وبينك وبينك، وليس لضرٍّ مني عليكم، ولكن

للشقاء الذي كتب الله عليّ منكم، وليس من عداوة الجوهر صلح إلا ريثما يعود إلى العداوة، وليس صلح العدوّ بموثوق به، ولا مركون إليه، فإنّ الماء إن هو أحسن بالنار وأطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفاء النار إذا صبّ عليها، ولا تمنعه سخونته من الرجوع إلى أصل جوهره، وليس ينبغي للعاقل أن يغترّ بصلاح العدوّ ومصاحبته، فإنه يكون كصاحب الحيّة الذي وجدتها وقد أصابها البرد، فأخافها في كُمّه، فلما دفأ النهار عليها ووجدت سخونة الثياب، تحركت فنهشتة، فقال لها: أهذى مكافأتي على جميل فعلى بك وصنيعي إليك؟ فقالت له: هذا لي دأبٌ وعادةٌ وخلقٌ وطبعٌ، وأحمق الناس المريد لإزالة شيءٍ عن أصله وطباعه إلى غير أسمه وجوهره، ولا يستأنس العاقل إلى عدوه الأريب، بل ما يستوحش منه أكثر. قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأنت حقيقٌ أن تأخذ بفضل خليقتك، وتعرف صدق مقالي، ولا تُصعب الأمور عليّ بقولك: ليس لنا إلى التواصل سبيل، فإنّ العقلاة الْكُرْماء يتبعون إلى كل معرفة ووصلة سبيلاً، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيءٌ انقطاعها، ومثل ذلك كوز الذهب الذي هو بطيء الانكسار سريع الإعادة والصلاح إن أصابه ثلم أو وهن، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بطيء اتصالها، كإلزام من الفخار مكسره أدنى شيء ثم لا وصل له أبداً، والكريم يودُّ الكريم على لقيمة واحدة ومعرفة يوم فقط، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة، وأنت كريم، وأنا إلى ودك محتاج، وأنا لازمُ بابك وغيرِ ذاتي طعاماً ولا شراباً حتى تؤاخيني.

قال له الجرد: قد قبلت إخاءك، فإني لم أرد أحداً عن حاجةٍ قط، وإنما ابتدأتك بما سمعت إرادة الإنذار إلى نفسي، فإنّ أنت غدرت بي لم تقل: وجدت الجرد ضعيفَ الرأي سريع الانخداع، ثم خرج إليه من جحده فأقام عند بابه، فقال له الغراب: ما يحسك ويسعنك من الخروج إلىيّ والأنس بي؟ أو في نفسك ريبةٌ مني بعد؟ فقال الجرد: إن الإخوان أهل الدنيا يتعاطون بينهم أمران وي التواصلون عليهما: ذات النفس وذات اليد، فاما المتعاطون ذات النفس فهم المتعاونون المتصافون، يستمتع بعضهم ببعض، وأما المتعاطون ذات اليد فهم المتعاونون المستمتعون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض، ومن كان إنما يصنع المعروف ابتغاء الأجر والاكتساب لبعض شؤون الدنيا، وإنما مثله – فيما يعطيه ويبدل – مثل الصياد والإلقاء الحب للطير، لا يريد بذلك منفعتهنَّ بل يريدهنَّ نفع نفسه، فتبادل ذات النفس أفضلاً من تبادل ذات اليد، وإنني قد وقفت بذات نفسك ومنحتك مثلَ ذلك من نفسي، وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظنٍّ مني بك، ولكن قد عرفت أنَّ لك أصحاباً جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم فيَّ كرأيك، وأنا

أخاف أن يراني بعضهم فيُهلكني. قال الغراب: إنَّ من علامه الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً، ولعدُوٌ صديقه عدوًّا، وليس لي بصاحب ولا أخ من لم يكن لك مُحِبًا ولا فيك راغبًا، وقد تهون على قطعيةٍ من كان عدواً لك، فإنَّ صاحب الجنان إذا نبت في جنانه ما يُفسدُها ويضرُّها اقتلَّها وقدفَ به.

ثم إنَّ الجرد خرج إلى الغراب فتصافحا وتصافيا وتصادقا، وأنس كل واحدٍ منهما إلى صاحبه حتى أتت عليهما أَيَامٌ، فقال له الغراب: إنْ جُحرك قرِيبٌ من طريق الناس، وأنا أخشى أن يَرموني فأعطبَ، وقد عرفتُ مكاناً ذا غُزلةٍ وخصبٍ من السمك والماء، ولي فيه صديق من السلاحف، وأنا أريد أن أنطلق إليه وأعيش معه آمناً مطمئناً، فقال الجرد: إنَّ وأنا أذهب معك، فإني لمكاني هذا كاره، فقال الغراب: وما يُكَرِّهُهُ إِلَيْكَ؟ فقال الجرد: إنَّ لي أخباراً وقصصاً سأُسِرِّها إِلَيْكَ لو قد انتهينا إلى حيث تريده؛ فأخذ الغراب بذنب الجرد فطار به حتى دنا من العين التي فيها السلفافة، فلما رأت الغراب ومعه جرد ذُعرت منه ولم تعلم أنه صاحبها، فغاصت في الماء، فوضع الغراب الجرد على الأرض ووقع على شجرة قربها ونادي السلفافة باسمها، فعرفت صوته، فخرجت إليه ورحت به وسألته من أين أقبل، فأخبرها بسببيه حين تبع الحمام وحضوره أمرَهُنَّ، وما كان من أمره وأمر الجرد حتى انتهى إليها، فعجبت السلفافة من عقل الجرد ووفائه، ودنت منه ورحت به، وقالت له: ما ساقك إلى هذه الأرض؟ فقال الجرد: رغبتُ في صحبتكم والإقامة معكم. ثم إنَّ الغراب قال للجرد: أرأيت الأخبار والقصص التي زعمت أنك مُسِرُّها إلى حدث بها الآن واقصُّها على، فإنَّ السلفافة منك بمنزلتي؛ فقال الجرد: كان أولُ منزلي في مدينة يقال لها ماروت^٤، في بيت رجلٍ من النساك لم يكن له عيال، وكان يؤتى كل ليلة بسلةٍ من طعام، فيتعشى منه ثم يضع فيها بقيته ويعُلّقها، فأرْصُدْه حتى يخرج ثم آتي إليها فلا أدع فيها شيئاً إلا أكلته ورميْتُ به إلى الجرذان، فجهد الناسك مراراً أن يجعلها في مكان لا أناله، فلم يقدر على ذلك، ثم إنَّ الناسك نزل به ضيفٌ ذات ليلة فأكلَا

^٤ ليس في شيخو وابن الهبارية تسمية المدينة، وفي السريانية: «مازرب»، ويرى رَيْتُ أنها محَرَّفة عن «مهراروب» أو «ماهلاروبيا» التي تقدمت في رقم (١) من هذا الباب، وفي النسخة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد: «مدينة نيشابور»، وظاهرُ أنه تغييرٌ من التسخّاخ. يقارن هذا الاسم بفاروات [انظر: باب الفحص عن أمر دمنة (الناشر)], وماروات [انظر: باب الحمام المطوقة (الناشر)].

جميعاً حتى إذا كانا عند الحديث قال الناسك للضيف: من أي أرض أنت؟ وأين وجهك الآن؟ وكان الضيفُ رجلاً قد جال الآفاق ورأى الأعاجيب، فأنشأ يحده عما وطئ من البلدان ورأى من الأمور، فجعل الناسك يصفق بيديه أحياناً ليُنفرني عن السلة، فغضب الضيف من ذلك، وقال: أنا أحذثك وتهزا بي وتصفق بيديك! فما حملك على أن تسألني وأنت تفعل هذا؟ فاعتذر إليه وقال: إني لم أرتب بحديثك — وقد لذ لي — ولكن كنت أفعل الذي رأيت لأنفَرْ جُرَدَا في البيت لست أضع فيه طعاماً إلا أكله، وقد شق عليَ ذلك، فقال له الضيف: أجرَد واحد هو أم جُرْدان كثيرة؟ فقال الناسك: جرذان البيت كثيرة، وفيها واحد هو الذي قد آذاني وبَرَّح بي، ولا أستطيع له حيلة. فقال له الضيف: ما هذا إلا لشيءٍ، وإنَّه ليُذكِّرني قول الرجل الذي قال: لأمِّ ما باعت هذه المرأة السمسم المتشور بغير المتشور، قال الناسك: وكيف كان ذلك؟ فقال الضيف: نزلت مرَّة برجل بمدينة كذا وكذا، فتعشينا جميعاً ثم فرش لي وانصرف إلى مضجعه مع صاحبته — وكان بيبي وبينها خُصٌ من قَصَب — فسمعتُ الرجل يقول لامرأته: إني أريد أن أدعو غداً رهطاً يأكلون عندي. فقالت: وكيف تفعل ذلك وليس لك في بيتك فضلٌ عن عيالك، وأنت رجل لا تُتقى شيئاً ولا تَدَخره؟ فقال لها: لا تندمي على شيءٍ أطعمناه وأنفقناه، فإنَّ الجمع والأدخار ربما كان عاقبةُ أصحابهما كعاقبةِ الذئب؛ قالت المرأة: وكيف كان ذلك؟ قال الزوج: خرج رجلٌ من القُنَاصَ غادياً بفرسه ونشابه يلتمس الصيد، فلم يُجاوز بعيداً حتى رمى ظبياً فأصابه، وحمله ورجع مُنصرفاً يريد منزله، فعرض له في طريقه خنزير فحمل عليه، فوضع الرجل الظبي وأخذ القوس ورماد بالسهم فأنفذذه، وأدركه الخنزير فضربه بنابه ضربةً أطارت القوس والنشاب من يده، فوقعوا جميعاً ميتين، فأتى عليهما ذئب، فلما رأهما وثق بالخشب في نفسه، وقال: ينبغي أن أَدْخُر ما استطعت، فإنه من فرط في الجمع والأدخار فليس بحازم، وأنا جاعلٌ ما وجدتْ كنزًا، ومكتفٌ يومي هذا بوتر القوس، فدنا منه ليأكله، فلما قطع الوتر طارت القوس فأصابت سِيَتها مقتلاً من جوفه فمات.

إنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلمي أنَّ الحرص على الجمع والأدخار وخيمُ العاقبة؛ فقالت له المرأة: إنِّعما قلت، وعندِي من الأرض والسمسم ما فيه طعام لستة رهط أو سبعة، وأنا غادية على صنيعه، فادع من أحببت غداً، وأخذت — حين أصبحت — في قشر السمسم، فبسطته في الشمس ليجفَّ، وقالت لزوجها: اطْرُد عنه الطير والكلاب، وأسرعَت لصنيعها، فغفل الرجل عنه وذهب لبعض شأنه، وذهب كلب لهم إليه فأكل

منه، فبُصرت به المرأة فقذرته وكرهت أن تصنع منه طعاماً، فانطلقت إلى السوق به وأخذت به سمسماً غير مقوشور مثلاً بمثل، وأنا أبصّر ذلك، فسمعت رجلاً يقول: لأمِّ ما أعطت هذه المرأة سمسماً مقوشوراً بغير مقوشور، وكذلك قولي في هذا الجرز الذي ذكرت أنه يثبت في السلة حيث تضعها دون أصحابه، إنه من علة قوبي على ما ذكرت منه، فالتمس لي فأساً لعلي أحفر جُحره وأطلع على بعض شأنه؛ فأتاه الناسك بفأس — وأنا حينئذ في جُحر غيري أسمع كلامهما — وكان في جُحرى ألف دينار لم أدرِ من كان وضعها فيه، فكنت أفترشها وأفرح بها وأعُزُّ بمكانها وأتقلبُ عليها، وإن الضيف احتفر الجُحر حتى انتهى إليها فاستخرجها، وقال: ما كان يقوى هذا الجرز على الوثوب حيث كان إلَّا بمكان هذه الدنانير، فإنَّ المال جعل زيادة في القوة والرأي، وسترى أنه بعد اليوم لا يقوى ولا يستطيع ما كان يصنع، ولا يكون له فضل على سائر الجرزان، فعرفت أنه قد صدق، وأحسست في نفسي ضعفاً ونقصاناً وانكساراً حين أُخْرِجت الدنانير من جُحرى، وانتقلت إلى جُحر آخر، فلماً كان من الغد اجتمع الجرزان اللاتي كنْ يُطفن بي، فقلُّن: قد أصابنا جوع، وفقدنا ما كنت عوَدتنا — وأنت رجاؤنا — فانظرنَ في أمرنا، فانطلقت إلى المكان الذي كنت أثبّ منه إلى السلة، فأردتُ الوثوب مراراً، كل ذلك لا أقدر عليه، فاستبان لي أنَّ حالي قد تغيرت، وزهد في الجرزان، وسمعت بعضهن يقول لبعض: قد هلك هذا آخر الدهر، فانصرفَ عنَّه، ولا تطمئنُ فيما عنده، فإنَّا لا نراه يقوى على ما كان يفعل، بل نحسبه سيحتاج إلى من يعوله؛ فتركتني ولحقن بأعدائي ومن كان يحسُّدني، فأخذن في انتقامي عندهم، وجعلن لا يُقرّبني ولا يلتقطن إليَّ، فقلت في نفسي: ما أرى التبيح والإخوان والأهل إلَّا مع المال، ولا تظهر المروءة والرأي والمودة إلَّا به، فإني وجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به عنه العُدم، كالماء الذي يبقى في الأودية عن مطر الصيف، فلا هو إلى نهر، فيبقى في مكانه لأنَّه لا مادة له، ووجدت من لا إخوان له فلا أهل له، ومن لا ولد له فلا ذكر له، ومن لا عقل له فلا دُنيا له ولا آخِرَة، ومن لا مال له فلا عقل له؛ لأنَّ الرَّجُل إذا أصابه الضرُّ والحاجة رفضه إخوانه، وقطع ذوو قرابته وُدُّه، وهان عليهم، واضطرته المعيشة وما يُعالج منها لنفسه وعياله إلى التماس الرزق فيما يُغَرِّر فيه بنفسه ودينه وهلاك آخرته، فإذا هو قد خسر الدنيا والآخرة، فلا شيء أشدُّ من الفقر.

فإنَّ الشجرة النابتة في السياخ، المأكولة من كل جانب أمثل حالاً من الفقير الذي يحتاج إلى ما في أيدي الناس، فالفقر رأس كل بلاء، وداعيُّ المقت إلى صاحبه، وهو

مسلبة للعقل والمرءة، ومذهبة للعلم والأدب، ومعدن للتهمة، ومجمعة للبلايا، ومن نزل به الفقر لم يجد بدًا من ترك الحياة وتضييعه، ومن ذهب الحياة منه ذهب شروده ومروعته، ومن ذهب مروعته مُقت، ومن مُقت أذني، ومن أذني حزن، ومن حزن فقد عقله واستنكر فهمه وحفظه، ومن أصيّب في ذلك كان أكثر قوله عليه لا له، ووُجِدَت الرّجل إذا افتقر اتهامه من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً، فإن أذنب غيره كان للتهمة موضعًا، وليس من خلّة هي للغنى مَدح إلّا وهي للفقير ذم، فإن كان جوايداً سُمّي مُفسداً، وإن كان حليماً سُمّي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سُمّي بليداً، وإن كان لسناً سُمّي مهذاراً، وإن كان صموتاً سُمّي عيّيناً، فالملوث أهون من الفاقة التي تضطرب صاحبها إلى المسألة، وتضع المرء بموضع الهوان، وتدنيه بعد ارتفاعه، وتصيبه بعد تقاربها، وتُبعده بعد توسطها، وتُزري به وتمقّتها بعد المحبة، ولا سيما مسألة الأشحاء الأدنىاء اللؤماء، فإنَّ الكريم لو كُفَّ أن يدخل يده في فم التّنين فيستخرج منها سُمّاً فيبتلعه كان أخفَّ عليه من الطلب إلى اللئيم، وقد قيل: «من ابتلي بمرض في جسده لا يفارقها، أو بفارق الأحبة والإخوان، أو بالغرابة حيث لا يعرف مبيتاً ولا مقيلاً ولا يرجو إياها، أو بفacaة تضطربه إلى المسألة، فالحياة له موت والملوث له راحة»، وربما كره الرجل المسألة وبه حاجة فحمله ذلك على السرقة والغصب، وهما شرٌّ من التي زاغ عنها، فإنه قد كان يُقال: الخرسُ خير من اللّسن المطاعم بالكذب، والعينُ خيرٌ من العاهر، والفاقة والفقرُ خيرٌ من النعمة والسعفة من أموال الناس، والاجتهادُ في الكفاف خير من الإسراف والتبذير فيما لا يحلُّ.

وقد كنت رأيت الضيف حين أخرج الدنانير من الجحر قاسمها الناسك، ثم وضع نصيبه منها في خريطة عند رأسه، فطمِّعت أن أصيّب منها شيئاً أرُدُّ به بعض قوّتي ويراجعني به أصدقائي، فانطلقت وهو نائم حتى كثبت منه، فاستيقظ لحركتي، وإلى جانبه قضيب، فضربني على رأسي ضربة فأوجعني فسعيت إلى جريحي حتى دخلته، فلمَّا سكن عنّي ما كان بي من الوجع نازعني الحرص والشّره، وغلبني على عقلي فدبّت بمثل طمعي الأول حتى دنوت منه وهو يرصدني، فعاد لي بضربة أخرى على رأسي سالت منها الدماء وانقلبتُ ظهراً لبطن، وانجررت حتى دخلتْ جريحي مغشياً على لا أعقل ولا أدرى، وأصابني من الوجع والفزع ما يَعْضُ إلى المآل حتى إنني لأسمع بذكره فيُداخِلُني منه رعب وذعر، ثم ذكرتُ فوجدت البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى صاحبها الحرص والشرّه، فلا يزال صاحبها يتقلب في تعبٍ منها، ورأيت بين السخاء

والشّح تفاوتاً بعيداً، ووجدت ركوب الأهوال الشديدة وتجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهونَ على المرء من بسط يده بالمسألة، ووجدت الرضا والقنوع بما جمِع الغنى، وسمعتُ العلماء يقولون: لا عقل كالتدبر، ولا ورَع كالكُفْ، ولا حَسَب كحسنِ الْخُلُقِ، ولا غنى كالقناعة، وأحق ما صِيرَ عليه ما ليس إلى تغييره سبيل، وكان يُقال: أفضل البر الرحمة، ورأس الموَدة الاسترسال، وأنفع العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون، وطيب النفس وحسن الانصراف عمما لا سبيل إليه، فصار أمري إلى أن قنعتُ ورضيت، وانتقلت من بيت الناسك إلى البريَّة.

وكان لي صديقٌ من الحمام فساقت إلى بصدقها صداقَةَ الغراب، فذكر لي الغراب ما بينك وبينه، وأخبرني أنه يريد أن يأتيك، فأحببته أن أراك معه، وكرهت الوحيدة، فإنه ليس من سرور الدنيا شيءٌ يعدل صحبة الإخوان، ولا فيها غمٌ يعدل فقدهم، وقد جربت وعرفت أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يتلمس من الدنيا طلباً فوق الكفاف الذي يدفع به الحاجة والأدى عن نفسه، وذلك يسير إذا أعين بسعة يدِ وسخاءِ نفس، فأماماً ما سوى ذلك ففي مواضعه ليس له منه إلا ما لغيره من حظ العين، ولو أنَّ رجلاً وُهبت له الدنيا بما فيها لم ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذي يكُفُّ به الأذى عن نفسه، فأماماً ما سواه ففي مواضعه لا يناله، فأقبلت مع الغراب على هذا الرأي، وأنا أخ لك فلتكن كذلك منزلتي عندك.

فلما فرغ الجرد من مقالته أجابته السلفة بكلام لطيفٍ رقيقٍ، فقالت له: قد سمعت مقالتك فأحسن بها مقالةً وأكرم بها، غير أنني رأيتك تذكر بقايا أمور في نفسك منها ومن اغترابك شيءٍ، فتناسَ ذلك ولا يكون من رأيك، واطرحنَه عنك، واعلم أنَّ حُسن القول لا يكون إلا بالعمل، فإنَّ المريض الذي قد عُلِمَ دواده إذا هو لم يتعالج به لم ينتفع بما سوى ذلك، ولم يجد له راحةً ولا شفاءً، فاستعمل علمك، ولا تحزن لقلة مالك، فإنَّ الرَّجُل ذا المروءة قد يُكَرَّمُ على غير مال؛ كالأسد الذي يُهاب وإن كان رايباً، والغَنِي الذي لا مُروءة له يُهان وإن كثُر ماله؛ كالكلب الذي يُهان وإن طُوقَ وخلَلَ، ولا تُكَبِّرَ في نفسك اغترابك؛ فإنَّ العاقل لا غُرابة عليه ولا وحشة، ولا يتغَرَّب إلا ومعه ما يكتفي به من علمه ومُروءته؛ كالأسد الذي لا يتقلب إلا ومعه قوَّته التي بها يعيش حيثما توجَّه، ولتحسِن تعهدك لنفسك فيما تكون به للخير أهلاً؛ فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك، كما يلتَمِس الماء المتطرَّف من الأرض، وكما يطلب طيرُ الماء الماء، وإنما جعل الفضل للبصیر الحازم المتفقد، فأماماً الكسلان المتردد المدافع المُتواكل فإنَّ الفضل قلماً يصحبه، كما لا تطيب المرأة الشابة نفساً بصحبة الشيخ الهرم، ولا يحرُّنك

أن تقول: كنتُ ذا مال فأصبحتُ مُعدِّماً، فإنَّ المال وسائر متاع الدنيا سريعٌ إقباله إذا أقبل، وشيكٌ إدباره إذا أدبَر، كالكرة فإنَّ ارتفاعها وإقبالها وإدبارها ووقوعها سريع، وقد قالت العُلماء في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظلُّ الغمام، وصحبة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والمال الكثير، فإنه ليس يفرح عاقل بكثرة ماله، ولا يحزن لقلته، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله وما قدَّم من صالح عمله؛ لأنَّه واثقٌ أنه لا يُسلِّب ما عمله، ولا يؤخذُ بغيره، وهو حقيقةٌ لا يغفل عن أمر آخرته، والتزوُّد لها، فإنَّ الموت لا يأتي إلا بغتة، وليس بيته وبين أحد وقت معلوم، وأنت غنيٌّ عن مواعظي، وبما ينفعك بصير، ولكن قد رأيتُ أن أقضى من حِقْك الذي يجب، وأنت أخونا فما قبلنا لك مبذول.

فَلَمَا سمعَ الغَرَابُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ السَّلْحَافَةِ وَرَدَهَا عَلَى الْجُرْذِ وَإِلَطَافِهَا إِيَّاهُ وَحَسْنِ مَقَالَتِهَا، سَرَّهُ ذَلِكُ وَأَفْرَحَهُ، وَقَالَ: لَقَدْ سَرَّتِنِي وَأَنْعَمْتِ عَلَيَّ، وَلَطَالَلَا فَعَلْتِ، وَأَنْتِ جَدِيرَةٌ أَنْ تَفْرَحَ نَفْسَكَ مَا لَهْجَتْ لَكَ بِهِ، فَإِنَّ أَوْلَى أَهْلِ الدِّنِيَا بِطَبِيبِ الْعِيشِ وَكَثْرَةِ السَّرُورِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ مِنْ لَا يَزَالْ رَحْلَهُ مُوْطَوْءًا مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَتَعَاوِدِهِمْ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَثَرَ لَمْ يَسْتَقِلْ إِلَّا بِالْكَرَامِ، كَالْفَيلِ إِذَا وَجَلَ لَمْ يَسْتَخْرُجْ إِلَّا بِالْفِيلَةِ، وَلَا يَرِي الْعَاقِلُ مَعْرُوفًا يَصْطَنِعُهُ كَثِيرًا وَإِنْ كَثَرَ، وَلَا يَخْطُرْ بِنَفْسِهِ وَغَرَّ بِهَا فِي بَعْضِ وُجُوهِ الْمَعْرُوفِ لَمْ يَرِي ذَلِكَ عَيْبًا، بل يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا بَاعَ الْفَانِي بِالْبَالِقِيِّ، وَاشْتَرَى الْعَظِيمَ بِالصَّغِيرِ، وَأَغْبَطَ النَّاسَ أَكْثَرَهُمْ مُسْتَجِيرًا وَسَائِلًا مُنْجَحًا، وَلَا يُعَدُّ الْغَرْمُ غُرْمًا إِذَا سَاقَ غُنْمًا، وَلَا الْغُنْمُ غُنْمًا إِذَا سَاقَ غُرْمًا.

فَبَيْنَمَا الغَرَابُ فِي كَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ ظَبِيُّ نَحْوَهُمْ يَسْعَى، فَفَزَعُوا مِنْهُ، وَدَخَلَ الْجُرْذُ، وَطَارَ الغَرَابُ فَوْقَ عَلَى الشَّجَرَةِ، وَغَاصَتِ السَّلْحَافَةُ فِي الْمَاءِ، وَانْتَهَى الظَّبِيُّ إِلَى الْمَاءِ فَشَرَبَ قَلِيلًا ثُمَّ قَامَ مَذْعُورًا، فَحَلَقَ الْغَرَابُ فِي جَوَّ السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هُلْ يَرِي لِلظَّبِيِّ طَالِبًا، فَلَمَّا لَمْ يَرِي شَيْئًا نَادَى الْجُرْذَ وَالسَّلْحَافَةَ لِيَخْرُجَا، وَقَالَ لَهُمَا: لَسْتُ أَرَى هُنَّا شَيْئًا تَخَافَاهُ، فَخَرَجا وَاجْتَمَعُوا، فَقَالَتِ السَّلْحَافَةُ لِلظَّبِيِّ حِينَ رَأَتْهُ يَنْظُرَ إِلَى الْمَاءِ وَلَا يَقْرَبُهُ: اشْرَبْ إِنْ كَانَ بِكَ عَطْشٌ وَلَا تَخْفِ، فَلَا بِأَسْلِعُكِ، فَدَنَا الظَّبِيُّ مِنْهَا وَحْيَاهَا، فَقَالَتِ: مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَقَالَ: كَنْتُ أَكُونُ فِي هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ، فَلَمْ يَزِلِ الْأَسَاوِرَةُ يَطْرُدُونِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَرَأَيْتُ الْيَوْمَ شَبَّحًا فَأَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصًا فَأَقْبَلْتُ هُنَّا مَذْعُورًا؛ فَقَالَتِ السَّلْحَافَةُ: لَا تَخْفِ؟ إِنَّا لَمْ نَرِقَنَّا صِفَاتِهِمْ فِيهَا قُطُّ، فَكَنْ مَعْنَا وَنَحْنُ نَبْذِلُ لَكَ وُدَّنَا، وَالمرعى قَرِيبٌ مِنَّا، فَرَغَبَ فِي صَحْبَتِهِمْ وَأَقْامَ مَعَهُمْ.



وكان لهنَّ عريشٌ من الشجر، فكُنَّ يأتينه كل يوم يجتمعن فيه ويلهون ويتحدثن ويتداركن الأمور، ثم إنَّ الغُراب والسلحفاة والجرذ اجتمعن يوماً في العريش، وغاب الظبي عنهنَّ فتوقعنه، فلما أبْطأَ عليهنَّ أشفقنَ أن يكون أصابته آفة، فقالت السلحفاة والجرذ للغراب: انظر هل تراه في شيءٍ مما يلينا، فحلَّ الغراب في الهواء، فإذا هو بالظبي في حبائل القناص، فانقضَّ مسرعاً حتى أخبرهنَّ، فقال الغراب والسلحفاة للجرذ: هذا أمرٌ لا نرجو فيه غيرك، فأغاثَ أخانا وأخاك، فخرج يسعى فانتهى إليه فقال له: كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟ فقال وهل يُعني الكيس مع القدر المغيب الذي لا يُرى فيتوّقَّ؟ فبينما هما في تحاورها إذ وافت السلحفاة، فقال لها الظبي: ما أصبت بمحيئك إلينا هنا، فإنَّ القانص إن هو انتهى إلينا، وقد فرغ الجرذ من قطع حبالي سبقته حُضراً، وللجرذ معاقل كثيرة في الحِرَة، والغرابُ يطير، وأنت ثقيلة لا سعي لك، وأنا أشفع عليك، فقالت السلحفاة: لا خير في العيش بعد فراق الأحبة، وإنَّ من المعونة

على تسلية الهم وسكون النفس — عند نزول البلاء — لقاء المرء أخاه، وإفشاء كلّ واحدٍ منها إلى صاحبه، وإنما فُرق بين الأليف وإلفه فقد سُلب سروره، وغُشِيَ على بصره، فلم تفرغ السلحفاة من كلامها حتى طلع القانص، ووافق ذلك قطع الجرد الشبكة عن الظبي، فانجرح الجرد، وطار الغراب، ونجا الظبي، فلماً دنا من حاله ورأها مقطوعة عجب وجعل ينظر فيما حوله، فلم ير غير السلحفاة فأخذها واستوثق منها، واجتمع الغراب والظبي ينظرن إليه وهو يريطها، فاشتد حزنهن لذلك، فقال الجرد: ما نرى أنا نجاوز من البلاء عقبة إلاّ وقعنا في أخرى، لقد صدق الذي يقول: لا يزال المرء مُستقلًا ما لم يعثر فإذا هو عشر لج به العثار ولو مشى في جد، وما كان شؤمي الذي فرق بياني وبين قطيني وأهلي ومالي ولدي ليرضى حتى يفرق بياني وبين ما كنت أعيش فيه من صحبة السلحفاة التي لم تكن مودتها للمجارة ولا للتماس المكافأة، ولكنها خلة الكرم والوفاء والعقل، ومودتها أفضل من مودة الوالد ولده، المودة التي لا يزيلها إلاّ الموت، يا ويح هذا الجسد الموكّل به البلاء! الذي لا يزال في تصرف وتقلب لا يدوم له شيء ولا يليث معه، كما لا يدوم لطالع النجوم طلوعها ولا لآفلها أفالها، ولكنها في تقلب، فلا يزال الطالع آفالًا والآفل طالعاً، والمشرق مُغرباً، والمغرب مُشرقاً، وهذا الحزن الذي أنا فيه وتدكّري إخواني كالجراح المندل تصيبه الضربة فيجتمع على أصحابها أمان: ألم الضربة وألم انتقاد الجرح، وكذلك من خفتْ كُلُومُه لقاء إخوانه ثم فقدهم انتكأت قروحة.

قال الغراب والظبي: حُزنا وحزنك وكلامنا وكلامك، وإن كان بليغاً، لا يعني عن السلحفاة شيئاً، فدع هذا والتمس المخرج والحيلة، فإنه قد كان يُقال: إنما يُختبر ذو البأس عند اللقاء، وذو الأمانة عند الأخذ والإعطاء، والأهلُ والولدُ عند الفاقة، والإخوان عند النواب. فقال الجرد: إنَّ من الحيلة أن تذهب أنت أيها الظبي، حتى تكون بصدق من طريق القانص، فتريضَ كأنك جريح مثبت، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك، وأتبعه فأكون قريباً منه، فإنني أرجو لو نظر إليك أن يضع ما معه من قوسه ونشابه ويضع السلحفاة ويسعى إليك، فإذا هو دنا منك ففر عنك متظالعاً حتى لا ينقطع طمعه فيك، وأمكنته مراراً حتى يدنو إليك، ثم امدد به على هذا النحو ما استطعت، فإني أرجو ألا ينصرف إلاّ وقد قطعت الحبل عن السلحفاة وخَلَصَتها، ففعل الظبي ذلك هو والغراب، فأتبعه القانص طويلاً ثم انصرف وقد قطع الجرد وثاق السلحفاة، ونجونَ جميعاً، فلما رأى ذلك القانص ورأى حاله مقطوعة، فكر في أمر الظبي المتعال، والغراب الواقع عليه كأنه يأكل منه وليس يأكل، وتقريره حاله قبل ذلك عن الظبي، فاستوحش، وقال: إنْ

هذه إلّا أرض سَحَرة أو جن، فانصرف مذعوراً مُولّياً لا يلتمس شيئاً ولا يلتقت إليه، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عرائشهن آمنات.

ثم قال الفيلسوف للملك: فإذا بلغت حيلة أضعف الدواب والطير وأهونها في معاونة بعضهن بعضاً، ومواتياتهن، وجُمْعَتِهن فيما بينهن، وصبرهن على ما خلص به بعضُهن بعضاً من أعظم البلاء وأهوله وأفظعه، فكيف بالناس لو فعلوا مثل ذلك وترافقوا عليه؟ إذن كان يصل إليهم من منفعة ذلك وِمِرْفَقُه في جرّ الخير وإجرائه ودفع السوء ما لا خطر له ولا عدل.

باب اليوم والغربان

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من أمر الإخاء ومنفعته وعظمي الفائدة فيه، فاضرب لي مثل المفتر بالعدو المُبدي التضُّر، وأخبرني عن العدو هل يصير صديقاً؟ وهل يُوثق بشيء منه؟ وكيف العداوة؟ وما ضرُّها؟ وكيف ينبغي للملك أن يصنع إذا أتاها أمرٌ من عدوه ومن أهل المناذنة يلتمس به الصلح، وهو في نفسه غير أمين، ولا حقيق بالطمأنينة.

قال الفيلسوف: ليس أحد بحقِّيقٍ إذا أتاها أمر من عدوه الذي يتخوفه على نفسه وجنته — وإن كان يلتمس الأمان والصلح، ويظهر المودة لجنه والسلامة لأصحابه — أن يثق به ولا يطمئن إليه ولا يغترّ بقوله؛ فإنه قد يكون بأشباه ذلك يطلب النُّهزة والفرصة، ومثل العدو الذي لا ينبغي أن يُغترّ به، وإن هو أظهر المودة والصفاء، ومن يَسْترسل إلى عدوه ويطمهن إليه؛ فيصييه الشُّر ما أصاب اليوم من الغربان، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن أرضاً تُسمى كذا وكذا، كان حولها جبل عظيمٌ محيطٌ بها، وكان فيه شجرة عظيمة كثيرة الغصون شديدة الالتفاف يُقال لها يبمرود،^١ وكان فيها وكراً ألفاً غراب، ولهنَّ ملِك منهنَّ، وكان في ذلك الجبل وكراً ألفاً من اليوم، فخرج ملك اليوم ذات ليلة لعداوة بين اليوم والغربان، فوُقعت اليوم على الغربان فأكثُرُنَّ فيهنَّ القتل والجراح، ولم يعلم ملك الغربان بذلك حتى أصبح؛ فلما كان الغد، ورأى ما لقيَ جنده اهتم وحزن وقال: يا عشر الغربان! قد ترون ما لقينا من اليوم،

^١ ليس في النسخ الأخرى تسمية الشجرة.

وما أصابنا منهنَّ، وأشد ما أصابكْ جُرأتُهنَّ علِيَّكَنَّ، ومعرفتهنَّ مَكَانَكَنَّ، وأَنَا مَتَحَوْفٌ من كرَّتُهنَّ بِمَثَلِهَا أَو أَشَدُّ مِنْهَا علِيَّكَنَّ.

وكان في الغربان خمسة ذَوْ رِفْقٍ وعلم ونظر في الأمور ومعرفة بحسن الرأي والجِيل، وكان الملك يُشاورهم ويكتبه إلى رأيهما، فقال الملك للأول من الخمسة: قد كان ما رأيت، ولسنا نأمن رجعتهم، فما الحيلة؟ فقال: الحيلة في الذي كانت العلماء تقول، فإنهم كانوا يقولون: ليس للعدُو الحنق الذي لا يطاق إلا الهرب منه والتبعُد عنه. ثم سأله الملك الثاني، فقال: ما رأيك أنت؟ قال: أمماً ما أشار به هذا عليك فلا أراه حَرْمًا، ولا ينبغي لنا أن نفر من بلادنا، وندلل لعدوَنا عند أول نكبة، ولكن نجمع أمرنا، ونستعد لعدوَنا، ونذكِي العيون ما بيننا وبينهم، ونحترس من الغرَّة والعودَة، فإذا أقبل علينا عدوَنا لقيناه مستعدِين لقتاله، فقاتلناه مزاحفةً تلقى أطرافنا أطرافه، ونتحرز منه تحرزاً حصيناً، وندفع الأيام^٢ حتى نصيب منه غرَّة ولعلنا نظر به. ثم قال الملك للثالث: ما ترى فيما قال أصحابك؟ قال: لم يقول شيئاً، ولعمري ما مدافعة الأيام والليالي بمستقرٍ لنا فيما بيننا وبين البويم، وما الرأي إلى أن نذكِي العيون والطلائع بيننا وبين العدو، وننتظر هل يقلن صلحاً أو فديةً أو خراجاً نؤديه إليهم، وندفع عن أنفسنا خوفهنَّ، ونأنمنُ في أوطاننا وأوكارنا؛ فإنَّ من الرأي للملوك إذا اشتدت شوكة عدوَهم وخافوا على أنفسهم ورعاتهم الهمة والفساد، أن يجعلوا الأموال جنةً للرعيَّة والبلاد. فقال الملك للرابع: ما رأيك أنت فيما قال أصحابك، والصلح الذي ذكر هذا؟ قال: لا أرى ذلك، بل ترك أوطاننا والاصطبار على الغربة وشدَّة المعيشة أحبُ إلينا من وضع أحاسينا، والخضوع لعدوَنا الذي نحن خيرُ منه وأشرف، مع أنني قد عرفت أناً لو عرضنا ذلك عليهنَّ لم يقبن إلا بالاشتطاط، وقد يُقال: قارب عدوَك بعض المقاربة تنلُ منه حاجتك، ولا تقارب كل المقاربة فيجرئ عليك بها، ويضعف ويدلُّ لها جُندُك، ومثل ذلك مثلُ الخشبة القائمة في الشمس، فإنَّ أملتها قليلاً زاد ظلها، وإن جاوزت الحدَّ في إمالتها ذهب الظل، وليس عدوُنا براضٍ مناً بالدون في المقاربة، فالرأي لنا المحاربة والصبر. فقال الملك للخامس: ما رأيك أنت؟ آصلح أم القتال أم الجلاء؟ قال: أمماً القتال

^٢ في الأصل: «إذا أقبل عدوُنا لقيناه حتى نصيب منه غرَّة»، ويظهر من قول الوزير الثالث في هذه الصفحة: «ولعمري ما مدافعة الأيام والليالي ... إلخ». أنه سقطت جملة فيها ذكر المدافعة، لذلك أخذنا من نسخة شيخو ما يستقيم به السياق، وهذه الزيادة في النسخ الأخرى أيضًا.

فلا سبيل إلى قتال من لا نقاربه في القوّة والبطش؛ فإنه من أقدم على عدوه استضعافاً له اغتر، ومن اغترًّ أمكن من نفسه ولم يسلم، وأنا لل يوم شديد الهيبة، ولو أنها أضررت عن قتالنا، وقد كنّا نهاها قبل إيقاعها بنا، فإن العاقل لا يأمن عدوه على كل حال؛ إن كان بعيداً لم يأمن من معاودته، وإن كان متكتشاً لم يأمن استطراده، وإن كان قريباً لم يأمن مواabitته، وإن كان وحيداً لم يأمن مكره، وأكثيُّ الأقوام من لم يكن يلتمس^٣ الأمر بالقتال ما وجد إلى غير القتال سبيلاً؛ فإن النفقه في القتال من الأنفس، وغير ذلك إنما النفقه فيه من الأموال، فلا يكون قتالُ اليوم من شأنكم؛ فإنَّ من يواكل الفيل يواكل الحيف.^٤ قال الملك: فما ترى إذ كرهت ذلك؟ قال: نأتمن ونتشاور، فإنَّ الملك المشاور المؤامر يُصيّب في مؤامراته ذوي العقول من نصائحه من الظفر ما لا يُصيّب بالجنود والزحف وكثرة العدد، فالمملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأي الوزراء الحَرَمة كما يزداد البحر بمowardه من الأنهر، ولا يخفى على الحازم قدر أمره وأمر عدوه، وفرصة قتاله، ومواضع رأيه ومكاييده.

ولا ينفك يعرض الأمور على نفسه أمراً أمراً، يتربّى في الإقدام على ما يريد منها، والأعوان الذين يستعين بهم عليها، والعُدُّ التي يُعدُّ لها، فمن لا يكون له رأي في ذلك ولا نصيحة من الوزراء الذين يُقبل منهم لم يلبث، وإن ساق القدر إليه حظاً، أن يُضيّع أمره، فإن الفضل المقسم لم يقيِّض للجمال ولا للحسب^٥، ولكنه وُكّل بالعقل المستمع

^٣ هممنا بأن نحذف «يكن» من هذه الجملة، ثم رأينا أنها تشبه أن تكون من أثر الترجمة الفارسية، فإن استعمال الفعل «يكون» مألوف في مثل هذا التركيب بالفارسية.

^٤ هذه الجملة: «من يواكل الفيل يواكل الحيف» من عجائب التحرير في هذا الكتاب، فهي في شيخو: «من يرى كل القتل يرى الخير»، وفي نسختنا: «من يرا كل القتل يرا كل الحيف»، وقد رجعنا إلى السريانية فإذا فيها: «من يقارب الفيل يهرب من نفسه». فحزننا أن «القتل» محرفة عن «الفيل»، ورجعنا إلى ابن الهبارية فإذا فيها:

فإن من واكل فيلا هائلا فللبلاء والشقاء وأكلا

فعرفنا أن «يراكل» محرفة عن «دواكل» وصحّنا الجملة، وفي الترجمة الفارسية: «هركه بابيل آويزد زير آيد» أي من يتعلّق بالفيل يُصرع.

^٥ في الأصل: «لم يقيِّض المحتال ولا للحسب»، وفي شيخو: «لم يقيِّض للجهال ولا للحسيب»، وكلتا العبارتين محرفة، وقد عرفنا بمعونة النسخة الفارسية أن الصواب ما أثبتناه هنا.



من ذوي العقول، وأنت أيها الملك كذلك، وقد استشرتني في أمر أريد أن أجيبك في بعضه علانية وفي بعضه سراً. أما ما لا أكره أن أعلنه فإني كما لا أرى القتال لا أرى الخضوع بالخروج والرضا بذل الدهر؛ فإن العاقل الكريم يختار الموت كريماً محافظاً على الحياة خزياناً ذليلاً، وأرى أن نؤخر النظر في أمرنا، ولا يكون من شأنك التثبط والتهاون؛ فإن التهاون رأس العجز. وأما ما أريد إسراره فليكن سراً، فإنه قد كان يُقال: إنما يُصيب الملوك الظفر بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار، وإنما يُطلع على السر من قبل خمسة: من قبل صاحب الرأي، ومن قبل مشاوره، ومن قبل الرسُل والبرُّ، ومن قبل المستمعين الكلام، ومن قبل الناظرين في أثر الرأي وموقع العمل بالتشبيه والتظني، ومن حصن سره فإنه من تحصينه إياه في أحد أمرين: إما ظفر بما يريد، وإما سلامه من عييه وضره إن أخطأه ذلك، ولا بدًّ من نزلت به نائبة من استشارة الناصح، وطلَب من يعاونه على الرأي، ويُفضي إليه، فإنَّ المستشير، وإن كان أفضلَ من

المستشار رأيًّا، فإنه يزداد بالمشورة رأيًّا وعقلاً؛ كما تزداد النار بالوقك ضوءاً، وعلى المستشار موافقة المستشير على صواب ما يرى، والرفق به في تصريحه ورده عن خطأ رأيٍ – إن كان منه – وتقليلُ الرأي فيما يُشكّل عليه حتى يستقيم لهما سُرهما، فإن لم يكن المستشار كذلك، فهو على المستشير مع عدوه، كالرجل الذي يرقى الشيطان ليرسله على الإنسان، فإذا لم يُحِكم الرُّقْبة كان به يتلبَّس، وإياه يأخذ. وإذا كان الملك مُحصّناً لأسراره، متخيّراً للوزراء، مهيباً في أنفس العامة، بعيداً من أن يُعلَم ما في نفسه، لا يضيع عنده حُسْنُ بلاء، ولا يسلِّم منه ذو جُرم، مقدّراً لما يُفيد وما ينفق، كان خليقاً ألا يُسلِّب صالح ما أُعطيَ.

والأسرار منازل؛ فمن السر ما يدخل فيه الرهط، ومنه ما يدخل فيه الرجالن، ومنه ما يستعن فيه بالقوم، ولا أرى لها السر – في قدر منزلته – أن يشتراك فيه إلا أربع آذان ولسانان؛ فنهض الملك فخلا معه واستشاره، فكان مما سأله عنه أن قال: هل تعلم ما كان سبب عداوة ما بيننا وبين البويم؟ قال: نعم! كلمة تكلّم بها غرابٌ مرة، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن جماعةً من الطير لم يكن لها ملك، وأنها اجتمعت آراؤها على يوم لتملّكه عليهما، فبيّنما هم في ذلك إذ وقع لهم غراب فقال بعضهم: انتظرن حتى يأتيانا هذا الغراب لاستشيره في أمرنا؛ فأتاهنَّ الغراب فاستشرنه فيما قد أجمعن عليه من تملك البويم، فقال الغراب: لو أنَّ الطير كلَّها فقدت وبادت، وفقد الطاووس والبط والحمام والكركي، لما اضطُررتَن إلى تملك البويم أقبح الطير منظراً، وأسوئها مخيراً، وأقلَّها عقولاً، وأشدَّها غضباً، وأبعدها رحمةً، مع الذي بها من الزمانة والعشَّى بالنهايَّ، ومن شرُّ أمورها سوء تدبّيها، ولا يطيق طائر يقرب منه لصلفه وخبث ننته وسوء خلقه، إلَّا أن ترين تملكه وتدبر الأمور دونه؛ فإنَّ الملك، وإن كان جاهلاً، إذا كان يُقدر على الدنو منه وكانت قرابينه وزواره ورسله صالحين نفذَ أمره ورأيه واستقام له ملكه، كما فعلت الأرنب التي زعمت أنَّ القمر ملوكها، وعملت برأيها؛ قال الطير: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أنَّ أرضَها من أرض الفيلة، تتبعها عليها السنون وأجدبت، فقلَّ الماء في تلك البلاد وغارت العيون، وأصاب الفيلة عطش شديد، فشكَّت ذلك إلى ملوكها، فأرسل الملك رسُلَه وروَادَه في التماس الماء في كل ناحية، فرجع إليه بعض رسُلَه فأخبره بأنَّه وجد في بعض الأمكنة عيناً تدعى القمرية، كثيرة الماء، فتوجَّه ملك الفيلة بفيلة إلى تلك العين ليشربن منها، وكانت تلك الأرض أرضَ أرانب، فوطئت الفيلة الأرانب بأرجلها في حِرَتها فأهلken أكثرها، فاجتمع البقية منها إلى ملوكها

فُقلن له: قد علمت ما أصابنا من الفيلة، فاختَلْ لنا قَبْل رجوعهِنَّ علينا، فإنَّهُنَّ راجعات لوردهنَّ وْمُفْنِيَاتُنَا عن آخرنا، فقال ملكهنَّ ليحُسْرني كُلُّ ذي رأيٍ برأيهِ، فتقىدم خُرَز منها يُقال له فَيروز، وقد كان الملك عرفه بالآدب والرأي، فقال: إن رأيَ الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويبعث معي أميناً يرى ويسمع ما أقول وما أصنع ويخبره به، فليفعل. فقال له ملك الأرباب: أنت أميني، وأنا أرضي رأيك، وأصدق قولك، فانطلق إلى الفيلة وبلغَ عنِي ما أحبت، واعمل برأيك، واعلم أنَّ الرسول به وبرأيه وأدبه يُعتبر عقل المرسل وكثيرٌ من شأنه، وعليك باللين والمواتاة، فإنَّ الرَّسول هو يُلِين القلب إذا رَفَق، ويختشن الصدر إذا خرق. فانطلق الأرباب في ليلَةِ القمر فيها طالع، حتى انتهى إلى موضع الفيلة، فكره أن يدنو منها فيطأنه بأرجلهنَّ وإن لم يُرِدْن ذلك، فأشرف على تلٌ فنادي ملك الفيلة باسمه، وقال له: إنَّ القمر أرسلني إليك، والرسولُ مبلغٌ غيرٌ ملوم وإنَّهُ أَغْلَظ في القول. فقال له ملك الفيلة: وما الرسالة؟ قال: يقول لك القمر: إنه من عرف فضل قوتَه على الضعفاء فاغترَ بذلك من الأقوباء كانت قوتَه حَيْنًا وَبَالًا عليه، وإنك قد عرفت فضل قوتَك على الدواب فغرَ ذلك مني فعمدت إلى عيني التي تُسمَّى باسمِي فشربت ماءها وكدرَتْ أنت وأصحابك، وإنني أتقدُم إليك وأذنرك أَلَا تأتِيَها فَأُغْشِيَ بصرك وأتَيَ نفسك، وإن كنت في شَكٍ من رسالتي، فهلَمَ إلى العين من ساعتك، فإني مُوافيك بها. فعجب ملك الفيلة من قول فِيروز، وانطلق معه إلى العين، فلما نظر إليها رأى ضوء القمر في الماء، فقال له فِيروز: خذ بخرطومك من الماء واغسل وجهك واسجد للقمر، ففعل، ولما دخل خرطومه إلى الماء فحرَّكه خُلِيلَ إليه أنَّ الماء يرتعد، فقال ملك الفيلة: وما شأن القمر يرتعد؟ أتراه غضب من إدخالَ حَقْلَتِي في الماء؟ قال: نعم، فاسجد له. فسجد الفيل للقمر وتاب إليه مما صنع، وشرط له أَلَا يعود هو ولا أحدٌ من فيلاته إلى العين.

قال الغراب: ومع ما ذكرت لكم من أمر اليوم فإنَّ من شأنها الخبَّ والخديعة، وشُرُّ الملوك المخادع، ومن ابْتُلَى بسلطان المخادعين أصابه ما أصاب الصَّفِيد والأرباب اللذين حَكَمَا السُّنُور الصَّوَام، قالت الطير: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: كان لي جارٌ من الصفارِد، وجحره قريب من الشجرة التي فيها وكري، وكان يُكثُر مواصلتنا، وطال جوار بعضنا البعض، ثم إنني فقدته فلم أدر أين غاب، وطال غيابه حتى ظننتُ أنه قد هلك، فجاءت أرباب إلى مكانه لتسكنه، فكرهتُ أن أخاصمهما في مكان الصَّفِيد ولا أدرري ما فعل به الدهر، فلبيث الأرباب في ذلك المكان زماناً، ثم إنَّ الصَّفِيد رجع إلى مكانه، فلما وجد فيه الأرباب قال لها: هذا المكان مكاني، فانتقلتْ عنه، قالت الأرباب: المسكن في يدي،

وأنت المدعى، فإن كان لك حق فاستعد على، قال الصفرد: المكان مكاني، ولي على ذلك البينة، قالت الأربن: نحتاج إلى القاضي قبل البينة، قال الصفرد: هنا قريب من القاضي، فانطلقي بنا إليه، فقالت الأربن: ومن القاضي؟ قال الصفرد: سنور متبع يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يؤذني دابة ولا يأكل إلا الحشيش، فاذهبي بنا إليه؛ فانطلقا، وتبتعهما لأنظر إلى الصوام وقضائهما بينهما، فأتيا إليه هائبين له، فلما رآهما قد أقبلاه من بعيد انتصب قائما يُصلّي، فتعجبت الأربن مما رأت منه، ولما صارا إليه دَنَوا منه هائبين له، فطلبوا إليه أن يقضي بينهما، فأمرهما أن يقصا قضائهما عليه، وقال لهما: لقد أدركني الْكِبْرُ وَتَقْلُ سمعي فما أكاد أسمع، فادنوا مني لأسمع منكم، فَدَنَوا وأعادا عليه قضائهما، فقال: قد فهمت ما قضيتما، وإنني بادئهما بالنّصيحة قبل القضاء، أمركمما لا تطلبوا إلا الحق؛ فإن طالب الحق هو الذي يُفْلِح وإن قُضي عليه، وطالب الباطل مخصوص وإن قُضي له، وليس لصاحب الدنيا في دنياه شيء، لا مال ولا صديق، إلا عمل صالح قدّمه فقط، والعاقل حقيق أن يكون سعيه فيما يبقى ويعود عليه نفعه، ويمقت ما سوى ذلك؛ ومنزلة المال عند العاقل منزلة القذى، ومنزلة النساء منزلة الأفاعي، ومنزلة الناس عنده — فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من الشر — منزلة نفسه، فلم يزل يقص عليهما ويدنوان منه ويستأنسان به؛ حتى وثب عليهما جمِعاً فقتلتهما.

ثم قال الغراب: واليوم تجمع مع سائر العيوب التي وصفت المكر والخدعية، فلا يكونن تملّك اليوم منرأيكن، فصدرت الطير عن خطّة الغراب ولم تُمْلِكِ اليوم، فقال اليوم الذي كان اختير للملك: لقد وَتَرَتِنِي أعظم التّرة، فما أدرى هل سلف إليك مني سوء استحققت به هذا منك؟ وإنما فاعلم أنّ الفأس يقطع بها الشجر فتنبت وتتعود، والسيف يقطع به اللحم والعظم فيندمل ويلتئم، واللسان لا يندمل جُرّحه ولا يلتئم ما قطع، والنّصل من النّشابة يغيب في الجوف ثم يُنزَع، وأشباه النصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُنزع ولم تُخْرَج، ولكل حريق مطْفَئٌ: للنار الماء، وللسُّم الدواء، وللعشق الوصال، وللحزن الصبر، ونار الحقد لا تخبو، وإنكم — معاشر الغريان — قد غرستم بيننا وبينكم شجرة عداوةٍ وحقدٍ، هي باقيةٌ ما بقي الدهر.

ثم انصرف غضبان موتوراً، ونِدَمَ الغراب على ما فرط منه، وقال في نفسه: لقد خرقت فيما كان من قوله الذي جلبت به العداوة على نفسي وقومي، ولم أكن أحقر الطير بهذه المقالة، ولا أعنها بأمر ملكها، ولعل كثيرا منها قد رأى الذي رأيت، وعلم الذي علمت، فمنعها من ذلك الاتقاء لما لم أتوقعه، والنظر فيما لم أنظر فيه، ثم لا سيما إذا كان

الكلام مواجهةً؛ فإنَّ الكلام الذي يُستقبل به قائلُه السامِعَ عَمَّا يكره ممَّا يورثُ الحقد والضغينة، ولا ينبعُ له أنْ يُسمَى كلامًا ولكنْ يُسمَى سُمًا، فإنَّ العاقل، وإنْ كان واثقًا بقوته وقوله وفضله وشدة بطشه لا يحمله ذلك على أنْ يجني على نفسه عداوةً اتكالًا على ما عنده من ذلك، كما أنَّ الرَّجل، وإنْ كان عنده الترِيَاقُ والأدوية، لا ينبعُ له أنْ يشرب السمَّ اتكالًا على ما عنده من ذلك، وإنما الفضل لأهل حُسن العمل لا لأهل حسن القول؛ فإنَّ صاحب حسن العمل، وإنْ قصرَ به القول في بديهته، بينُ فضلُه عند الخبرة وعاقبة الأمْرِ، وصاحب القول، وإنْ هو أحسن وأعجَب ببديهته وحسن صفتة، لم يُحمد ذلك منه إلَّا بتحقيقه بالعمل في غُبْ أمره، فأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له، أو ليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدًا ولا أروي فيه مرارًا؟ وأنا أعلم أنَّ مَنْ لم يُعمل رأيه بتكرار النَّظر ولم يستشر النصائح الالْبَاءِ في أمره، لم يُسرَ بموضع رأيه، ولم يحمد غُبْ أمره، فما كان أغذاني عَمَّا اكتسبت في يومي هذا وما وقعت فيه من الغمِّ!

فتعاتب الغراب نفسه بهذا ثم انطلق.

فهذا ما سأله عنه من العلة التي بدأت بها العداوةُ بين البوم والغرابان، قال الملك: قد فهمتُ هذا، فخذ بنا فيما نحن أحوج إليه اليوم، وأشار علينا برأيك الذي ترى أنَّ نعمل به فيما بيننا وبين البوم، قال الغراب: أمَّا القِتَال فقد كنت عرفتُ رأيَك فيه وكراهيتي له، وأنا أرجو أنْ أقدر من الحيل على بعض ما فيه الفرج، فإنه رُبُّ قومٍ احتالوا برأيِّهم في الأمر الجسيم حتى ظفروا منه بحاجتهم التي لم يكونوا قدروا عليها بالماكرة، كالمَكْرَةِ الذين مَكَرُوا بالناسِك حتى ذهبوا بعريضه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أنَّ ناسًا اشتري عريضاً ضخماً ليجعله قُربانًا، فانطلق به يقوده، فبصُرَ به قومٌ مَكْرَةً، فأنتمروا ليخدعواه عنه، فعرض له أحدُهم فقال له: أيها الناسِك، ما هذا الكلب معك؟ ثم عرض له آخر فقال: إنِّي لأظنُ أنَّ هذا الرجل الذي عليه لباس النَّسَاك ليس بناسِك، فإنَّ الناسِك لا يقود الكلاب، ثم عرض له آخر فقال له: أنت ت يريد الصيد بهذا الكلب؟ فلما قالوا له: ذلك لم يشكَّ أنَّ الذي معه كلب، فقال في نفسه: لعلَّ الذي باعني سحرني وخدعني، فخلَّ عنَه، فأأخذَه النَّفر فذبحوه واقتسموه.

وإنما ضربتُ لك هذا المثلِ لما أرجو أنْ نُصبِّ من حاجتنا بالملكر والرفق، فأنا أرى أنَّ يغضِّب علىَ الملك فيأمر بي على رءوس جنده فأضربَ وأنقر حتى أتخضب بالدم، ويُنْتَفَ ريشي وذنبَبي، ثم أطْرَح في أصل الشجرة، ثم يرتحل الملك وجنده إلى مكانٍ كذا

وكذا حتى أمُكْرَمَى، ثم آتى الملك فأعْلَمَهُ الأمر؛ ففعل به الملك ذلك، وذهب بغربانيه إلى المكان الذي وصف له.

ثم إنَّ اليوم جاءت من ليلتها فلم تجد الغريبان، ولم تفطن بالغراب في أصل الشجرة، فأشقق الغراب أن ينصرفُن ولا يرَيْنِه فيكون تعذيبُه نفسَه باطلًا، فجعل يئنَ ويهمس حتى سمعه بعض اليوم، فلما رأينه أخرين به ملِكَهُنَّ، فعمد نحوه في بومات يسألُه عن الغريبان؛ قال الغراب: أنا فلان بن فلان، وأمًا ما سألهُنَّ عنه من أمر الغريبان، فأنت ترى حالٍ وما صنعوا بي، قال ملك اليوم: هذا وزيرُ ملك الغريبان وصاحبُ رأيه، فسلوه بأي ذنبٍ صُنِعَ به هذا؟ قال الغراب: سَفَهُ رأيي فعلَ بي ما ترى، قال الملك: وما ذلك السفة؟ قال الغراب: إنه لَمَا كان من إيقاعكَنَّ بنا ما كان استشارانا ملكتنا فقال: يا أيها الغريبان! أما ترون ما نزل بنا من اليوم؟ وكنت من الملك بمنزلة وبمكان، فقلت: أرى أنه لا طاقة لكم بقتال اليوم؛ فإنَّه أشدُّ بطشًا وأجرأ قلوبًا، ولكنَّ الرأي لكم أن تلتمسوا الصلح وتعرضوا الفدية، فإنَّ قُبْلَ ذلك منكم وإلا فاهربيوا في البلاد، وأخبرت الغريبان أن قتالكَ خيرٌ لكنَّ، وشرٌّ لهنَّ، وأنَّ الصلح أفضلُ ما هنَّ مصيباتٌ منكَنَّ، وأمرتُهُنَّ بالخصوص، وضربتُ لهنَّ في ذلك مثلاً فقلت: إنَّ العدوَ الشديد لا يرُدُّ بأسه وغضبه شيءٌ هو أمثلُ من الخصوص له، ألا ترون أنَّ الحشيش إنما يسلم من الريح العاصف بلينه وانثنائه معها حيثما مالت، والشجرة العظيمة تحطمها لانتسابها لها، والبعوضة تزيد احتلام النار ولا تتقىها فتحترق منها؟ فغضبن من قولي وزعمن أنهنَّ يُرِدُّنَ القتال، واتَّهَمْتني وقلن: بل مالَت ملك اليوم علينا وغشتنا، ورددن رأيي ونصححتي، وعدَّبَنِي بهذا العذاب. فلما سمع ملك اليوم ما قال الغراب استشار وزيراه فقال لأحدِهم: ما ترى في هذا الغراب؟ فقال: لستُ أرى أن نناظر هذا، وليس لك في أمره نظرٌ إلَّا المُعاجلة بالقتل؛ فإنَّ هذا من أفضل عُدُد الغريبان، وفي قتله لنا فتح عظيمٌ وراحةٌ من مكيدته، وفقدُه على الغريبان شديد، وقد كان يُقال: من استمكن من الأمر الجسيم فأضاعه لم يقدر عليه ثانيةً، ومن التمس فرصة العمل وأمكنته ثم غفل عنها فاته الأمر ولم تَعُدْ إليه الفرصة، ومن وجد عدوَه ضعيفًا فلم يستَرِجْ منه أصابته الذَّادمة حين يقوى العدوُّ ويستَعدُّ، فلا يقدر عليه؛ فقال الملك لآخر من وزرائه: ما ترى في هذا الغراب؟ قال: أرى ألا تقتله؛ فإنَّ العدوَ الذليل الذي لا شوكة له أهلٌ أن يُصفح عنه ويُسْتَبْقَى، والمُسْتَجِيرُ الخائف أهلٌ أن يؤمن ويُجَار، مع أنَّ الرجل ربما عطفه على عدوَه الأمر اليسير؛ كالتجار الذي عطف عليه السارقُ امرأته بأمر لم يتعمده؛ قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أنَّ تاجراً

مُكثراً كان كبير السن، وكانت امرأته شابة ذات جمال، وكان لها عاشقاً، وكانت له قالبة مُبغضة لا تتمكنه من نفسها، ولا يزيد ذلك إلا حبّاً لها، ثم إنَّ سارقاً أتى بيت التجار ليلة، فلما دخل البيت وافق التجار نائماً وامرأته مُستيقظة، فذعرت من السارق ووثبت إلى التجار فالتزمه، فاستيقظ التجار وقال: من أين هذه النعمة؟ فلما بصر بالسارق قال: أيها السارق، أنت في حلٍّ مما أردت أخذَه من مالي ومتعاعي، ولك على الفضل بما عطَفتَ علىَ هذه المرأة من معانقتي.

ثم إنَّ الملك سأله الثالث من وزرائه عن رأيه في الغраб، فقال الثالث: أرى أن تستبقيه وتحسن إليه؛ فإنه خليق بمناصحتك، وإنَّ من إحكام تمكُن الرجل من أعدائه أن يستدخل منهم أعواناً على البابرين، وإنَّ ذا العقل يرى ظفراً حسناً معاداً بعض عدوه بعضاً، وإنَّ اشتغال بعض العدو ببعض واحتلافهم نجاة له كنجاة الناسك عند اختلاف اللص والشيطان. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أن ناساً أصاب مرة بقرةً حلوياً فانطلق بها يقودها، وتبعه لصٌ فحده نفسه بأخذها، وتبع اللصُّ شيطان في صورة إنسان، فقال اللصُّ للشيطان: من أنت؟ قال: أنا شيطان أريد أن أتبع هذا الناسك، فإذا نام خنقته، فأنت ماذا؟ قال: وأنا أريد أن أتبعه إلى منزله لعلي أسرق البقرة، فانطلقا مصطحبين حتى انتهيا إلى منزل الناسك مُمسيناً، فدخل الناسك وأدخل بقرته ثم تعشَّى ونام، فأشفق اللصُّ أن يبدأ الشيطانُ بالناسك قبل أن يسرق البقرة فيصيح فتجتمع الناس بصوته فلا يقدر على سرقة البقرة، فقال له: انتظر حتى أخرج البقرة، ثم عليك بالرجل، فأشفق الشيطان أن يبدأ اللصُّ بالبقرة فيتبَّعُ الناسك فلا يقدر على أخذَه، فقال له: بل أنظِرني حتى أخْنُقه ثم عليك بالبقرة، فأبى كل واحدٍ منهم على صاحبه، فلم يزالا في اختلاف حتى نادى اللصُّ الناسك أَنْ انتَهِ؛ فهذا الشيطان يُريد أن يخْنُكَ، وناداه الشيطان: أيها الناسك، إنَّ هذا اللصُّ يريد أن يسرق بقرتك، فانتبه الناسك وجيرانه لصوتهم وهرب الخبيثان.

فلما فرغ الثالث من كلامه قال الأول الذي أشار بقتل الغраб: أراكُنَ قد غرَّكَنَ هذا الغраб وخدعكَنَ كلامه وتضرُّعه، فأنتَ تُردنَ تضييعَ الرأي والتغريـر بجسمِ الأمور، فمهلاً مهلاً عن هذا الرأي، وانظُرْنَ نظَرَ ذوي اللبِّ الذين يعرفون أمورهم وأمور عدوهم، ولا يثنِكَنَ عن رأيكَنَ ف تكونوا كالعجزة الذين يغترون بما يسمعون، وتلئِنُ قلوبهم لعدوهم عند أدنى ملْقٍ وتضرُّعٍ، و تكونوا بما تسمعون أشدَّ تصديقاً منكم بما تعلمون؛ كالنَّجار الذي كذَّب ما رأى وصدقَ بما سمع، فاغترَّ وانخدع؛ قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال



الوزير: زعموا أنّ نجّاراً كانت له امرأة يحبُّها، وكانت قد علقت رجلًا، فاطلَع على ذلك بعض أهل النجّار فأخبره، فأحَبَّ أنْ يتيقن ذلك فقال لامرأته: إني أريد الذهاب إلى قريةٍ هي مناً على فراسخ لأعمل هنالك عملاً لبعض الأشراف، وإنِي غائبٌ عنك أيامًا فأعدّي لي زادًا؛ ففرحت المرأة بذلك وأعدّت له زادًا، فلماً أمسى قال لها: استوثقي من باب الدار واحفظي بيتك حتى أرجع إليك، فخرج وهي تنتظر إليه حتى جاوز الباب، ثم دخل من مكان خفيٍّ من منزل جار له، واحتال حتى دخل تحت سريره، وأرسلت المرأة إلى خليلها أن انتَنِتَ؛ فإنَّ الرجل النجّار قد خرج في حاجةٍ له يغيبُ فيها أيامًا، فأتتها الرجل فهياً له طعامًا فأكلَّا وسقَتْه، ثم تصاجعاً على السرير ولبثَا في شأنهما ليلًا طويلاً، ثم إنَّ النجّار غلبَ النعاس فنام، فخرجت رجله من تحت السرير، فرأتها امرأته فأيقنت بالشرّ فسارَت خليلها أنِ ارفع صوتك فسلني: أيما أحُبُّ إلَيْكَ أنا أو زوجك، وإذا امتنعت فألْحَ على، فسألها عما قالت عليه فردَّتْ عليه: يا خليلي، ما يضطرك إلى هذه المسألة، وما

حاجتك إليها؟ فألحَّ عليها كما أوصته، فقالت له: ألسْت تعلمُ أَنَّا — معشرَ النِّسَاء — إنَّما نُريدُ الْأَخْلَاء لقضاء الشهوة، ولسنا نلتفت إلى أحبابهم ولا إلى شيءٍ من أمورهم، فإذا قضينا من أحدهم أرْبَا كان كغيره من الناس، فَأَمَّا الزَّوج فإنه بمنزلة الأب والأخ والولد، وأفضلُ من منزلتهم! فلحا الله امرأة لا يكون زوجُها عندها كعدل نفسها أو أحبَّ إليها منها! فلما سمع النجار هذه المقالة وثقَ من زوجته باللَّوْدَة، وبقي موضعه إلى الغد، فلما علمَ أَنَّ الخليل قد خرج، قام فوجد امرأته مت-naومة، فقعد عند رأسها وجعل يذبُّ عنها، فلما تحركت قال لها زوجها: يا حبيبة نفسي، نامي فإنك بـ الليلة ساهرة، ولو لا كراهة ما ساعكِ لقد كان بيني وبين ذلك الرجل صَبَّ شديد.

وإنما ضربتُ لكم هذا المثل لئلا تكونوا كذلك النجَّار الذي كذَّب بما علم وتغافل، فلا تُصدِّقُوا هذا الغراب في مقالته، واعلموا أَنَّ كثيراً من العدو لا يستطيع ضرر عدوه بالمباعدة حتى يلتمسه بالمقاربة والمسامحة، وإنني لم أخفِ الغربان حتى رأيت هذا الغراب، وسمعت مقالتكم فيه، فلم يلتفت ملك البويم وسائر وزرائه إلى كلامه.

ثم إنَّ ملك البويم أمرَ أن يُحمل الغراب إلى مكانهنَّ فيوصي به خيراً ويُكرَم ويُحسن إليه، فقال الوزير المشير بقتله: إذا لم يقتل الملكُ هذا الغراب فلتكنْ منزلتُه منكم منزلة العدو المخوف المحترس منه؛ فإنَّ الغراب ذو أدبٍ ومكرٍ ومكيدةٍ، وما أراه يرضي بالمقام معنا، ولا جاء إلينا إلَّا لما يُصلحه ويُفسدنا. فلم يرفع الملك بقوله رأساً، ولم يزدد إلَّا كرامةً للغراب وإحساناً إليه، وكان الغراب يكُلُّه إذا دخل عليه، ويكلُّمَ من يخلو به من البويم كلاماً يزدادون به ثقةً كل يوم، وإليه استرسالاً، وله تصديقاً، ثم إنه قال ذات يوم لجماعة من البويم وفيهنَّ البويم الذي أشار بقتله: ليُلْيَغَنَ بعضُكُنَّ الملكَ عَنِّي أَنَّ الغربان قد وترتني ترةً عظيمةً بما فضحتني وعذبتني، وأنني لا يستريح قلبي منهاً أبداً حتى أدرك منهاً ثارِي، وأنني قد نظرتُ في ذلك فلم أجدني أستطيعه وأنا غراب، وقد بلغني عن بعض أهل العلم أنهم قالوا: مَن طابت نفسه عن نفسه فأحرقها بالنار، فقد قرَّبَ قرباناً إلى الله عظيماً، وإنه لا يدعُ عن ذلك بداعٍ إلَّا استُجيبَ له، فإنَّ رأى الملك أن يأمرُ بي فأُحرق، ثم أدعُو ربِّي فيحوّلني يوماً على أنتقام من عدوِّي وأشفى غليلي إذا تحولت في صورة البويم، قال الله البويم الذي كان يُشير بقتله: ما أشَّبُهُكَ في حُسنِ ما تُبدي وسوء ما تخفي، إلَّا بالحمر الطيبة الربيح الحسنة اللون المُنْتَقَع فيها السُّمُّ الميت، أرأيتك لو أحرقناك بالنار كان جوهُرُكَ وطباعُكَ تحرق معك؟ فإنَّ الشَّرَّ يدورُ حيثما دارت، ثم تعود إلى أصلك وطبايعك؛ كالفارأة التي وجدت من الأزواج الشمس والسحابَ

والريح والجبل، فتركت ذلك كله، وتزوجت جرداً، قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال اليوم: زعموا أن ناساً كان مستجاب الدعوة، فبینا هو ذات يوم قاعد على شاطئ نهر إذ مرت به حادة في رجلها درصه؛ فوَقعت منها عند الناسك، فأدركه لها رحمة، فأخذها ولفها في رُدنه، وأراد أن يذهب بها إلى منزله، ثم خاف أن يشق على امرأته تربيتها، فدعا ربَّه أن يحوِّلها جارية، فتحوَّلت جارية وأعطيت حسناً وجمالاً، فانطلق بها الناسك إلى منزله، وقال لامرأته: هذه ابنتي فاصنعني بها صنيعك بولدك، ورباها أحسن التربية، ولم يعلِّمها قصتها وما كان منها، فلما بلغت اثنتي عشرة سنة قال لها: يا بُنيَّة! إنك قد أدركِتِ، ولا بدَّ لك من زوج يقوم بأمرك ويُكفلُك، ولنفرغ من الشغل بك، فاختاري من أحببت من الناس كلهم أزوِّجك منه، قالت الجارية: أريد زوجاً قوياً شديداً منيعاً، فقال الناسك: ما أعرف أحداً كذلك إلَّا الشمس، فانطلق الناسك إلى الشمس فقال لها: إنَّ عندي جارية جميلة، وهي بمنزلة الولد لي، وأنا أسألك أن تتزوجها، فقالت الشمس: أنا أدلُّك على مَن هو أقوى مني وأشد؛ قال الناسك: ومن هو؟ قالت: السحاب الذي يسترني ويذهب بضوئي، فأتى الناسك السحاب فسألَه تزوج الجارية، فقال: أنا أدلُّك على من هو أقوى مني وأشد، الريح التي تُقْبِلُ بي وتُدْبِرُ، فانصرف الناسك إلى الريح فسألَها تزوج الجارية، فقالت له: أنا أدلُّك على مَن هو أقوى مني، الجبل الذي لا أستطيع أن أحركه، فانطلق الناسك إلى الجبل فقال له مثل مقالته للريح، فقال له الجبل: أنا أدلُّك على من هو أقوى مني: الجردُ الذي ينقُبُني فلا أستطيع له حيلة ولا أمتنع منه؛ فقال الناسك للجرد: هل أنت متزوج هذه الجارية؟ فقال الجرد: كيف أتزوجها وجُحري ضيق؟ فقال الناسك للجارية: هل لكِ أن أدعُو ربِّي أن يصِّرِيك فأرة وأزوِّجك بالجرد؟ فرضيت بذلك، فدعا ربَّه أن يحوِّلها فأرة، فتحوَّلت فأرة وتزوجها الجرد؛ فهذا مَثُلك أيها المخادِع في العَود إلى أصلك.

فلم يلتفت ملك اليوم ولا غيره منهنَّ إلى هذا المثل، ورفقن بالغراب، ولم يزدَن له إلَّا كرامةً حتى استقلَّ ونبت ريشه ونما وصلاح وعلم ما أراد أن يعلم واطَّلَعَ على ما أراد الاطلاع عليه، ثم إنَّه راغ روغة إلى الغريان، فقال لملوكهم: أبشِّرك بفراهي مما أردتُ الفراغ منه من أمر اليوم، وإنما بقيَ ما قبلَك وقبلَ أصحابك، فإنَّ أنتم صُرُّمْتم وبالغتم في أمركم فهو هلاك اليوم؛ فقال الغريان وملوكهم: نحن عند أمرك. فقال: إنَّ اليوم بمكان كذا وكذا، وهنَّ بالنَّهار يجتمعون في مغار في الجبل، وقد علمت مكاناً كثير الحطب، فتعالوا نعمد إليه، وليرحمل كل غراب مَنَاً ما استطاع إلى ذلك النقب، وقُربَ ذلك الجبل راعي

غَنْم، وأنا مصيِّبٌ منه ناراً فألقيها في الحطب، وتعاونوا أنتم ضرباً بأجنبتكم؛ أي نفخاً وترويحاً للنار حتى تضطرم وتتأجج، فما خرج من البوم احترق بالنار، وما بقيَ مات حنقاً بالدخان؛ ففعلوا ذلك فهلك جميع البوم، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات.

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم، ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟ قال الغراب: إن ذلك كذلك، ولكنَ الرجل العاقل إذا نابه الأمرُ الفظيع الذي يخاف فيه الهلكة الجائحة على نفسه وقومه، لم يجد بدًّا من احتمال الضيق، ولم يجزع من شدة الصبر لما يرجو لذلك من روح العاقبة، ولم يجد لذلك مساعدة، ولم يُكرِّم نفسه عن الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته وهو حامدٌ لغبَ أمره، ومُغتبط بما كان من رأيه واصطباره على ما كان فيه. قال الملك: فأخبرني عن عقول البوم، قال الغراب: لم أجده فيهنَّ عاقلاً إلَّا الذي كان يشيرُ بقتلي، وكُنَّ أضعف شيءٍ رأيَا، لم ينظُرُنَّ في أمري، ولم يذكُرُنَّ أني كنت ذا منزلة من الملك، وأئْتُي أَعْدُّ من ذوي الرأي، فلم يتخوَّفُنَّ من مكري وحيلتي، وأخبرهُنَّ الحازم الرأي الناصح فرددن نصه، فلا هُنَّ عَقْلُنَّ، ولا من ذوي الرأي قِيلُنَّ، ولا حَزَرْتُنَّني ولا حَصَنْتُ سَرَهُنَّ دوني، وكان يُقال: يينبغي للملك أن يحصُّ دون المتهم سَرَهُ وأمره، فلا يدُونَ من موضع أسراره وأموره وكتُبِيهِ، ولا من سلاحه ولا من طعامه وشرابه، حتى من الماء والفرش التي يجلس عليها، والحلَّةُ التي يلبسها، والدابَّةُ التي يركبها، والأدوية التي يشربها، وإكليل الريحان الذي يضعه على رأسه، والطَّيْبُ الذي يستعمله، والشعار الذي يتخذُه، وكلُّ شيءٍ يدُونَه، ولا يأْمُنُ على نفسه إلَّا الثقة عنده.

قال ملك الغربان: لم يُهِلِكْ مِلْكُ البوم إلَّا بغُيُّهُ وضُعْفُ رأيِهِ ورأيِ وزرائهِ، قال الغراب: صدقت، قَلَّما ظفر أحد بيغي، وقلَّ من حرص على النساء فلم يفتخض، وقلَّ من أكثر من الطعام فلم يسقم، وقلَّ من ابْتُلِيَ بوزراء السوء إلَّا وقع في المهالك، وكان يُقال: لا يطمعنَ ذو الْكِبْرِ والصَّلْفُ في الثناء الحسن، ولا يطمعنَ الْخُبُّ في كثرة الصديق، ولا السيء الأدبُ في الشرف، ولا الشحِيجُ في البرِّ، ولا الحريصُ في قلة الذنوب، ولا المِلك المتهاون الضعيفُ الوزراءُ في بقاءِ مُلْكِهِ.

قال الملك: لقد احتملت مشقة شديدة بتصنُّع للبوم وتضرُّع لهنَّ، قال الغراب: إنه من احتمل مشقة يرجو فيها منفعة صبر على ذلك، كما صبر الأسود على حمل الضفدع، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أنَّ أسودَ كَبْرٍ وهِرِمَ ولم يستطع الصيد، فدبَّ مُتحالماً حتى انتهى إلى غدير كثِير الضفادع، كان يأتيه فيتصيد من ضفادعه،

فوقع قريراً من العين شبيهاً بالكتيب الحزين، فقال له أحد الضفادع: ما شأنك حزيناً؟ قال: وما لي لا أكون حزيناً وإنما كان خيرٌ عيشي مما كنت أصيد من هذه الضفادع، فابتليت ببلاء حرمته على الضفادع، حتى إنني لو أصبت بعضها لم أجترئ على أكله، فانطلق الضفدع إلى ملكها فأخبره بما سمع من الأسود، فأتى الملك إلى الأسود وسألة عن ذلك فأخبره به، فسرّه ما سمعه منه، فقال له ملك الضفادع: ولم ذلك؟ وكيف كان أمرك هذا؟ قال: إنني لا أستطيع أن آخذ من الضفادع شيئاً إلا ما يصدق به الملك على، قال: ولم ذلك؟ قال: لأنني سعيت في إثر ضفدع من أيام لآخره، فاضطررته إلى بيت ناسك، فدخل البيت ودخلت في أثره، وفي البيت ابن الناسك، فأصبت إصبع الغلام وظنته الضفدع، فلديعه فمات، فخرجت هارباً فتعيني الناسك ودعا علي ولعنني وقال: كما قتلت هذا الغلام ظلماً له، أدعوك عليك أن تتألل وتخذل وتكون مرتكباً ملك الضفادع وتحرام أكلها إلا ما يصدق به عليك ملكها، فأتيت إليك لتركتبني مقرراً بذلك راضياً به، فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود، وظنَّ أن ذلك شرف له ورفة، فركب الأسود أياماً ثم قال الأسود: قد علمت أنني محروم ملعون، ولا أقدر على الصيد إلا ما تصدق به علي من الضفادع، فاجعل لي رزقاً أعيش به، فقال ملك الضفادع: لعمري ما لك بد من رزق تعيش به ويقيمك، فأمر له بضفادعين كل يوم يؤخذان فيدعان إليه، فعاش بذلك ولم يُسره خصوته للعدو الذليل، وصار ذلك له معيشةً ورزقاً.

وكذلك كان صري على ما صبرت عليه التماس هذا النفع العظيم الذي حصل لنا به بوار عدونا والراحة منه، قال الملك: وجدت صرعة المكر أشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة؛ فإن النار لا تزيد بحرها وحديتها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها، والماء يلينه وببرده يستأصل ما تحت الأرض، وكان يقال في أربعة أشياء لا يُستقلُّ منها القليل: النار والمرض والعداوة والدين.

قال الغراب: كل ما كان في ذلك فبرأي الملك وسعادة جده، فإنه قد كان يُقال: إذا طلب اثنان أمراً ظفر به أفضلاهما مروءة، فإن استويا في المروءة فأفضلهما أعواناً، فإن استويا في ذلك فأسعداهما جدًا، وقد كان يُقال: من غالب الملك الحازم الأربع المصنوع له الذي لا تُبطره السراء ولا يُدْهشُه الخوف؛ فإن حيئه يجدر به، ثم لا سيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بالأمور وفرض الأعمال ومواقع الشدة واللين والغضب والرضا والعجلة والأناة، والناظر في يومه وغده وعواقب أعماله.

قال الملك: بل برأيك وعقلك كان هذا؛ فإن الرجل الواحد أبلغ في إهلاك العدو من كثير العدد من ذوي الباس، وإن من أعجب أمرك عندي طول لبتك عند اليوم وأنت

تسمع الغيظ وتراء، ثم لا تسقط عندهم بكلمة؛ قال الغُراب: لم أَزَلْ مُتَمَسِّكًا بأدبك أيها الملك؛ أصْبَحَ القريب والبعيد بالرُّفق واللين والمتابعة والمواتاة. قال الملك: وجدتك صاحبَ عمل، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل ليست لها عاقبة، ولقد منَ الله بك علينا مِنَّةً عظيمَةً، لم نكن نجُدُ قبلها لذة الطعام والنوم، فإنه كان يُقال: لا يجد السقِيمُ لذَّة النوم حتى يبَرُّ، ولا الرجل الشَّرِه الذي أطمعه السلطان في مال أو ولاية حتى يُنْجَزَ له ذلك، ولا الرَّجُلُ الذي قد أَلْحَ على عدوه — وهو يخافه صباحًا ومساءً — حتى يستريح منه، وكان يُقال: مَنْ أَقْلَعَ عنِ الْحُمَى استراح بَدَنه وقلبه، وَمَنْ وُضِعَ عنِ الْحِمْلِ الثَّقِيل استراح مَنْكِه، وَمَنْ أَمِنَ عدوه ثُلَجَ صدره.

قال الغراب: أَسَأَلُ الله الذي أهلك عدوك أن يمْتَعَك بسلطانك، وأن يجعل في ذلك صلاح رعيَّتك، ويُشِّرِّكهم في قُرَّةِ العين بملكك؛ فإنَّ الملك إذا لم يكن في مملكته قُرَّةُ عيون رعيَّته، فمَثَلُه مثل ذاتِ الضرع الضخم^٦ إذا وضعت ولدها لم يكن فيه ما يكفيه، قال الملك: كيف كانت سيرة ملك البويم في جنده؟ قال: سيرة بطر وأشر وفخر وخياله وعجب وضعف رأي، وكلُّ أصحابه ووزرائه كان شبيهًا به إلَّا الذي كان يُشير بقتلي. قال الملك: وما رأيت منه مما استدللت به على عقله؟ قال: لِخَلَّتين: إِحْدَاهُما: رأْيُه — كان — في قتي، والأُخْرَى: أنه لم يكن يكُنْ صاحبَه نصيحة وإن استقلَّها، ولم يكن كلامه مع هاتين كلاماً خُرقٍ ومكابرة، ولكن كان كلام رفق ولين، حتى رُبَّما أَخْبَرَه بعيه وهو لا يغضبه، إنما يَضْرِبُ له الأمثلَ ويفَحِّثُه عن عيَّبِ غيره فيعرُفُ به عييه، ولا يجد للغضب عليه سبيلاً، وكان مما سمعته يقول للملك أنَّ قال: لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره، فإنه أمرٌ جسيمٌ لا يَظْفَرُ بمثله إلَّا القليل، ولا يُنْتَال إلَّا بالحرزم، وهو خفيف الاستقرار كالقرد الذي لا يستقرُّ ساعة واحدة، وهو في الإقبال والإدبار كالرَّيح، وفي الثقل كصحبة البغيض، وفيما يُخافُ من معاجلة عطَبَه كلسعة الحَيَّةِ، وفي سرعة الذهاب كحبَّاب الماء من وَقْعِ المطر.

^٦ في شيخو: «مِثْل زَنْمَةِ العَنْزِ الَّتِي تَتَصِيدُهَا الْحَدَّاءُ، فَلَا تَجِدُ فِيهَا خَيْرًا». والظاهر أنَّها محرفة عَمَّا في النسخ الأخرى: «زنْمَةِ العَنْزِ الَّتِي يَمْصُها الْجَدِيُّ وَهُوَ يَحْسِبُهَا حَلْمَةَ الْضَّرَعِ فَلَا يَصَادِفُ فِيهَا خَيْرًا».

باب القرد والغيلم

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ هذا المثل، فاضرب لي مَثَلَ الرجل الذي يطلب حاجته حتى إذا ظفر بها أضاعها.

قال الفيلسوف: إنَّ إصابة الحاجة أهونُ من الاحتفاظ بها، ومن ظَفَرَ بأمرٍ ولم يُحسِن الاحتفاظ به أصابه ما أصاب الغيلم الذي ضيَعَ القرد بعد أن استمكَن منه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ جماعة من القردة كان لها ملك يُقال له فاردين^۱، فطالَ عُمرُه حتى بلغَ الهرم، فوثبَ عليه قرد شابٌ من أهل بيته، فقال للقردة: قد هَرِمْ هذا، وليس يقوى على الملك ولا يصلح له، وما لأهله على ذلك جنده، فنَفَّوا القرد الهرم، وملَّكوا الشاب، فانطلق هاربًا، فلحقَ بساحل البحر، فانتهى إلى شجرةٍ من شجر التين نابتَةً على شاطئِ البحر، فجعل يأكل من تينها، فسقطت منه تينة في الماء، وفيه غَيْلَم — وهو السحلافة الذكر — فلما سقطت التينة أخذها الغيلم فأكلها، فلما سمع القرد وَقْعَ التين في الماء أعجبه وولَعَ بالقائه في الماء، وجعل الغيلم يأخذه فيأكله، ولا يشكُ أنَّ القرد إنما يطرح التين من أجله، فخرج الغيلم إلى القرد فتصافحاً وتصادقاً، وألف كل واحدٍ منهما صاحبه، ولبثا زماناً لا ينصرف الغيلم إلى أهله، وإنَّ زوجة الغيلم حزنت لغيبة زوجها، فشكَت ذلك إلى صديقة لها وقالت: لعلَّه أن يكون قد عَرَضَ له عارضاً من شَرّ! فقلَّت لها صديقتها: لا تحزنني؛ فإنه قد يَغْنِي أنَّ زوجك بالساحل مع

^۱ في النسخ الأخرى ما عدا شيخو: « Maher »، وفي شيخو: « قادرین »، وهو تحرير « فاردين »، وفي السريانية الحديثة: « بلودین » وتعريبها: « فاردين » كما في نسختنا. وفي السريانية القديمة: « بوليكيك »، وفي السنسكريتية: « ركتا موخا »، فالاسم « فاردين » تتفق عليه نسختنا وشيخو والسريانية الحديثة.

قرد قد ألهه، فهما يأكلان ويشربان ويلهوان، وقد طالت غيبته عنك، فانسنه إذ نسيك، وللهم علیك إذ هنست علیه، وإن استطعت أن تحتالي للقرد فتلهلكيه فافعلي؛ فإنَّ القرد لو هلك قدِم عليك زوجُك وأقام عندك، فأشحبت زوجة الغيلم لونها وضيَّعت نفسها حتى أصابتها نَهَكة شديدةٌ وهزال.



ثم إنَّ الغيلم قال في نفسه: لاتينَ أهلي فقد طالت غيبتي، فأتأتي منزله فوجد زوجته عليه منهوكَة سيئة الحال،^٢ فقال لها: يا أختِ، كيف أنت؟ فلم تُجبه. فقال: إني أراك منهوكَة، فلم تُجبه، فأعاد المُسألة فأجابت عنها جارةً لها وقالت له: ما أشدَّ حال زوجتك!

^٢ في السريانية أن زوج الغيلم كتب إلى أنه مريض مُشفية على الموت، وأنَّ القرد أشار عليه أن يلتمس لها الدواء ويدهب إليها.

أَمَّا مَرَضُها فشديد، وَأَمَّا الدِّوَاء فأشدُّ، فَهَل لِشَدَّةِ الدِّيَاء وَعَدْمِ الدِّوَاء إِلَّا الْمَوْت؟ فَقَالَ الزَّوْجُ: فَأَخْبَرْنِي بِالدِّوَاء لَعَلِّي أَقْدِرُ عَلَيْهِ وَأَتَمْسِه حَيْثُ كَانَ، قَالَتْ: هَذَا الْمَرْضُ نَحْنُ - مَعَاشِرُ النِّسَاء - أَعْلَمُ بِهِ، وَلَيْسَ لَهُ دِوَاء إِلَّا قَلْبُ قَرْدٍ، قَالَ الْغَيْلِمُ فِي نَفْسِهِ: هَذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ، مِنْ أَيْنَ أَقْدِرُ عَلَى قَلْبِ قَرْدٍ إِلَّا قَلْبُ صَدِيقِي؟ أَفَغَادَرْ بِصَدِيقِي أَمْ مُهْلِكٌ زَوْجِي؟ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا عَذْرٌ لِي فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: إِذَا لَمْ يُسْتَطِعْ الرَّجُلُ عَظِيمًا إِلَّا بِاحْتِمَالِ صَغِيرٍ كَانَ حَقِيقًا إِلَّا يُلْتَفِتُ إِلَى الصَّغِيرِ، وَحَقُّ الْزَّوْجَةِ بَعْدَ عَظِيمٍ، وَالْمَنَافِعُ فِيهَا كَثِيرَةٌ، وَالْمَعْوِنَةُ مِنْهَا عَلَى أَمْرِ الدِّنِيَا وَالْآخِرَةِ غَيْرُ وَاحِدَةٍ، وَأَنَا حَقِيقُ أَنَّ أُوْتِرُهَا وَلَا أُضِيَّعُ حَقَّهَا، ثُمَّ غَدَا مَتَوْجِّهًا نَحْوَ الْقَرْدِ، وَفِي نَفْسِهِ مَا يَرِيدُهُ حَيْرَةً، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ إِهْلَاكِي أَخَّا وَفَيَّا وَصَوْلًا فِي سَبِّ امْرَأَةٍ مِنَ الْأَمْرُورِ الَّتِي تُخْافُ عَوَاقِبُهَا، وَلَيْسَ اللَّهُ رَضِيَّا، فَمَضَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَتَى الْقَرْدَ، فَحَيَّاهُ، وَقَالَ: مَا حَبَسَكَ عَنِّي يَا أَخِي كُلَّ هَذَا الْحَبْسِ؟ قَالَ الْغَيْلِمُ: إِنَّ مَا بَطَأَنِي عَنْكَ مَعْ شَوْقِي إِلَيْكَ الْحَيَاةِ مِنْكَ وَالْاحْتِشَامَ، لَقْلَةٌ مَكَافَأَتِي إِيَّاكَ بِحَسْنِ بِلَائِكَ وَمَعْرُوفِكَ إِلَيَّ، فَإِنِّي، وَإِنْ كُنْتَ قدْ عَرَفْتَ أَنِّكَ لَا تَلْتَمِسُ مِنِّي جَزَاءً بِمَعْرُوفِكَ، فَإِنِّي أَرِي حَقًا عَلَيَّ التَّلْتَمِسَ مَكَافَأَتِكَ، وَأَمَّا أَنْتَ فَخَلِيقُكَ خَلِيقَةُ الْكَرَامِ الْأَحْرَارِ الَّذِينَ يُنْيِلُونَ الْخَيْرَ مَنْ لَمْ يُنْيِلْهُمْ إِيَّاهُ فِيمَا مَضَى وَلَا يَرْجُونَهُ مِنْهُ فِيمَا بَقِيَ، وَالَّذِينَ لَا يَنْسُونَ جَزَاءً، فَقَالَ لِهِ الْقَرْدُ: لَا تَقُولَنَّ هَذَا وَلَا تَحْتَشِمْنِي، فَأَنْتَ الْجَامِعُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ لِلْأَمْرِيْنِ جَمِيعًا: الْابْتِدَاءُ بِمَا تَجْبَ لَكَ فِيهِ مِنِّي الْمَكَافَأَةُ، وَالْمَكَافَأَةُ مِنْكَ بِأَحْسَنِ مَا رَأَيْتَ، وَقَدْ سَقَطْتُ إِلَيْكَ مِنْ وَطْنِي شَرِيدًا طَرِيدًا، وَكُنْتَ لِي سَكَنًا وَإِلَفًا أَذْهَبَ اللَّهُ عَنِّي بِكَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ، قَالَ الْغَيْلِمُ: إِنَّ أَمْرَأًا ثَلَاثَةً تَزَدَّادُ بِهَا لَطَافَةً مَا بَيْنَ الإِخْوَانِ، وَاسْتِرْسَالُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ؛ مِنْهَا الْمَوَالِكَةُ، وَمِنْهَا الرِّيَارِيَّةُ فِي الرَّحْلِ، وَمِنْهَا مَعْرِفَةُ الْأَهْلِ وَالْحَشْمَ، وَلَمْ يَجِدْ بَيْنَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ.

فَقَالَ الْقَرْدُ: إِنَّمَا يَنْبَغِي لِلصَّدِيقِ أَنْ يَلْتَمِسَ مِنْ صَدِيقِهِ ذَاتَ نَفْسِهِ، فَأَمَّا النَّظرُ إِلَى الْأَهْلِ وَالْحَشْمِ فَإِنَّ اللَّعَابَ الَّذِي يَلْعَبُ عَلَى الْخَشْبَةِ يَنْظُرُ إِلَى كَثِيرٍ مَا لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ مِنْ أَهْلِ النَّاسِ وَحْشَمُهُمْ، وَأَمَّا الْمَوَالِكَةُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَيْلِ وَالْبَيْغَالِ وَالْحَمِيرِ يَجْتَمِعُونَ عَلَى الْأَكْلِ، وَأَمَّا دُخُولِ الرَّجُلِ بَيْتَ صَاحِبِهِ فَقَدْ يَدْخُلُ السَّارِقُ إِلَى رَحَالِ مَعَارِفِهِ لِغَيْرِهِ بِهِمْ وَإِلَطَافِهِمْ إِلَّا إِرَادَةً مَا لَهُمْ، فَلَا يَصِلُّ اللَّعَابُ النَّاسَ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى حَشَمِهِمْ، وَلَا الدِّوَابُ بَعْضُهَا بَعْضًا بِاجْتِمَاعِهَا فِي الْأَكْلِ، وَلَا الْلَّصُوصُ مَعَارِفُهُمْ بِدُخُولِهِمْ رَحَالَهُمْ، وَلَا لَهُؤُلَاءِ إِذْنَ حَرْمَةٍ وَحَقُّ لَبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ. قَالَ الْغَيْلِمُ: قَدْ صَدَقْتَ، لِعْمَرِي مَا يَلْتَمِسُ الصَّدِيقُ مِنْ صَدِيقِهِ إِلَّا الْمَوْدَةُ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ يَلْتَمِسُ مَنَافِعَ الدِّنِيَا فَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ يَنْقُطِعَ مَا

بينه وبين إخوانه، وقد كان يُقال: لا يُكثِرُنَّ الرَّجُلُ عَلَى إِخْوَانِه حَمْلَ الْمُؤْنَاتِ حَتَّى يَؤْذِيهِمْ وَيُبَرِّمُهُمْ؛ فَإِنَّ عِجْلَ الْبَقَرَةِ إِذَا أَكْثَرَ مَصَّهُ إِيَاهَا وَإِفْرَاطُهُ أَوْشَكَتْ أَنْ تَنْبَرِهِ وَتَنْفِيَهُ، وَلَمْ أَذْكُرْ مَا ذَكَرْتُ أَلَّا أَكُونْ أَعْرِفُ مِنْكَ الْكَرْمَ وَالسَّعْدَ فِي الْخَلْقِ؛ وَلَكِنْ أَحَبَبْتُ أَنْ تَزُورَنِي فِي مَنْزِلِي، فَإِنَّهُ فِي جَزِيرَةِ كَثِيرَةِ الشَّجَرِ طَيْبَةِ الْفَوَاكِهِ، فَأَسْعَفْنِي بِطَلْبِي، وَارْكَبَ ظَهْرِي لِلنَّطْلَقِ إِلَى مَنْزِلِي؛ فَرَغَبَ الْقَرْدُ فِي الْفَوَاكِهِ، وَتَابَعَ الْغَيْلَمَ وَرَكَبَ ظَهْرَهُ، فَسَبَحَ بِهِ الْغَيْلَمُ حَتَّى إِذَا لَجَّجَ بِهِ فِي الْبَحْرِ، عَرَضَ فِي نَفْسِهِ قَبْحًا مَا يَرِيدُهُ وَفَجُورُهُ وَغَدْرُهُ، فَاحْتَبَسَ مُفَكَّرًا يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي هَمَمْتُ بِهِ أَمْرٌ كُفْرٌ وَغَدْرٌ، وَمَا الْإِنَاثُ بِأَهْلٍ أَنْ يُرْكَبَ بِأَسْبَابِهِنَّ الْغَدْرُ وَاللَّؤْمُ؛ فَإِنَّهُنَّ لَا يُؤْتَقَ بِهِنَّ، وَلَا يُسْتَرَسَلَ إِلَيْهِنَّ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْذَّهَبَ يُعْرَفُ بِالنَّارِ، وَأَمَانَةُ الرَّجُلِ بِالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، وَقُوَّةُ الدَّوَابِ تُعْرَفُ بِالْحَمْلِ الثَّقِيلِ، وَالنِّسَاءُ لَيْسْ لَهُنَّ شَيْءٌ يُعْرَفُ بِهِ؛ فَلَمَّا رَأَى الْقَرْدَ احْتَبَسَ الْغَيْلَمَ وَأَنْهَ لَيْسَ يَسْبَحُ، ارْتَابَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا احْتَبَسَ الْغَيْلَمَ وَإِبْطَاؤِهِ إِلَّا لِأَمْرٍ، فَمَا يَؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ^٣ قَدْ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ مُوَدَّتِي وَإِخْلَائِي، وَانْصَرَفَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَأَرَادَ بِي سُوءً؟ فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَخْفَ وَزْنًا وَلَا أَشَدْ تَغْيِيرًا وَلَا أَسْرَعْ انْقِلَابًا مِنَ الْقَلْبِ، وَقَدْ كَانَ يُقالُ: لَا يَغْفُلُ الْعَاقِلُ عَنِ التَّمَاسِ عِلْمٍ مَا فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوَانِهِ وَصَدِيقِهِ عَنِ كُلِّ أَمْرٍ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةِ وَكَلْمَةِ، وَعِنْدِ الْقِيَامِ وَالْقَعْدَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شَاهِدٌ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ. ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلَمِ: مَا يَحْبِسُكَ؟ وَمَا لِي أَرَاكَ كَأْنَكَ مَهْمُومٌ؟ قَالَ يُهْمِنِي أَنَّكَ تَأْتِي مَنْزِلِي فَلَا تَوَافَقُ فِيهِ كُلُّ الَّذِي أَحْبَبَ لَكَ، فَإِنَّ زَوْجِي عَلِيَّةَ، قَالَ الْقَرْدُ: لَا تَهْتَمْ؛ فَإِنَّ الْهَمَّ لَا يُغْنِي شَيْئًا، وَالْتَّمَسَ لِزَوْجِكَ الْأَدْوِيَةَ وَالْأَطْبَاءَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقالُ: لِبِيذَلِ الْرَّجُلُ مَالُهُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعٍ: فِي الصِّدَقَةِ إِنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ، وَفِي مَصَانِعِ السُّلْطَانِ إِنْ أَرَادَ الْمَنْزِلَةَ فِي الدُّنْيَا، وَفِي النِّسَاءِ إِنْ أَرَادَ حَفْضَ الْعِيشِ.

قَالَ الْغَيْلَمُ: زَعَمْتُ الْأَطْبَاءَ أَنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا قَلْبُ قَرْدٍ، فَقَالَ الْقَرْدُ فِي نَفْسِهِ: وَسُوءَتَاهُ! لَقَدْ أَوْرَطَنِي الْحَرْصُ وَالشَّرِهُ عَلَى كِبِيرِ السَّنِّ مُورَطًا، لَقَدْ صَدَقَ الْذِي قَالَ: يَعِيشُ الْقَانُونُ الرَّاضِيَ أَمَنًا مُطْمَئِنًا مُسْتَرِيحًا مُرِيحاً، وَذُو الْحَرْصِ وَالشَّرِهِ لَا يَعِيشُ مَا عَاشَ إِلَّا فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ وَخَوْفٍ، وَأَرَانِي قَدْ احْتَجَتُ إِلَى عَقْلِي فِي التَّمَاسِ الْمَخْرُجِ مَا

^٣ في الأصل: «فَلَمَّا رَأَى الْقَرْدَ احْتَبَسَ الْغَيْلَمَ قَدْ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ»، وقد تداركنا السقط من النسخ الأخرى.

وَقَعَتْ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلَمِ: يَا خَلِيلِي، إِنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي لِلْخَلِيلِ أَنْ يَدْخُرَ عَنْ صَاحِبِهِ نَصِيحَةً وَلَا مُنْفَعَةً، وَإِنَّ أَخْرَى ذَلِكَ بِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلَوْ كُنْتُ عَلِمْتُ بِهَذَا كُنْتُ قَدْ جَئْتُ بِقَلْبِي مَعِي؛ قَالَ الْغَيْلَمُ: وَأَيْنَ قَلْبُكَ؟ قَالَ: خَلْفَتِهِ فِي مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، قَالَ: وَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: سُنَّةٌ فِينَا مَعْشَرَ الْقَرْوَدِ، إِذَا خَرَجْنَا إِلَى زِيَارَةِ أَخٍ أَوْ صَدِيقٍ نُخْلِفُ قَلوبَنَا لِتَزُولُ الظُّنَّةَ عَنَّا، فَإِنْ شَئْتَ أَتَيْتُكَ بِهِ سَرِيعًا، فَفَرَحَ الْغَيْلَمُ بِطِيبِ نَفْسِ الْقَرْدِ، وَانْقَلَبَ بِهِ رَاجِعًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّاحِلَ وَثَبَ الْقَرْدُ إِلَى الشَّجَرَةِ فَصَعَدَهَا، وَأَقَامَ الْغَيْلَمُ سَاعَةً يَنْتَظِرُهُ، فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ نَادَاهُ الْغَيْلَمُ: يَا خَلِيلِي، عَجَّلْ: خَذْ قَلْبَكَ وَانْزِلْ، فَقَدْ حَبَسْتَنِي، فَقَالَ الْقَرْدُ: أَظْنَكُ تَرَانِي كَالْحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ التَّعْلُبُ أَنَّهُ لِي قَلْبٌ وَلَا أَذْنَانَ، قَالَ الْغَيْلَمُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الْقَرْدُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجْمَةٍ وَمَعَهُ ابْنَ آوَى يَأْكُلُ مِنْ فُضُولِ صَيْدِهِ، فَأَصَابَ الْأَسَدَ جَرَبٌ شَدِيدٌ حَتَّى ضَعَفَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ الصَّيْدَ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ آوَى: مَا شَأْنُكَ يَا سَيِّدُ السَّبَاعِ؟ قَدْ تَغَيَّرَ حَالُكَ وَقَلْبُ صَيْدِكُ، فَأَنَّى ذَلِكَ؟ فَقَالَ الْأَسَدُ: ذَاكَ لِهَا الْجَرَبُ الَّذِي تَرَى، وَلَيْسَ دَوَائِي إِلَّا أَنْ أُصِيبَ أَذْنَيَ حِمَارٍ وَقَلْبَهُ، فَقَالَ ابْنُ آوَى: قَدْ عَرَفْتُ هَهُنَا مَكَانَ حِمَارٍ يَحْيِي بِهِ قَصَّارٌ إِلَى مَرْجٍ قَرِيبٍ مِنَّا، يَحْمِلُ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ التِّي يَغْسِلُهَا، فَإِنَّا وَضَعْ عَنْهُ الثِّيَابَ خَلَّاهُ فِي الْمَرْجِ، فَأَنَا أَرْجُو أَنْ آتِيكَ بِهِ، ثُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِأَذْنِيَهُ وَقَلْبِهِ، قَالَ الْأَسَدُ: إِنْ قَدِرْتَ عَلَى ذَلِكَ فَافْعُلْ لَا تَؤْخُرْنَّ؛ فَإِنَّ الشَّفَاءَ لِي فِيهِ، فَذَهَبَ ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمَارِ، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الْهُزَالُ الَّذِي أَرَى بِكَ؟ وَالَّذِي بَظَهَرَكَ؟ قَالَ الْحِمَارُ: أَنَا لِهَذَا الْقَصَّارِ الْخَبِيثِ، فَهُوَ يُسْيِي عَلَيَّ وَيُدِيمُ إِتَّعَابِي، وَيُنْقَلُ ظَهَرِيِّ، قَالَ ابْنُ آوَى: وَكَيْفَ تَرْضِي بِهَذَا؟ قَالَ: فَمَا أَصْنَعُ؟ وَأَيْنَ أَذْهَبُ؟ وَكَيْفَ أَفْلَتَ مِنْ أَيْدِي النَّاسِ؟ قَالَ لَهُ ابْنُ آوَى: أَنَا أَدْلُكُ عَلَى مَكَانٍ مَعْزِلٍ خَصِيبٍ الْمَرْعَى، لَمْ يَطُأْ إِنْسَانٌ قَطُّ، فِيهِ أَتَانِ لَمْ يَنْظُرِ النَّاسُ إِلَى مَثَلَهَا قَطُ حُسْنًا وَتَمَامًا، وَهِيَ ذَاتُ حَاجَةٍ إِلَى الْفَحْلِ؛ فَطَرَبَ الْحِمَارُ عِنْدَ ذَكْرِ الْأَتَانِ وَقَالَ: مَا يَحْبِسُنَا؟ أَلَا انْطَلَقْ بِنَا، فَإِنِّي لَوْ لَمْ أَرْغِبْ فِي إِخْاتِكَ كَانَ ذَلِكَ حَامِلِي عَلَى الْذَهَابِ مَعَكَ، فَنَوْجَهُهَا جَمِيعًا قَبْلَ الْأَسَدِ، وَتَقْدَمُ ابْنُ آوَى إِلَى الْأَسَدِ فَأَعْلَمُهُ، فَوَبَّ الْأَسَدُ عَلَى الْحِمَارِ مِنْ خَلْفِهِ فَلَمْ يَضْبِطْهُ، وَانْفَلَتِ الْحِمَارُ، فَقَالَ ابْنُ آوَى لِلْأَسَدِ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ؟ إِنْ كُنْتَ عَمَدًا تَرَكَتِ الْحِمَارَ فَلَمْ عَنِّيَّتِي فِي طَلَبِهِ؟ وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَضْبِطْهُ فَذَاكَ أَعْظَمُ، وَقَدْ هَلَكْنَا إِذَا كَانَ سَيِّدُنَا لَا يَضْبِطُ حِمَارًا! فَعَرَفَ الْأَسَدُ أَنَّهُ إِنْ قَالَ «تَرَكْتَهُ عَمَدًا» سَفَهَهُ، وَإِنْ قَالَ «لَمْ أَضْبِطْهُ لِضَعْفِهِ» هَانَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنْ أَنْتَ اسْتَطَعْتَ رَدًّا

الحمار إلى أخبرتك بما سألت عنه، فقال ابن آوى: لقد جرَّب الحمار مني ما جرَّب، وإنني بعد ذلك لعائِدٌ إليه فمحظاً له بما استطعت، فعاد إلى الحمار، فقال له: ما الذي أردت بي؟ قال ابن آوى: أردتُ بك الخير، ولكن الذنب لإفراط الغلمة والشهوة؛ فإنَّ التي وثبتت عليك هي الأتان التي أخبرتك عنها، وإنما وثبتت عليك من شدة الودق، فلو كنت صبرت ساعة صارت تحتك، فلما سمع الحمار بالأتان ثانية هاجت به الغلمة فانطلق مع ابن آوى يسعى، فوثب عليه الأسد فافتربه، حتى إذا فرغ منه قال ابن آوى: إنه وصف لي هذا الدواء على أن أغتسل ثم أكل الأذنين والقلب، وأجعل ما سوى ذلك قريباً، فاحتفظ بالحمار حتى أغتسل وأرجع إليك، فلما ذهب الأسد عَمَّا ابن آوى إلى أذني الحمار وقلبه فأكلها رجاءً أن يتطهَّر الأسد من ذلك، فلا يأكل من بقية الحمار شيئاً، فلما رجع الأسد قال ابن آوى: أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى: أوَّ ما شعرتَ أنَّ هذا الحمار لم يكن له قلبٌ ولا أذنان؟ قال الأسد: ما سمعتُ بأعجبَ من مقالتك! قال ابن آوى: لو كان له قلب وأذنان لم يرجع إليك الثانية بعد أن صنعت به ما صنعت!

وإنما ضربتُ لك هذا لتعلم أنني لستُ كذلك، ولكنك احتلت لي وخدعتني بقولك فكافأتك بمثل ذلك، واستدركت تفريطي وما كنت ضيئلاً من نفسي، قال الغيلم: أنت الصادق البارُّ، ذو العقل يُقْلِلُ الكلام، ويبالغ في العمل، ويعرف بالزلة، ويثبت في الأمور قبل الإقدام عليها، ويستقيل عشرة عمله بعقله، كالرجل الذي يعثر على الأرض وعليها ينهض ويستقيم.

فهذا مثل الذي يطلب أمراً حتى إذا استمكن منه أضاعه.

باب الناسِك وابن عِرس

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ هذا المثل، فاضرب لي مَثَل الرجل الذي يعمل العمل بغير رؤيَّة ولا تثبتُ.

قال الفيلسوف: من لم يكن في عمله متأنيًّا وفي أمره مُتَبَّتاً لم يبرح نادماً، ومن أمثال ذلك مَثَل الناسك وابن عِرس، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض جُرْجان ناسك، وكانت له امرأة لبشت عنده زماناً لم تلد، ثم حملت من بعد، فاستبشر بذلك الناسك وقال لها: أبشرني أرجو أن تلدي غلاماً يكون لنا فيه متع وقرة عين، وأنا متقدم في التماس ظُرُّ، ومتخِّرٌ له من الأسماء أحسنها، قالت المرأة: أيها الرجل، ما يحملك على أن تتكلم فيما لا تدري هل هو كائن أو غير كائن؟ فاسكت عن هذا الكلام، وارضَ ما قسم الله لنا؛ فإن العاقل لا يتكلم فيما لا يدرى ولا يحكم على المقادير في نفسه، ولا يقدر في نفسه شيئاً، ومن تكلَّم فيما لا يدرى — وقلَّ أن يكون — أصحاباً ما أصحاب الناسك المُهْرِيق السمن والعسل على رأسه، قال الناسك: وكيف كان ذلك؟ قالت المرأة: زعموا أنَّ ناسكاً كان يجري عليه من بيت رجلٍ من التجارِ رزقٌ من السُّوِيق والسمن والعسل، فكان يُبقي من ذلك السمن والعسل، فيجعلُ الباقي منها في جرةٍ ثم يعلقُها في بيته، فبينما الناسك ذات يوم مستلقٍ على ظهره والجرةُ فوق رأسه إذ نظر إليها فذكر غلاء السمن والعسل، فقال: أنا بائِعٌ ما في هذه الجرة بدينار، فأشتري بالدينار عشرة أعنز، فيحملن ويُلدن لستة أشهر — ثم حزر على هذا الحساب لخمس سنين، فوجد ذلك أكثر من أربع مائة عنز — ثم أبيعها فأشتري بأثمانها مائة من البقر، بكلٍّ أربعة أعنز ثوراً، وأصيب بذراً فأزرع على الشiran، فلا يأتي عليَّ خمس سنين إلا وقد أصبحت منها ومن الزرع مالاً كثيراً، فأبني بيئاً فاخراً، وأشتري عبيداً وإماءً ورياشاً ومتاعاً، فإذا فرغتُ من ذلك تزوَّجت امرأةً جميلةً ذات حسَب، فإذا دخلت بها أحبلتها،

ثم تلد ابناً سوياً مباركاً فأسميه مامه وأؤدبه أدباً حسناً، وأشتتُ عليه في الأدب، فإن لم يقبل الأدب مني ضربته بهذه العصا هكذا، ورفع العصا يُشير بها فأصابت الجرّة فانكسرت، وانصبَّ السمنُ والعسل على رأسه ولحيته.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتنتهي عن الكلام فيما لا تدرى، فاتَّعظ الناسك بقولها، ثم إنَّ المرأة ولدت غلاماً سوياً، فسُرَّ به أبوه، حتى إذا كان بعد أيام قالت المرأة لزوجها: اقعد عند الصبي حتى أغتسل وأرجع إليك، فانطلقت المرأة، ولم يقعد الرجل إلَّا قليلاً حتى جاءه رسولُ الملك فذهب به، ولم يُخَلِّفَ مع ابنه أحداً، إلَّا أنه قد كان له ابنٍ عرسٍ قد ربَّاه فتركه الرجل عند ابنه، وكان مؤذبًا معلِّماً، وذهب إلى الملك.

وكان في بيته جُحرٌ أسود، فخرج يريد الغلام، فوثب عليه ابن عرسٍ فقطعَه قطعاً، وأقبل الناسك عند انصرافه إلى منزله فدخله، فلقيه ابن عرسٍ يسعي إليه كالمُبشر له بما صنع، فلما نظر إليه الناسك متلطضاً بالدم سُلِّب عقله، ولم يظن إلَّا أنه قد قتل ولده، فلم يتأنَّ ولم يتثبت في أمره، فضرب ابن عرسٍ بعصاً كانت معه فقتله، ودخل منزله فرأى الغلام حياً والأسود مقتولاً، فأقبل يدقُّ صدره ويلطم وجهه وينتف لحيته، وجعل يقول: ليت هذا الغلام لم يولد، ولم أصر إلى هذا الإثم والغدر، فدخلت عليه المرأة وهو يبكي فقالت له: ما يبكيك؟ وما شأن هذا الأسود وابن عرس مقتولين؟ فأخبرها بالأمر وقال: هذا جزاءُ من يعمل بالعجلة ولا يتثبت.

باب إيلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند^١

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ في أمر العَجَلِ غير المُتَّبِعِ ولا الناظر في العَوْاقِبِ، فأُخْبِرُنِي ما الذي إذا عمل به الملك كُرْمٌ على رعيَّته، وثبَّتَ ملْكَهُ، وحِفِظَ أرْضَهُ؟ الْحَلُمُ أَمِّ الْمَرْوِعَةُ أَمِّ الْجُودُ أَمِّ الْجُرْأَةُ؟

قال الفيلسوف: إنَّ أَفْضَلَ مَا حَفِظَ بِهِ الْمَلِكُ مُلْكَهُ، وَثبَّتَ بِهِ سُلْطَانَهُ، وَكَرَّمَ بِهِ نَفْسَهُ، هُوَ الْحَلُمُ وَالْعُقْلُ؛ لِأَنَّهُمَا رَأْسُ الْأَمْوَارِ وَمِلَاكُهَا، مَعَ مَشَارِقَةِ الْلَّبِيبِ الرَّفِيقِ الْعَالَمِ، وَأَفْضَلُ مَا يَسْتَمْتَعُ بِهِ النَّاسُ الْحَلُمُ، ثُمَّ لِلْمَلِكِ خَاصَّةً؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَفْضَلُ وَلَا أَعْوَنُ مِنْهُ، وَمِنْ صَلَاحِ الْمَرْءِ فِي نَفْسِهِ وَمَعِيشَتِهِ، الْمَرْأَةُ الصَّالِحةُ الْفَاضِلَةُ الرَّأْيِ الْمَوَاتِيَّةُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِنْ كَانَ شَجَاعًا وَلَمْ يَكُنْ حَلِيمًا عَاقِلًا، أَوْ كَانَ حَلِيمًا عَاقِلًا وَشَافِرُ غَيْرَ لَبِيبٍ، فَإِنَّهُ يَبْهَظُ الْأَمْرُ الْيَسِيرَ حَتَّى يُرِي فِيهِ الْقَبْحَ وَالْعَصْفَ بِجَهَالَتِهِ وَخَطَأَ رَأْيِ أَصْحَابِهِ وَنَصْحَائِهِ، وَإِنْ أَصَابُوا ظَفَرًا أَوْ لَقُوا رَشْدًا سَاقَهُ الْقَدْرُ إِلَيْهِمْ صَارَتْ عَاقِةُ أَمْرِهِمْ إِلَى النَّدَامَةِ، وَإِذَا كَانَ عَلَى خَلْفِ ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ وَمِنْ نُبُلِ الْوَزِيرِ، ثُمَّ أَعْانَهُ الْقَضَاءُ، أَصَابَ الْفَلَاجَ

^١ هذا الباب مُؤَخَّرٌ عن هذا الموضع في النسخ الأخرى إلَّا في نسخة شيخو، يفصل بينه وبين «باب الناسك وابن عرس» ثلاثة أبواب في النسخ المصرية، وأربعة في نسختي اليازجي وطبارية. وهنا يبدأ اختلاف النسخ في ترتيب الأبواب، بعد اتفاقها على الأبواب الخمسة التي يتضمنها الأصل الهندي «بنجا تنترا» (انظر المقدمة). وعنوان هذا الباب في الأصل: «باب إيلاد وبيلاد وشادرم»، وقد وضعنا «إيراخت» بدلاً «بيلاد» مراعاةً لمعنى الكتاب. وفي شيخو: «باب إيلاد وشادرم وإيراخت»، وفي النسخ الأخرى العربية: «باب إيلاد وبيلاد وإيراخت»، وفي ابن الهبارية: «باب هيلاز ملك الهند وزفيره بيلاز»، وفي السريانية: «باب بيلاز الحكيم».

على من خاصمه، والغلبة على من ناواه، والسرور له، كما زعم لنا مما كان بين شادرم ملك الهند وإيراخت امرأته وإبلاد صاحب سرّه ورأيه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: ذكر لنا أنَّ إبلاد كان ناسًا مُجتهداً حسن الخلق لبيباً حليماً حكيمًا كاملاً؛ فبينما شادرم الملك نائمًا في بعض الليالي إذ رأى ثمانية أحلام، يستيقظ عند كل منها، فلماً أصبح دعا بالبرهمين – وهم النساك – فقصَّ عليهم ما رأى.

وأمرهم أن يعبروها، فقالوا له: قد رأيت أيها الملك أمراً مُنكرًا عجيباً لم نسمع بمثله فيما مضى، فإن أحببت أن تفَكِّر فيها ستة أيام ثم نأتيك في اليوم السابع فنخبرك به، فلعلنا – إن استطعنا – أن ندفع ما نتَحْوَفُ منه. فقال الملك: نعم، اعملوا برأيكم وما تعلمون أنه موافق، فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا فقالوا: ما طال العهدُ منه مُذ قتل منا اثنى عشر ألفاً، وقد استمكنا منه، فإذا أفضى إلينا بسرّه وعرَفَنا فرقه من رؤياه، فلعلنا ننتقم منه إن نحن أغلاظنا له في القول، فيحمله الخوف على أن يتَابَعَنا على ما نريد، فنأمراه أن يدفع إلينا من يكرُّ عليه من أهله ووزرائه، ونقول له: إنَّا قد نظرنا في كتابنا فلم نجد شيئاً يصرف عنك سوء ما رأيت إلَّا قتل من نُسْمِي لك، فإنَّا قال: من تريدون؟ قلنا له: إيراخت امرأتك وابنها جوبَر وابن أختك، وإبلاد٢ صاحب أمرك – فإنه ذو حيلةٍ وعلمٍ – وكاك٣ كاتبك ولسانك، والفيل الأبيض الذي تقاتل عليه، والفيelin العظيمين، والفرس الذي تركبه، والبُخْتَيَّ الذي تسير عليه، وكتاييرون٤ الفقيه، لنجعل دماءهم في أَبَرَنْ ثم نُقْعِدُك فيه، فإنَّا أردنا أن نُخْرِجَك منه اجتمعنا معشر البراهمة من الآفاق الأربع فرقيناك ومسحناك بالماء والأدهان الطيبة، ثم صَرَّيناك إلى مجلسك وقد

^٢ في النسخ اختلاف في أسماء الملكة وابنها والكاتب ... إلخ، فمن شاء فليرجع إلى ترجمة فلُكتُر صفحة ٣٠٤، ومقدمة رَيْت للنسخة السريانية صفحة XX. «إيراخت» تسمى في النسخة السريانية الحديثة «إيلار»، ولا يبعد أن يكون محرَّفًا عن «إيراخت» في الخط الفهلوi، والابن «جوبَر» يسمى في السريانية: «جور»، وهو في السننكريتي: «جوبالا».

^٣ في الأصل ونسخة شيخو وابن الهبارية والنسخ الأخرى: «كال» ولكن يتبيَّن من كلام رَيْت أنَّ أصله «كا كا»، وأن تعرييه «كاك».

^٤ في الأصل: «كبانايرون» على اختلاف الإعجماء أثناه الباب، وفي شيخو: «كنان ابزون»، وفي ابن الهبارية: «كبار»، وهو اختصار «كباريون» الذي في النسخ الأخرى، وفي السريانية القديمة: «كتارون». وفي الحديثة ما في القديمة، وأحياناً «كياكرون»، و«كيابرون»، والأصل السننكريتي: «ماها كاتيابينا». فأصَحُّ قراءة للصورة التي في نسختنا هي «كتاييرون».

أذهب الله عنك ما تجد من الحزن من سوء رؤياك التي رأيت، فإن أنت صبرت على هذا وطابت به نفسك نجوت من البلاء العظيم الذي قد رهقك وأشرف عليك، واستخلفت مكانهم مثهم، وإن لم تفعل فإننا نخوّف أن ينزع ملوك وتهلك، ويُستأصل عقبك.

فلما أبْرَمَ الْبَرَهَمِيُونَ أَمْرَهُمْ وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ أَنْتُوا الْمَلَكَ وَقَالُوا: إِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كَتَبِنَا وَتَبَحَّرْنَا فِيهَا، وَتَفَكَّرْنَا فِي رَوْيَاكَ، وَأَعْمَلْنَا الْمَعْقُولَ فِيهَا، فَلَسْنَا نَقْدِرُ أَنْ نُعْلَمَ بِمَا قَدْ رَأَيْنَا لَكَ حَتَّى تُخْلِيَ لَنَا مَجْلِسَكَ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَقَصُّوْا عَلَيْهِ الْأَمْرَ عَلَى مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ الْمَلَكُ: الْمَوْتُ دُونَ مَا قَلْتُمُوهُ، وَمَا أَسْمَعَ مِنْهُ، أَفَأَقْتَلَ هَذِهِ الْأَنْفُسَ الَّتِي هِيَ عِنْدِي عِدْلٌ نَفْسِيٌّ، وَأَحْتَمِلُ الْإِثْمَ وَالْوَزْرَ؟ وَلَا بَدَّ مِنْ الْمَوْتِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلِسْتُ مَلْكًا طَوْلَ الدَّهْرِ، وَسَوْاءٌ عَلَيَّ الْهَلَكُ وَفَرَاقُ الْأَحَبَةِ، فَقَالَ الْبَرَهَمِيُونَ: إِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كَتَبِنَا أَنَّ رَأْيِكَ هَذِهِ مُخْطَئٌ، وَأَنَّكَ لَمْ تُصِبْ إِذْ أَهْنَتَ نَفْسَكَ وَآثَرْتَ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، وَلِسْتَ لِشَيْءٍ غَيْرَهَا مُكْرِمًا إِذَا أَنْتَ أَهْنَتَهَا، وَأَنْتَ وَاجْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَوْضًا، وَلَا تَجِدُ مِنْ نَفْسَكَ عَوْضًا، وَلَعْمَرِي لَأَنْ تَفْدِيَهَا بِمَا سَمِّيَنَا لَكَ أَمْثُلًا وَأَخْيَرًا، فَيَبْقَى مَلَكُ وَسَلَطَانُكَ، وَيَصْلَحُ أَمْرَكَ، فَانظَرْ لِنَفْسِكَ وَدَعْ مِنْ سَوَاهَا؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءٌ يَعِدُهَا.

فَلَمَّا رَأَى الْمَلَكُ أَنَّ الْبَرَهَمِيِّينَ قَدْ أَغْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ وَاجْتَرَءُوا عَلَيْهِ، قَامَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، وَوَقَعَ لِوَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشَمَالًا مَحْزُونًا مَهْمُومًا، وَيَفْكُرُ فِي رَأْيِهِ: أَيِّ الْأَمْرَيْنِ يَرْكِبُ؟ أَلَمْ يَوْمَ عِيَانًا وَهُوَ يَنْظَرُ إِلَيْهِ أَوْ إِعْطَاءَهُمْ مَا سَأَلُوا؟ فَمَكَثَ كَذَلِكَ أَيَّامًا، وَفَشَّا الْحَدِيثُ فِي أَرْضِهِ، وَقَيِيلَ: لَقَدْ نَزَلَ بِالْمَلَكِ أَمْرٌ هُوَ مِنْهُ فِي كُرْبَ، فَلَمَّا رَأَى إِبْلَادَ الْأَمْرِ الَّذِي وَقَعَ فِي الْمَلَكِ مِنْ ذَلِكَ، فَكَرِرَ وَنَظَرَ، وَكَانَ قَطْنًا مَجْرِيًّا، فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَقْبِلَ الْمَلَكَ بِشَيْءٍ دُونَ أَنْ يَدْعُونِي، وَلَكِنِي أَنْطَلَقَ إِلَى إِيرَاختِ امْرَأَ الْمَلَكِ فَأَسْأَلُهَا عَنْ ذَلِكَ، فَأَتَاهَا فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ الْمَلَكَ رِكْبَ مِنْ أَمْرِهِ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ، مِنْذَ كُنْتُ مَعَهُ إِلَّا بِمَشْوَرِتِي، وَإِنِّي كُنْتُ صَاحِبَ سَرِّهِ وَلَمْ يَكُنْ يَكْتَمِنِي شَيْئًا طَرَأَ عَلَيْهِ، وَكَانَ إِذَا حَزِبَهُ أَمْرٌ مُفْظَعٌ عَزِّيْ نَفْسِهِ فِيهِ وَاصْطَبَرَ عَلَى مَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْهُ، وَذَكَرَ لِي ذَلِكَ، فَأَسْلَيْهُ عَنْ أَمْرِهِ بِأَرْفَقِ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنِّي أَرَاهُ مُسْتَخْلِيًّا بِالْبَرَهَمِيِّينَ مِنْذْ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَقَدْ احْتَجَبَ فِيهَا عَنِ النَّاسِ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى دَخْلِيَّ أَمْرِهِ، وَلِسْتُ آمِنُهُمْ عَلَيْهِ، فَادْهَبِي إِلَيْهِ وَسَلِّيْهُ عَنْ حَالِهِ، وَمَا بَلَغَهُ، وَمَا الَّذِي ذَكَرُوا لَهُ؟ ثُمَّ أَعْلَمِنِي؛ فَإِنِّي لَا أَسْتَطِعُ أَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي لَأَحْسَبُهُمْ قَدْ زَيَّنُوا لَهُ أَمْرًا قَبِيْحًا وَحَمِلُوهُ عَلَى عَظِيمَةٍ أَوْ أَغْضَبُوهُ بِشَيْءٍ شَبَّهُوا لَهُ فِيهِ؛ فَإِنَّ مِنْ أَخْلَاقِ الْمَلَكِ إِذَا هُوَ اغْتَاظَ أَلَا يَلْتَفِتَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَنْظَرَ فِيهِ، وَسَوْاءٌ عَلَيْهِ جَسِيمُ الْأَمْرِ وَحَقِيرَهَا، وَلِسْتُ أَشْكُ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْصَحُوهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

من الحقد عليه والبغض له، وأنهم إن قدروا على هلكته التمسوا له الحيلة في ذلك، قالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك كلام، ولست أطيته ما دام حزيناً، قال إبلاد: لا تحملنَ الحقد في مثل يومك هذا؛ فلن يقدر أحدٌ أن يدخل عليه غيرُك، وقد كنت سمعتُ يقول غير مرة: إني إذا حزنت واهتممت فأنتني إيراخت سرّي ذلك عنِي، فانطلق إلىه وكلميه بما تظنين أنه تطيب به نفسه ويُجلّ عنِه ما به. فلما سمعت ذلك إيراخت نهضت إلى الملك فدخلت عليه وجلست عند رأسه وقالت له: ما أمرُك أيها الملك السعيد المحمود؟ وما الذي قال لك البرهيميون؟ فإني أراك مهموماً حزيناً، فإن كان الذي ينبغي لك أن تحزن له أمراً فيه أجلاًنا وهو جلاء همك وسرورُك، واسيناك بأنفسنا، فافعل ذلك، وإن يكُ غضباً علينا، نُرضك ونأت ما يُسرُك، قال الملك: لا تسأليني أيتها المرأة عن شيءٍ فتزیديني خبلاً على ما بي؛ فإنه لا ينبغي أن يعلم ذلك لعظم خطره وشدة هوله.

قالت إيراخت: وقد صار أمري عندي إلى أن تجibني بمثل ما قد سمعت! أو ما تعلم أنَّ أفضل الرأي للملك إذا وقع به الأمر الذي يبهظه أن يشاور أهل نصيحته ومودته ومن يهُمه أمره وهمه وما أحزنه؛ فإنَّ المذنب لا يقْنط من الرحمة، ولكنه يتوب مما يخاف مغيثته، فلا يدخلنك من الهم والحزن ما أرى بك؛ فإنهما لا يرُدآن شيئاً بل يُشِّتان العدو ويسوءان الصديق، وأهلُ العلم والتجارب ينظرون في ذلك، ويصبرون أنفسهم على ما فاتهم من عَرَض الأطماء، وما نزل بهم من حوادث الزمان. فقال الملك: أيتها المرأة، لا تسأليني عن شيءٍ؛ فإنَّ في الذي تفحصين عنه دماري وهلاكك وولادك وكثير من أهل ودُيٍ؛ فإن البرهيميين زعموا أن لا بدَّ من قتلك وقتل أهلي ونصحائي، ولا خير لي في العيش بعدكم، ولا لذَّة لي بعد فراقكم، وذلك أقطع الأمور وأجلُّها خطراً في نفسي، قالت إيراخت: لا يُحِزنك الله أيها الملك ولا يسُوءك، أنفسنا لك الفداء، فإن ذلك يسير في صلاحك وبقاءك، وقد جعل الله لك من الأزواج ما فيه الخَلَف والعَوْض، ولكن أطلب إليك بعد موتي ألا تشق بالبرهيميين ولا تستشيرهم ولا تقبل رأي أحدٍ منهم، حتى تؤامر فيه أهل نصيحتك والثقة لك، وتعرف ما تُقدم عليه فيه من القتل؛ فإنَّ القتل عظيمُ الخطب شديدُ الوزر، ولست تقدر أن تُحييَ مَنْ أهلكت، وقد قيل: إن وجدت جوهراً لا تظنُ به خيراً فأردت أن تلقيه فلا تفعل حتى تُريه من يُبصره، ولا تُقرَّ عينَ عدوك من البرهيميين وغيرهم، وأعلم أنَّهم لن ينصحوك أبداً وقد قلت منهم منذ قريب اثنى عشر ألفاً، أفتظنُ أنهم نسوا ذلك؟ ولعمري ما كنتَ جديراً أن تحدّthem برؤياك، ولا تُطْلِعهم على سرك؛ فإنهم إنما يربidon بما عبروا به رؤياك، زوال مُلكك، وبوار أحبابك، واستئصال وزرائك أهل العلم والحلم

والحكمة، ومراكبِ التي تقاتل عليها الملوك، ولكن انطلق إلى كتايایرون فاذكر له ذلك وسله عما أحببت؛ فإنه لبيب أمين — وليس عند هؤلاء شيء إلا وعنده أفضل منه — وإن كان أصله من البرهميين فإنه ناسك مجتهد فقيه، فإن أشار عليك به مثل رأيهما فانتبه إليه، وإن خالفهم فاعلم أن أولئك الكذبة أعداؤك أرادوا إدخال النقص عليك في ملوكِ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ مِنْهُمْ تَسْلَى هُمَّهُ، وَأَمْرَ بِإِسْرَاجِ فَرْسَهُ، وَرَكِبَهُ وَانْطَلَقَ إِلَى كَتَايَاِرُونَ، فَلَمَّا انتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرْسِهِ ثُمَّ سَجَدَ لَهُ وَحْيَاهُ وَطَاطَأُ رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ كَتَايَاِرُونَ: مَا جَاءَ بَكَ أَيْهَا الْمَلَكُ؟ وَمَا لِي أَرَكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ مُمْتَلِئًا هَمًا وَحْزَنًا، وَلَا أَرَى عَلَى رَأْسِ الْتَّاجِ وَلَا إِكْلِيلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: كُنْتَ نَائِمًا ذَاتِ لَيْلَةٍ عَلَى ظَهَرِ إِيَوانِي، فَسَمِعْتَ مِنَ الْأَرْضِ ثَمَانِيَّةً أَصْوَاتٍ، أَسْتَيْقَظْتُ مَعَ كُلِّ صَوْتٍ ثُمَّ أَرْقَدْتُ، فَرَأَيْتُ ثَمَانِيَّةً أَحْلَامٍ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى الْبَرْهَمِينَ فَأَجَابُونِي بِمَا أَخَافُ أَنْ يَصِيبَنِي مِنْهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ، إِمَّا أَنْ أُقْتَلَ فِي حَرْبٍ وَإِمَّا أَنْ أُغَصَّبَ مُلْكِي وَأُغْلَبَ عَلَيْهِ.

فَقَالَ كَتَايَاِرُونَ: لَا يَحْرُنُكَ أَيْهَا الْمَلَكُ هَذَا الْأَمْرُ وَلَا يُوْجِلُكَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَمُوتَ الْآنَ، وَلَنْ تُسْلَبَ مُلْكَكَ، وَلَنْ يُصِيبَكَ شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ وَلَا يَصُلُّ إِلَيْكَ مَحْذُورٌ، فَأَمَّا الْأَحْلَامُ الثَّمَانِيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَ فَاقْصُصْهَا فَإِنِّي مُنْبَثِكَ بِتَأْوِيلِهَا، فَقَصَّ عَلَيْهِ الْمَلَكُ الرَّوْيَا، فَقَالَ كَتَايَاِرُونَ: أَمَّا السَّمْكَتَانُ الْحَمَرَاوَانُ الْلَّتَانُ رَأَيْتَهُمَا قَائِمَتِينَ عَلَى أَذْنَابِهِمَا تَسْتَقْبِلُكَ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ قَبْلِ «هَمْبِيُونَ» رَسُولٌ بِدْرَجٍ فِيهِ مِنَ الْجَوَهِرِ مَا قِيمَتُهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ رَطْلٍ مِنَ الْذَّهَبِ، وَأَمَّا الْبَطَانَ الْلَّتَانَ رَأَيْتَهُمَا طَارَتَا مِنْ وَرَاءِ ظَهُورِكَ فَوَقَعْتَا بَيْنَ يَدِيكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ قَبْلِ مَلَكٍ بَلْخٍ مِنْ يَقْوِيمِ بَفْرَسِينَ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مِثْلَهُمَا، وَأَمَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا تَدِبُّ عَلَى رَجْلِ الْيُسْرَى فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ عَمَلِ «صَنْجِينَ» مِنْ يَقْوِيمِ بَيْنَ يَدِيكَ بِسَيْفٍ خَالِصٍ الْحَدِيدِ لَا يَوْجِدُ مِثْلَهُ، وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنَّهُ يُخْضَبَ جَسْدُكَ كُلُّهُ بِالْدَمِ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ قَبْلِ مَلَكِ «كَاسَرَوْنَ» مِنْ يَقْوِيمِ بَيْنَ يَدِيكَ بِلَبَاسِ مُعَجِّبٍ يُسَمَّى حُلَّةً أَرْجَوَانَ يَضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ غَسْلِ جَسْدِكَ بِالْمَاءِ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ قَبْلِ مَلَكِ «زُرْفِيٍّ» مِنْ يَقْوِيمِ بَيْنَ يَدِيكَ بِشَيَّابٍ مِنْ لَبَاسِ الْمَلُوكِ لَيْسَ يُعْرَفُ قِيمَتُهَا، وَفِيلٌ أَبْيَضٌ لَا تَلْحَقُهُ الْخَيلُ، وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ شَبِيهَ النَّارِ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ عَنْ الْمَلَكِ «جَيَارَ» مِنْ يَقْوِيمِ بَيْنَ يَدِيكَ بِإِكْلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَمَّا قِيامَكَ عَلَى الْجَبَلِ الْأَبْيَضِ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ قَبْلِ «كَيْدَرُونَ»^٠ مِنْ يَقْوِيمِ بَيْنَ يَدِيكَ

^٠ في هذه الأسماء اختلافٌ كثيرٌ في النسخ، وقد وضع لها رَيْتُ جَدْلًا، فليرجع إليه (ص XXII من مقدمة النسخة السريانية الحديثة).

بفِيلِ أَبْيَضِ لَا تَلْحِقُهُ الْخَيْلُ، وَأَمَّا الطِّيرُ الْأَبْيَضُ الَّذِي نَقَرَ رَأْسَكَ بِمِنْقَارِهِ فَلَسْتُ أَفْسُرُهُ
لَكَ الْيَوْمِ وَلَيْسَ بِضَارِّكَ، فَلَا تَوْجَلْنَ مِنْهُ، وَلَكَنَّ فِيهِ بَعْضُ السُّخْطِ وَالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ تَحْبُّ،
فَأَمَّا الْبُرْدُ وَالرَّسْلُ فَإِلَى سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَأْتُونَكَ حَتَّى يَقُومُوا بَيْنَ يَدِيكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَجَدَ بَيْنَ يَدِيهِ وَانْصَرَفَ وَقَالَ: إِنِّي نَاظِرٌ فِيمَا قَالَ كَتَائِيَارِونَ،
فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ لِبِسِ ثِيَابِهِ وَأَخْذَ زِينَتِهِ وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ وَأَذْنَنَ لِلْعَظِيمِيَّاتِ وَالْأَشْرَافِ،
فَجَاءَتِهِ تَلْكَ الْهَدَيَا التِّي قَالَ^٦ كَتَائِيَارِونَ حَتَّى وَقَفُوا بَيْنَ يَدِيهِ، فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكَ الرَّسْلَ
وَالْهَدَيَا فَرَحَ بِهَا وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَمْ أُوقَّ حِينَ قَصَصْتُ رَوْيَايَيْ عَلَى الْبَرْهَمِيَّيْنِ وَأَمْرُونِي
بِمَا أَمْرُونِي بِهِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ — جَلَّ اسْمُهُ — رَحْمَنِي وَتَدَارَكْنِي بِرَأْيِ إِيرَاخْتَ كَنْتُ
قَدْ هَلَكْتُ وَزَالَتْ دُنْيَاِيْ، فَلَذِكَ يَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْمَعَ مِنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَخْلَاءِ وَذُوِيِّ
الْقَرَابَاتِ رَأْيِهِمْ وَيَقِبَّلُ مَشْوَرَتِهِمْ؛ فَإِنَّ إِيرَاخْتَ أَشَارَتْ عَلَيَّ بِالرَّأْيِ الَّذِي انتَفَعَتْ بِهِ فِي
بَقاءِ مُلْكِيِّ، وَالَّذِي تَرَوْنَ مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ. فَقَالَ إِبْلَادُ لَهُ: لَا يَعْمَلُ الرَّءُ شَيْئًا مِنَ
الْأَشْيَاءِ — صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا — إِلَّا بِرَأْيِ أَهْلِ الْمَوْدَةِ وَالْخَيْرِ، ثُمَّ دَعَا الْمَلِكَ بِإِيرَاخْتَ وَوَلْدَهَا
جُوبَرَ وَكَاكَ الْكَاتِبِ وَإِبْلَادَ وَقَالَ لَهُمْ: لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُدْخِلَ هَذِهِ الْهَدَيَا خَزَنَتِنَا، وَلَكُنِي
قَاسِمُهَا بَيْنَكُمْ — أَنْتُمُ الَّذِينَ وَطَنْتُمُ أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْمَوْتِ فِي سَبِّيِّ — وَبَيْنَ إِيرَاخْتَ التِّي
أَشَارَتْ عَلَيَّ بِالرَّأْيِ الَّذِي انتَفَعَتْ بِهِ فِي بَقاءِ مُلْكِيِّ، فَقَالَ إِبْلَادُ: إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا — مُعْشَرُ
الْعَبِيدِ — أَنْ نَدْنُوَ مِنَ هَذِهِ الْهَدَيَا، فَأَمَّا جُوبَرُ ابْنُكَ فَهُوَ لَهَا أَهْلٌ، فَلِيَأْخُذْ مَا أُعْطِيَتُمُوهُ.
فَقَالَ الْمَلِكُ: إِنَّهُ قَدْ شَاعَ لَنَا فِي الْبَلَادِ مِنْ هَذَا ثَنَاءُ حَسْنٌ وَخَيْرٌ كَثِيرٌ، فَلَا تَحْتَشِمْ يَا إِبْلَادُ
وَخَذْ نَصِيبَكَ وَقَرَّ بِهِ عَيْنًا، فَقَالَ إِبْلَادُ: لِيَكُنْ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبُّ الْمَلِكَ، وَلِيَبِدأْ بِأَخْذِ مَا يَرِيدُ،
فَأَخْذَ الْمَلِكَ الْفَيلَ الْأَبْيَضَ، وَأَعْطَى جُوبَرَ أَحَدَ الْفَرَسِيَّنِ، وَأَعْطَى إِبْلَادَ السَّيفَ الْخَالِصَ
الْحَدِيدِ، وَأَعْطَى الْكَاتِبَ الْفَرَسَ الْآخِرَ، وَبَعْثَ إِلَى كَتَائِيَارِونَ الثِّيَابَ الْكَثَانَ التِّي يَلِبَسُ
الْمَلُوكُ، وَأَمَّا إِلْكَلِيلُ وَسَائِرُ الْلِّبَاسِ مَا كَانَ يَصْلَحُ لِلنِّسَاءِ فَقَالَ: يَا إِبْلَادُ، خَذِ الْإِلْكَلِيلُ
وَسَائِرَ الْلِّبَاسِ فَاحْمِلْهَا مَعِي وَاتَّبِعْنِي إِلَى مَجْلِسِ النِّسَاءِ.

فَلَمَّا انْطَلَقَ إِلَيْهِ دَعَا بِإِيرَاخْتِ وَمُسَامِيَّتِهِ، فَجَلَسَتِا بَيْنَ يَدِيهِ، وَقَالَ: يَا إِبْلَادُ، ضَعِ
الْكَسْوَةَ بَيْنَ يَدِيِّ إِيرَاخْتِ؛ فَلَتَأْخُذْ أَيَّهَا شَاءَتْ، فَلَمَّا نَظَرَتِ إِيرَاخْتُ إِلَى إِلْكَلِيلِ وَالثِّيَابِ

^٦ عبارة «الهدايا التي قال كتائيارون». فيها أثرٌ محاكاة التعبير الفارسي الذي يحذف فيه عائد الموصول.

وأعجبها منظرها، ولم تدر أيهما تأخذ، نظرت إلى إبلاد بمُؤخر عينها ليريها أيهما أفضل، فرأها إبلاد الثياب وأشار عليها بأخذها، فأخذتها، وكانت شارته إليها أن غمزها بعينه، وحانَت من الملك التفاتة فرأى إبلاد وقد غمز إيراخت، فلما رأت إيراخت أنَّ الملك قد أبصر إبلاد وإيماءه إليها تركت الثياب وأخذت الإكليل مخافةً أن يظنَّ الملك بهما سوءاً، وعاشر إبلاد بعد ذلك أربعين سنة كُلُّما دخل على الملك كسر عينيه خوفاً أن يظنَّ الملك أنه أراها بعينيه شيئاً، وخوفاً أن يتهمه بأمر، فلولا عقل المرأة ومعرفة الوزير لم ينج واحد منها من الموت.

وكان الملك يكون ليلةً عند إيراخت وليلةً عن مُساميتها، فأتى إيراخت في ليلتها — وقد صنعت أرزاً — فدخلت على الملك وفي يدها صحفة من ذهب والإكليل على رأسها، فقامت على رأس الملك بالصحفة وهو يطعَّم منها، فلما رأت مُساميتها الإكليل على رأس إيراخت غارت فلبست تلك الثياب ومررت بين يديه — وكانت كالشمس حسناً — فأضاء كل ما حولها فاشتافت إليها، وقال لإيراخت: إنك جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الثياب التي ليس في خزائننا مثلها، وإنْ جُوربناه^٧ لأنْ حسُنْ منك عقلًا وأكمل رأياً وأشَبَهُ بنساء الملوك منك، فلما سمعت ذلك منه مع ما عاينت غضبت وضربت بالصحفة رأس الملك فسال الأرز على رأسه ووجهه ولحيته، وكان ذلك عبارة الحلم الثامن الذي كتمه إياتا كتايابرون ولم يكن بيئنه له، فدعا الملك بإبلاد فدخل عليه، فقال: يا إبلاد، أما ترى إلى ما فعلته هذه المرأة بي، وكيف استخفت بي وحققتني وعملت ما عملت؟ فما أعلم أنَّ ملگاً قط اجترأ عليه بمثل ما ركبَت هذه الحمقاء مني! انطلق بها فاضرب عنقها ولا ترحمها. فخرج إبلاد بإيراخت من عند الملك، وقال في نفسه: ما أنا بقاتلها حتى يسكن غضب الملك؛ فإنها امرأة عاقلة لبيبة حرية على الخير، سعيدة من الملكات، ليس لها في النساء عديل في الحلم والعقل، وليس الملك صابرًا عنها، وقد خلص الله بها اليوم بشراً كثيراً من القتل، وعملت أعمالاً صالحة، ونحن نرجوها بعد اليوم، ولست آمن أن يقول الملك: ما استطعت أن تؤخر قاتلها! فلست بقاتلها حتى أنظر رأي الملك فيها، فإن ندم

^٧ هي في شيخو: «كورقناه»، وفي نسخة دي ساسي والنسخ الأخرى المطبوعة: «حورقناه»، وفي بعض النسخ «جورقناه» وفي السريانية الحديثة: «كُلباه». والظاهر أن الصواب: «كُلباه» وأقرب صيغة لهذه، بعد النظر إلى الخط الفهلوi وإلى التعريب هي «جوربناه» كما في نسختنا، وما في النسخ الأخرى محرَّف عنها.

على قتلها وحزن جئته بها حيّة، وكنت قد عملت ثلاثة أعمال: أنجيَتْ إيراخت من القتل، وفَرَّجَتْ على الملك حزنه، وافتخرت بذلك على سائر الناس، وإن لم يذكرها ولا اشتاق إليها أمضيت أمره فيها.

وانطلق بها إلى بلاد إلى منزله سراً، فوَكَّلَ بها رجلين من أمناء الملك الذي يُلوَّنُ أمر نسائه، وأمر أهله بحفظها والاستقصاء بها وإكرامها حتى ينظر كيف يكون أمرُها، ثم خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كثيراً حزيناً، وقال: قد أمضيت أمر الملك في إيراخت، فلم يلبث الملك أن سكن غضبه، فذكر جمال إيراخت ورأيها وعظيم غناها، فاشتد حزنه وجعل يقُوي نفسه ويتجدد، وهو على ذلك يستحي أن يسأل إلى بلاد ويرجو ألا يكون قتلها، ونظر إلى الملك فعلم ما في نفسه بفضل علمه، فقال: لا تحزن أيها الملك ولا تغتم، فإنه ليس في الحزن والهم منفعة، ولكنهما يُنْحِلانُ الجسم ويُفْسِدانه، مع ما يدخل على أهل وُدّ الملك أيضاً من الحزن إذا حزن، وفرج أعدائه وشماتتهم، فإنه إذا سمعوا به لم يُعَدَّ من صاحبه عقلاً ولا حزماً، فاصلَرَ أيها الملك ولا تحزن على ما لستَ بـناظر إليه أبداً، فإنَّ أحبَّ الملك حدثته بشبيه أمره هذا، قال الملك: حدثني يا إلى بلاد، قال إلى بلاد: زعموا أنَّ حمامتين — ذكراً وأنثى — ملا عُشَمَا من البر والشعر، فقال الذكر للأنثى: أمَّا ما وجدنا في الصحاري ما نعيش فلسنا نأكل مما في عُشَنَا شيئاً، فإذا جاء الشتاء ولم نُصِب في الصحاري شيئاً أقبلنا على ما في عُشَنَا فأكلناه، فرضيت الأنثى بذلك وقالت: نعم ما رأيت، وكان ذلك الحبُّ ندياً حين وضعاه، فامتلاً عشهما منه، وانطلق الذكر في بعض أسفاره، فلما جاء الصيف يَبِسَ ذلك الحبُّ ونقص عما كان في العين، فلما رجع الذكر فرأى الحبَّ ناقصاً قال للأنثى: أليس كَنَّا قد اجتمعنا على ألا نأكل من عُشَنَا شيئاً؟ فلِمَ أكلتِ؟ فحلفت الأنثى أنها ما أكلت منه حبة، فلم يُصدِّقها وجعل ينقرها ويضرُّها حتى قتلتها، فلما جاء الشتاء والأمطار نَدَى الحبُّ وعاد إلى ما كان عليه، وامتلاً العُشُّ كما كان، فلما رأى ذلك الذكر نَدِم واضطجع إلى جانبها وناداها: كيف ينفعني العيش إذا طلبتك فلم أقدر عليك؟

فمن كان عاقلاً علم أنه لا ينبغي أن يَعْجَل بالعذاب والعقوبة، ولا سيما بعدَّ من يخاف أن يندم عليه كما ندم الحمام الذكر.

وقد سمعت أنَّ رجلاً كان على ظهره كارهُ العَدَس، فدخل بين شجر كثير، فوضع حمله ورقد، فنزل قرد كان في الشجرة التي نام تحتها، فأخذ ملء كفه من ذلك العَدَس، ثم صعد في الشجرة فسقطت من يده حبة فطلبتها فلم يجدوها، وانتشر العَدَس من يده فلم

يقدر على جمعه، وأنت أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدعُ أن تلهو بهنَّ وتطلب التي لا تجد! فلما سمع الملك ذلك خشيَّ أن تكون إيراخت هلكت، فقال لإبلاد: أفي سقطةٍ واحدةٍ كانت مني فعلت ما أمرتك به من ساعتك، وتعلقت بكلمة واحدة، ولم تتثبت في الأمر؟ قال إبلاد: إن الذي قوله واحد — لا يختلف كلامه عندي — واحد.

قال الملك: ومن ذلك؟ قال: الله — عز وجل — الذي لا يُبدِّل كلامه ولا يختلف قوله، قال الملك: أشتَدَ حزني لقتل إيراخت، قال إبلاد: اثنان ينبغي لهما أن يشتَدَ حزنهما: الذي يعمل الإثم، والذي لم يعمل بِرًا قط؛ لأن فرحهما في الدنيا قليل. قال الملك: لئن رأيتُ إيراخت حيَّةً لا أحزنُ أبداً. قال إبلاد: اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنَا أبداً: المجتهد في البرِّ والذي لم يأتِمْ قط، قال الملك: ما أنا بظاهرٍ إلَى إيراخت سوى ما نظرتُ، قال إبلاد: اثنان لا ينظران أبداً: الأعمى والذي لا عقل له، فإنه كما أنَّ الأعمى لا يبصر السماء ولا النجوم ولا الأرض، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أممه ولا خلفه، كذلك الذي لا عقل له لا يبصر منفعته من مضرته، ولا يعرف العاقل من الجاهل، ولا الحسن من القبيح، ولا المحسن من السيء. قال الملك: لئن رأيتُ إيراخت ليشتَدَ فرحي، قال إبلاد: اثنان هما يَرِيان وينبغى لهم أن يشتَدَ فردهما: البصیر والعالم، فكما أنَّ البصیر يُبصر نور العالم وما فيه، كذلك العالم يبصر الإثم فيجتنبه والبرُّ فيعمله، ويهدي من اتَّبعه إلى سبيل الخير؛ قال الملك: ما شبَّعْتُ من رؤية إيراخت قط، قال إبلاد: اثنان لا يشبعان أبداً: الذي لا همَّ له إلَّا جمُّ المال، والذي يأكل ما يجد ويسأل ما لا يجد؛ قال الملك: إنه لينبغى لنا أن نتباعد عنك يا إبلاد! فإنك بذلك جدير، قال إبلاد: اثنان ينبغي أن يُتباعد منهما: الذي يقول لا عذاب ولا حساب ولا ثواب ولا شيءٌ إلَّا ما هو فيه، والذي لا يقدر أن يَصرف بصرَه عن شهواته وعَمَّا ليس له، ولا أدنه عن استماع السوء، ولا فرجه عن نساءٍ غيره، ولا قلبه عما يهمُّ به من ركوب الإثُر، فيصيِّرُ أمرُه إلى الندامة والهوان وخزيِّ الأبد الدائم. قال الملك: صرْتُ من إيراخت صُفراً، قال إبلاد: ثلاثة هنَّ أسفار: البحر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها زوج، وأخرى: من لا يعرف الخير من الشر، قال الملك: إنك لَلْقَى الجواب يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة هم ملَّقُونَ الجواب: الملك الذي يَقسِم ويعطِي من خزائنه، والمرأة المسماة لبعض من تهوى من ذوي الأحساب، والرَّجل العالم الذي قد تفرغ للعبادة، قال الملك: لقد ازدَدْتُ حزناً بتعزيزِك يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثة يُنبغى لهم أن يحزنوا: الذي فرسه سمين حسن المنظر سيء

المخبر، وصاحب المرقة التي كثيُرٌ ماؤها قليلٌ لحمها ولا طعم لها، والذي ينكح المرأة الحسيبة ولا يقدر على إكرامها؛ فلا تزال تسمعه ما يؤذيه.

قال الملك: هلگت إيراخت ضيعة في غير شيء! قال إبلاد: ثلاثة يضيعون في غير حقٍّ: الرجل يلبس الثياب البيضاء، فلا يزال عند الكبير جالساً فيسودها بالدخان، والقصار يلبس الخفين الجديدين ثم لا تزال قدماه في الماء، والرجل التاجر يتزوج المرأة الحسنة الشابة ثم لا يزال بأرض بعيدة، قال الملك: إنك لأهل أن تُعذَبْ أشد العذاب، قال إبلاد: ثلاثة ينبغي لهم أن يُعذَبُوا: المجرم الذي يعاقب من لا ذنب له، والمتقدم إلى مائدة لم يدع إليها، والذي يسأل أصدقاءه ما ليس عندهم ولا يدع مسألتهم؛ قال الملك: إنه ينبغي لك أن تُسفَهْ يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثة ينبغي لهم أن يسفهُوا: النجار الذي ينزل البيت الصغير بأهله، ثم لا يزال ينحت الخشب فيما بيته فأهله في ضيقٍ وضررٍ، والذي يتكلف الحلق بالموسي ولا يُحسِن فِيسِد عمله ويغقر صاحبه، والغريب المقيم بين ظهراني عدوه ولا يريد الرجوع إلى أهله، فإن مات — مع غربته — ورثوه فيصير ماله للغرباء وينسى ذكره. قال الملك: كان ينبغي لك أن تسك特 حتى يهدأ غضبي يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة ينبغي لهم أن يسكنوا: الذي يرقى في الجبل الطويل، والذي يصيد السمك، والذي يهم بالفعل الجسيم، قال الملك: ليتنى قد رأيت إيراخت يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة يتمنون ما لا يجدون: الفاجر الذي لا ورع له ويريد — إذا مات — منزلة الأبرار في الآخرة، والبخيل الذي يريد منزلة السُّمْح الجواد، والفجرة الذين يسفكون الدماء — بغير حقٍّ — ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الأنقياء؛ قال الملك: لقد أوجعت قلبي يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثة هم أوجعوا قلوبهم: الذي يأتي القتال ولا يتقى فِيقتل، والكثير المال الذي لا ولد له وتجاراته في الربا والغلاء على الناس، فربما حسد بعضهم فقتله، والشيخ الكبير ينكح المرأة الحسنة الفاجرة الجريئة على ما لا تزال ترتکبه، فلا تبرح تمني موته لتنکح زوجاً غيره شاباً فيكون هلاكه على يديها. قال الملك: إني لحقير في عينك يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة يحرقون أربابهم: الذي يهذى بالكلام ويتحدى بما لا يُسأل عنه ويقول ما يعلم وما لا يعلم، والمملوك الغني وسيده فقير فلا يعطي سيده شيئاً من ماله ولا يعتد به، والعبد الذي يُغاظ لسيده في القول ويستطيل عليه، قال الملك: إنك لتسخر بي يا إبلاد! ليت إيراخت لم تكن ماتت! قال إبلاد: ثلاثة ينبغي أن يُسخَرَ منهم: الذي يقول شهدت زحوفاً كثيرة فأكثرتُ القتل ولا يرى في جسمه شيءٌ من آثار القتال، والذي يُخبر

أنه عالم بالدين ناسك مجتهد، وهو بادنْ غليظُ الرقبة لا يُرى عليه أثر التخشع، والمرأة التي تذكر أنها عذراء وليس بعفيفة ولا حصان.

قال الملك: إنك لم تجبر يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة يشبهون التجارب: الجاهل الموسوس الذي يتعلم ورده على العالم فلا يقبل منه ويماري به جهله، ولا يعجزه ذلك عن أن يعود لأمثاله، والذي يهيج السفيه ويتحرّش به فيسمعه أذاه، والكذب عليه فيؤذني بذلك نفسه، والذي يُفضي بسره إلى من يُدعى به ويُدخله في الأمر العظيم ويُثقل به ثقته بنفسه، قال الملك: أنا الذي شفقت على نفسي! قال إبلاد: اثنان هما جلبا المشقة على أنفسهما: الذي ينكص على عقبيه ويمشي القهقرى، فربما عثر فوقع في مهواه فينكس، والذي يقول لست أهاب القتال ولا أتقيه فيغتر غيره به؛ فإن لقي عدواً كان همه الفرار؛ قال الملك: قد تصرم ما بيني وبينك يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة لا يلبث ودهم أن يتصرّم: الخليل الذي لا يلاقي خليله ولا يكتبه ولا يراسله، والرجل الذي يُكرمه أحباءه فلا يُنزل ذلك منهم منزلته ولا يقبله بقبوله، ولكن يستهزئ بهم ويُسخر منهم، والمعاطي أخلاه في الفرح والنعيم وقرأ العين يسألهم أموراً لا يقدرون عليها. قال الملك: قد عملت بقتل إيراخت عملاً يُستدلّ به على خفة أحلامهم: المستودع ماله من لا يعرف، والأبله القليل العقل الجبان يُستدلّ به على خفة أحلامهم: المستودع ماله من لا يعرف، والأبله القليل العقل الجبان ثم يخبر الناس أنه شجاع مقاتلٌ، والذي يزعم أنه تارك لأمور الجسد مقابل على أمور الروح وهو لا يُلفي إلا متابعاً لهواه؛ قال الملك: إنك لغير عاقل يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة لا ينبغي لهم أن يُعدوا من أهل العقل: الإسكاف الذي يجلس على المكان المرتفع، فإذا تدحرج شيءٌ من أداته شغله عن كثير من عمله، والخياط الذي يُطيل خيطه فإذا تعقد شغله تخليصه عن خياطته، والذي يقصّ من شعور الناس ويلتفت يميناً وشمالاً فيفسد عمله. قال الملك: يا إبلاد، كأنك تريد أن تعلم الناس أن يمهروا وتعلمني أيضاً حتى أكون ماهراً! قال إبلاد: ثلاثة زعموا أنهم مهروا وينبغي لهم أن يتعلّموا: الذي يضرب بالصنج والعود والطبل حتى يوافق المزمار وسائر الألحان، والمصوّر الذي يُحسن خطّ التصاوير ولا يُحسن خلط الأصاباغ، والذي يزعم أنه ليس بمحاج إلى علم شيء من الأعمال، قال الملك: إنك يا إبلاد تعمل بغير الحق. قال إبلاد: أربعة يعملون بغير الحق: الذي لا يصدق لسانه ولا يحفظ قوله، والسرير في الأكل البطيء في العمل وال الحرب وخدمة من فوقه، والذي لا يستطيع أن يُسكن غضبه، والملك الذي يَهُمُ بالأمر العظيم ويرتكبه.

قال الملك: لو عملت بسننٍ لم تقتل إيراخت يا إبلاد. قال إبلاد: أربعة يعملون بالسننة: الذي يصنع الطعام وينظفه لسيده ثم يُقدمه إليه في إبانه، والذي يرضي بامرأة واحدة ويُحصن فرجه عن نساء غيره، والملك الذي يعمل الأمر العظيم بمشاورة العلماء، والرجل الذي يَقْهِرُ غضبه، قال الملك: إني لخائفٌ منك يا إبلاد، قال إبلاد: أربعة يَخافون مما لا ينبغي: الطائر الصغير الذي في الشجر يرفع إحدى رجليه مخافةً أن تسقط السماء عليه فيدفعها^٨ بها، والكركيُّ الذي يقوم على إحدى رجليه مخافةً أن تنكسف الأرض به إن وضع الأخرى، والدودةُ التي تكون في الأرض وطعامُها في التراب فتُقتل من الأكل مخافةً أن يفنى التراب فهي من ذلك خائفة، والخفاش الذي يمنعه من الطيران بالنهار أنه يرى أنَّ ليس على الأرض طائرٌ أحسنُ منه فيخاف أن تصيده الناس فيحبسوه عندهم. قال الملك: أكنت نذرت أن تقتل إيراخت يا إبلاد؟ قال إبلاد: أربعة ينبغي لهم أن تُقبل فيهم النذور ألا يفارقوا: الفرس الجواد الثمين الذي هو عُدةٌ مولاه، والثور الذي يُحرث عليه، والمرأة العاقلة المحبة لزوجها، والعبد المجتهد الناصح في الخدمة الصادق الهابئ لسيده. قال الملك: لن تطيب نفسي بقتل إيراخت يا إبلاد، قال إبلاد: ثلاثة ينبغي لهم أن يحزنوا: العاقل الذي يجيئه الجاهل بما لا ينبغي ولا يُقبل منه، والرجل الرغيب البطن الغنيُّ من المال، والرجل السيءُ الخبيثُ النفس، قال الملك: ما ينبغي لنا مخالطتك يا إبلاد، قال إبلاد: أربعة لا يخالط بعضهم بعضاً: النهار والليل، والبرُّ والفارجُ، والظلمة والنور، والخيرُ والشرُّ. قال الملك: لقد أثبتت في نفسك عليك حقداً بقتلك إيراخت يا إبلاد، قال إبلاد: أربعة الحقد فيهم ثابتُ: الذئب والخرفون، والسنور والجرذ، والبوم والغربان، والبازي والدرّاج، قال الملك: أفسدت حكمتك يا إبلاد! قال إبلاد: أربعة يفسدون أعمالهم: المفسد الحسناً بالسيئات، والملك يكرم العبد، والوالدان يفضلان المفسد من أولادهما على المصلح، والمُؤْتَمِنُ المحتال الواشي على السرّ. قال الملك: أما لك رحمة فترحمني يا إبلاد؟ قال إبلاد: خمسة لا رحمة لهم: الملك الحقود الهذر في القول، والحامل الموتى بالأجر، واللصُّ المراقبُ للمساء ليُغير على الناس فيسرقهم، والصادُّ الناس عن القصد إلى الجور، والجريءُ الجاهُلُ المُقدِّم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره في طلب

^٨ عطف «يدفعها» على «تسقط» غير مستقيم في المعنى، وفي شيخو: «يقول إن سقط السماء حبستها برجلي». برجلي.

حاجته وشحّه، قال الملك: من ردّ عليًّا إيراخت فله عندي من المال ما أحَبَّ، قال إبلاد: إنَّ الذين يحرصون على ما ذكرتَ فيحبُّون جمعه من غير الحق، وهو آثَرُ عندهم من أنفسهم، خمسة نَفَرٌ: المقاتل الذي لا نِيَّةَ له ولا روَيَّةَ إلَّا في إصابة الطمع ونيله، واللُّصُّ الذي ينْقُبُ البيوت ويعرض لابن السبيل فتقطع يده أو يُقتل، والتاجر الذي يركب في البحر يطلب الدنيا، وصاحب السجن الذي يتمنَّى أن يكثر أهله فيصيبَ منهم، والقاضي الذي يأخذ الرشوة فيجور في الحكم.

قال الملك: أفسدت عليًّا العيش يا إبلاد! قال إبلاد: الذي يكون على ما وصفَ سبعةً^٩ نَفَرٍ: الفقيه العالم الذي لا يُعرف بذلك فِيُقْبِسَ منه، والملك الذي يأتي المعروف إلى كل غامِطٍ كفُورٍ منكِرٍ لكل ما يصنع، والعبد الذي يكون سَيِّدَه ظَاهِرًا غَلِيظًا لا رحمة له، والمرأة التي تحُبُّ ولدها وهو فاسقٌ خبيثٌ وتستر عليه سَيِّئَ أموره وتغفرها له، والمرءُ يأمن الفاجرَ الغادرَ الجريءَ على ركوب المحارم ويسترسل إليه، والذي يُسرع ملامه إلى الخلان، والذي لا يُراقب الله ولا أهل الدين والصلاح. قال الملك: لقد كرهت قتل إيراخت؛ قال إبلاد: سبعةً أشياءً مكرهه: الشيخوخة التي تسلُّب الشباب، والوجع الذي يُنجلِّ الجسم ويُنَزِّفُ الدم، والغضب الذي يُفسد علم العلماء وحكم الحكام، واللَّهُمُ الذي ينقض العقل ويُسْلِّمُ الجسم^{١٠}، والبرد الذي يغيِّر النبات، والجوع والعطش اللذان يُجهدان كل شيء، والموت الذي يُفسد جميع البشر، قال الملك: ما ينبغي لي أن أكلمك بعدها يا إبلاد، قال إبلاد: ثمانية نَفَرٌ لا يستقيم القولُ معهم ولا العملُ: المشاورُ من لا حلم له، والذي يصرف الكذبُ قلبَه عن أخيه، والمعجبُ بنفسه، والمستبدُ برأيه، ومنْ ماله آثَرُ عنده من نفسه، والضعيفُ الذي يسافر السفر البعيد، والذي يعاند سَيِّدَه ومعلمَه وهما مُسَلْطَانٌ عليه، ومن يلقى ذا مودَّةً بالخصومة والجدال. قال الملك: لأهتم وأحزن إذا رأيتُ اثني عشر ألف امرأة وليس فيها إيراخت، قال إبلاد: ليس أحدٌ بحقيقةٍ أن يحزنَ على المرأة إذا كان فيها أربعَةُ أشياءٍ: إذا كانت جاهلة جريئةً على أمرها، أو خفيفة اليد لصَّةً تذهب بما أسديتها لها، أو عمياء لا جمال لها ولا حسب، أو سيئة الخلق غير مواتية، قال الملك: لم يُصبني

^٩ في الأصل: «ستة نَفَرٌ»، ولكن مقتضى السياق وموافقة النسخ الأخرى يجعلها «سبعة».

^{١٠} ليس في نسختنا الجملتان اللتان فيهما «الغضب» و«اللَّهُمُ» من هذه الأشياء السبعة، والظاهر أنها سقطتا، وقد نقلناهما عن شيخو ليتم العدد.

قط وقع أشدُّ علىَّ مما وصل إلىَّ من إيراخت، لِحُلْمها وعقلها. قال إبلاد: خمسةُ أشياء إذا كنَّ في المرأة كانت أهلاً لأنْ يُحرَّن عليها: إذا كانت كريمة الحسب عظيمة المنزلة في قومها، أو لبيبة عاقلة، أو حسنة كاملة صورة الوجه والخلق، أو حصاناً حيّة ميمونة الطائر، أو مؤاتية لزوجها راضية به متحنّنة عليه.

قال الملك: لا أرى لإيراخت في النساء شبيهًا. قال إبلاد: أربعة نَفَر لا ينصرفون عن حالهم: المرأة التي تعودت كثرة الأزواج فلا ترضى بقلّتهم، والرجل الذي قد جرى لسانه بالكذب، فإذا أراد الصدق اشتَدَّ عليه، والرجل الغليظ الْكِبِن المعجب برأيه لا يقدر أن يكون ليَّنا ساكناً، والرجل البَطْرُ الذي قد عدا طوره وطباعه الفجور فلا يستطيع أن يتحول من الفساد إلى الصلاح. قال الملك: ليس يأتيني النوم على حزني لإيراخت، قال إبلاد: ستة نَفَر لا ينبعي لهم أن يهجعوا: الكثيرُ المال وليس له خازنٌ أمينٌ عليه، والمرء يريد الفتوك بصاحبه ولا يقدر عليه، والقاذف الناس بالبهتان عن عَرَضِ الدنيا، والرجل الشديدُ المرض ولا طيب له، والمرءُ الفاجرُ الزوجة، والمحبُ الذي يتخوف الأحداث على قرينه. قال الملك: تتطق بين يديَّ مع ما ترى من سَخَطِي يا إبلاد! قال إبلاد: سبعة لا يزالون في سَخَطِي: الملكُ السريعُ الغضِبُ الضيقُ الصدرُ غير المتئد، والمتئد الذي ليس له مع تؤدته علم، وعالِمٌ غيرُ مرِيدٌ للصلاح، ومرِيدٌ للصلاح غير عالم، والقاضي المحبُ للدنيا، والرحيم للناس البخيل بما عنده، وجوادٌ يلتمس الثواب والشكر في العاجل. قال الملك: قد عَيَّت نفسك يا إبلاد وإيابيَّ معك! قال إبلاد: تسعه نَفَر يُعنون أنفسهم وغيرهم: المكثِرُ من المال الواثق بالناس، والللتمس ما لا ينال ولا ينبعي له إدراكه، والبنيُّ الفاجرُ العادي طوره، والذي يرى اللَّيْن ضعفاً وحسنَ الخلق وهنَا، ولا يقبل من ذي نصيحة إن بذلها له، ومن آزر الملوك والعُظماء ولا رأي له ولا يتعلّم من غيره، وطالب العلم بخصوصة من هو أبله منه، والمحتاب للملوك غيرُ البادل لهم النصيحة ولا الودَّ، والملك الذي يكون خادمه وقهره منه كذاً هذِرًا، والبطيءُ الفهم الذي لا يكاد يفهم ولا يقبل الأدب؛ قال الملك: حسبك يا إبلاد! فلقد تركتني في شكٍّ من أمري، قال إبلاد: إنما ينبعي أن يجرَّب الناس في عشرة أشياء: الجريءُ في القتال، والحراث في العمل، والعبد في عشرة سيِّده، والملك في الغضب كيف يكون حلمه وعلمه، والتاجر في مخالطة صديقه، والإخوان بالاحتمال للأئمَّة، والقطن عند الشدائِد كيف يكون رفقه وحياته، والناسك في ورمه وتتنزَّهه، والجواب بالبذل والعطف، والفقير باجتناب الإثم وطلب الرزق من الحال.



ثم سكت إبلاد، وعلم أنَّ الملك قد اشتَدَ حزنه على إيراخت، واشتاق إلى رؤيتها، فقال: أنا خلِيقٌ بإيتان الملك بهذه التي قد أحِبَّها وحرص على رؤيتها أشدَّ الحرص، وحَلُّ عنِي في طول مُرَايَتِي إياه في أشياء كثيرة، وإغلاظي له في القول، أيها الملك إني — مع رَقَّةِ شأني وضعف خطري — قد أغفلت في القول واجترأت، وأنتم أيها الملوك — لِكَرْمِ أصولكم وسعة أحلامكم — ملكتم أنفسكم وصبرتم على ما سمعتم مني، فالشكر مُنِي أيها الملك إذ لم تأمر بقتلي، وهذا أنا قائمٌ بين يديك، وقد فعلتُ الذي فعلتُ بنصحي، فإن كانت دخلت هذه في معصية فإنَّ لكم الحجَّةَ والسلطان على عقوبتي وقتلِي.

فلما سَمِعَ الملك أنَّ إيراخت حيَّةً اشتَدَ فرحة وقال لإبلاد: إنه كان يمنعني من الغضب عليك ما علمتُ من نصيحتك وصدق حديثك، و كنت أرجو من علمك بالأمور ألا تقتل إيراخت؛ فقال إبلاد: إنما أنا عبدكم، وحاجتي إليكم اليوم ألا تعجلوا بعدها في الأمر العظيم الذي يُنَدَّمُ عليه ويكون في عاقبته الهم والحزن كما رأيت، ولا سيما في أمر هذه

التي لا تجد لها عديلاً في الأرض ولا شبهاً، وأن تتلبثوا، فقال الملك: بحق قلت يا إبلاد، وقد قبلتُ قوله وكل ما ذكرت، فكيف في مثل هذا الأمر العظيم الذي قد مرّ بي؟ ولست عاملاً بعدها صغيراً ولا كبيراً إلاّ بعد المؤامرة والنظر والتؤدة.

ثم إنَّ الملك أمر إبلاد أن يأتيه بإيراخت، فأتاه بها فأعطها تلك الثياب، واشتد فرحة بها، وقال لها: أصنعي ما أحببتي، فلن أصرف بعد عن هواك شيئاً. فقالت إيراخت: دام ملكك إلى الأبد، كيف — لو رأيك أيها الملك وسعة خلقك — تندم على سيئة كانت منك؟ فإنك لو تركت ذكري آخر الدهر كنت لذاك أهلاً للذى كان من سفهى وشققتك وإقدامي على ما أقدمت عليه من الأمر الذي له أمر الملك بقتلي، وبرأفتك شكرت لإبلاد حسن صنعته، ولو لا ثقة إبلاد بسعة خلقك لنفذ أمرك في سلطانك.

قال الملك لإبلاد: قد اصطنت عندي ما استوجبت به شكري، ولم تصنع بي شيئاً هو أعظم عندي من أنك لم تقتل إيراخت، بل أحبيتها بعد ما قتلتها، فوهبته لي ولجميع الرعية، فلم أكن قط أرضى عنك مني اليوم، وأنت مسلط على ملكي فاصنع فيما أحبب ما أحببتي، قال إبلاد: ليست بي حاجة فيما قبلك إلاّ الثانية عند الغضب، والروية عند الفكر، فقال الملك: أنا صائر إلى رأيك.

ثم إنَّ الملك أمر بقتل البرهميين الذين أشاروا عليه بقتل العدة التي ذكرتها، وقررت عينه وعيون أهل مملكته وولده بالوزراء الصالحين الذين هم أحبُّ الخلق إليه.

باب مهرايز ملك الجُرذان^١

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت مثل الحلم فيما بين الملوك وقربانيهم، ولكن أريد أن تعرّفني كيف ينبغي للإنسان أن يلتمس له مُشيرًا مناصحاً، وما الفائدة المستفادة من المثير الحكيم؟

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل ملك الجُرذان وزيره الناصح له، المنقذ وأهله ومخلّصهم من الشدائـ العظام، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان في أرض البراهمة بقعة تسمى دورات، مساحتها ألف فرسخ، وكان في وسط تلك البقعة مدينة تسمى بدرور، وكانت كبيرة آهلة، وكان أهلها يتصرّفون في معايشهم كما يحبون، وكان في تلك المدينة جُرذ يسمى مهرايز، وكان مملّكاً على جميع الجرذان الذين في تلك المدينة ورساتيقها، وكان له ثلاثة وزراء يُشاورهم في أموره، يسمى أحدهم رُوذباد،^٢ وكان ذا عقل وحنكة، وكان الملك معترفاً بعقله وجودة حيلته، ويسمى الثاني شيرع، والثالث بغداد، وكان الملك يحضرهم جميعاً ويستشيرهم فيما يصلح رعيته.

حضرروا يوماً وتفاوضوا في أشياء كثيرة إلى أن انتهى بهم الكلام إلى هذا المعنى، وهو: هل في استطاعتنا أن نزيل عنّا ما قد توارثناه من أسلافنا من الفزع والخوف من

^١ هذا الباب ليس في النسخ المطبوعة ولا النسخة السريانية، وقد ألحقه شيخو بنسخته، ولغته وأسلوبه يشهدان أنه ليس من كتابة ابن المقفع، وإنما أثبتناه محافظةً على النسخة التي اخترناها للطبع، وتوطئه للبحث في أبواب الكتاب الأصلية والزادية، وأبقينا عباراته السقيمة على حالها إلاً ما كان محرّقاً.

^٢ في ملحق شيخو اسم الأرض: «دوران»، واسم المدينة: «إيدزيون». .

^٣ اسم هذا الوزير في ملحق شيخو: «زوذامه».

الستانير أم لا يمكن ذلك؟ فقال شيرع وبغداد وزيراه: أنت رئيس علينا لأنك في غاية العقل وإصابة الرأي، وقد قيل في آفتين من الآفات لا يمكن دفعهما إلا بمدبر حكيم مُصيب، ونحن متكونون على حلم الملك وحكمته وحسن تدبيره في هذا الأمر وغيره، ونحن مع هذا مستعدون لأمر الملك، فإنه سيكون لنا وللملك فيه اسم عظيم إلى الأبد، وسبيل جميع الجرذان وخاصةً نحن أن نبالغ ونحرض ونجتهد في تبليغ الملك إرادته، ولا سيما في هذا الأمر ولو بذهاب أنفسنا، فلما فرغ الوزيران من هذا الخطاب كانت عين الملك إلى الوزير الثالث، فلما لم يرها يتكلم قال له بغضبه: يا هذا قد كان سبيلك أن تذكر لنا ما عندك في هذا الأمر، ولا تكون كأنك أخرس أبكم لا تقدر على الجواب.

فلما سمع الوزير من الملك هذا الكلام قال: ليس يجب أن يعزلني الملك حيث أمسكت عن الكلام إلى هذا الوقت؛ لأنني فعلت ذلك لاستمع جميع ما أتى به أصحابي على الكمال، وأفگر فيه، ثم بعد ذلك أذكر ما عندي. قال له الملك: قل إذن ما عندك؛ قال: ما عندي أكثر من هذا، وهو أنه إن علم الملك أنَّ له حيلة يبلغ بها مراده من هذا الأمر، ويتحقق ذلك تحققًا صحيحًا، وإنَّ مما سبيله أن يحرض عليه ولا يدبر بفكره فيه؛ لأنَّ ما يتوارث من الآباء والأslاف في الأصلاب والجنس ويتناول من الآباء إلى الأولاد بالطبع، لا يقدر ملك من الملائكة — دع الناس — على تغييره؛ قال الملك له: ليس ما يتوارث من الجنس فقط، ولكن كل أمر من الأمور وإن صغر وقلَّ لا يمكن أن يتمَّ إلَّا بعنايةٍ من فوق، وذلك أنَّ انتهاء كل أمرٍ من الأمور إنما يكون في زمانٍ من الأزمنة، غير أنَّ معرفة ذلك الزمان خفيَّةٌ عن الناس، والعنايةٌ تحتاج إلى حِرْصٍ كما يحتاج ضوء العينين إلى ضوء الشمس.

قال الوزير: الأمر على ما قال الملك، لكن إذا لم تتمكن الحيلة وليس لمقاومة الشيء الذي يتوارث مع الجنس وجه، فتركه أصلح؛ فإنَّ من قاوم ما يتوارث في الجنس فكأنه يُريد أن يعارض ما قد اتفق عليه، وربما نتج من ذلك آفة أعظم من الأولى وآل الأمر فيه إلى أحوال من العطب لا تتنافى، كما أصاب الملك الذي يُحدَّث عنه، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أنه كان على بعض نواحي التل ملك، وكان في بلده جبلٌ شامخٌ كثُر الأشجار والنبات والثمار والعيون، وكانت الوحوش وسائر الحيوانات التي في ذلك البلد يعيشون من ذلك الجبل، وكان في سفح ذلك الجبل نَقْبٌ يخرج منه جزءٌ من سبعة أجزاءٍ من جميع الرياح التي تهبُ في الثلاثة الأقاليم ونصف من أقاليم العالم، وبالقرب من ذلك النَّقْبِ بيتٌ في غايةِ حُسْنِ البناء والتَّصْييف لم يكن له نظيرٌ في العالم كله، وكان الملك وأسلافه من الملوك يسكنون ذلك البيت والموضع، لم يكن يتھيأ لهم أن يتحوّلوا

منه. وكان للملك وزير يُشاوره في أموره، فاستشاره يوماً من الأيام، وقال له: تعلم أَنَا – بما قد تقدم من أفعال آبائنا الجميلة – في نعمٍ فائضة، وأمورُنا تجري على محَبَّتنا، وهذا المنزل الذي نحن فيه لو لا هذا النقب ولو لا كثرة الرياح لكان شبيهاً بالجنة، ولكن سببينا أن نجتهد فلعلَّنا نجد حيلةً يمكننا بها أن نُسْدِّدَ فمَّا هذا النقب الذي تهُبُّ منه هذه الرياح؛ فإنَّا إذا فعلنا ذلك كُنَّا قد ورثنا الجنة في هذه الدنيا، مع ما يكون لنا من الأثر الجليل المؤبد.

قال الوزير: أنا عبدك ومسارعٌ لما تأمر به؛ قال الملك: ليس هذا جوابي، قل ما عندك، قال له الوزير: ما عندي في هذا الوقت جوابٌ غير هذا؛ لأنَّ الملك أعلم وأحكم وأشرف مني، وهذا الأمر الذي ذكره لا يمكن أن يُعمل إلَّا بقوَّة إلهية، فأَمَّا الناس فلا يطيقون ذلك؛ لأنَّه عظيم، وما سبيل الصغير أن يدخل في الأمر العظيم الكبير، فليتأمل الملك ما يُريد أن يفعله، فإنْ علم أنَّ له سبيلاً يوصلنا إليه ويكون عارفاً بما ينتجه عنه من خيرٍ وشرٍّ معرفة صحيحة، وإلَّا فما سبileه أن يهتمُ به ولا يصرف عناته إليه، فإنَّ الكلام فيه الساعة سهل؛ فأَمَّا معرفة ما يئول إليه من خيرٍ وشرٍّ معرفة صحيحة، فهو خفيٌّ عن الناس صعبٌ الإدراك، فلهذا ينبغي أن تُثْبِتَ النظر لئلا يلحقك من هذا الأمر ما لحق الحمار الذي ذهب يلتمس أن ينبت له قرناً فذهبت أَذْنَاه.^٤ قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: زعموا أنَّ حماراً كان لبعض الناس، وكان صاحبه يوسع له في العلف، فحصِبَ الحمار وكلَّبَ وهاج، واتفق يوماً أن صاحبه ساقه إلى نهرٍ ليشرب، فبصر الحمار من بعيدٍ بأنَّه رأها هاج وأدى ونهق وشَغَبَ، فلما رأى صاحبه هيجانه خشي أن ينفلت منه فربطه في شجرة كانت على شطٍّ النهر، وتقَدَّمَ إلى صاحب الأتان برِدِّها ففعل، وبقي الحمار يدور حول الشجرة ويزيَّدُ هيجانه، فيبينما هو يدور إذ طأطأ رأسه فنظر إلى إحليله وتُوتُره، فقال في نفسه: هذه العصا تصلح للفرسان والقتال، ولكن إيش الفائدة فيها وحدها وليس لي غيرها، والعصا وحدها لا تفي بقتال الناس؟

^٤ هذا المثل عُرف في الأدب العربي في عهد بشار بن برد الشاعر، وقد نظمه حين اقترح عليه ذلك:

فصرت كالغير عَذَا طالباً قرناً فلم يرجع بأذنين

ومع هذا فلست أنا ماهرًا بالفروسيَّة إلَّا أنه على كل حال أنا قادر أن أطعن بهذه العصا وأضرب، فبينما الحمار يتفكر في مثل هذا وصاحبِه جالس على الشط ينتظر سكون هيجانه ليردُّه إذ اتفق في ذلك الوقت أن أَيْلًا كبيرًا عظيمَ القرون قد أتى به صاحبه إلى النهر ليسقيه، فلَمَّا نظرَ الْأَيْلُ إلى الحمار والحرَّ إلى الْأَيْلِ، وأعجبَ الحمار كثرةُ قرونِه، وأنه المعنِّي الذي أرادَ هَشَّ إليه وفَكَرَ وقال: ما حملَ الْأَيْلُ هذه القرون إلَّا وعنده رماحٌ وقسُّيٌّ وسائرُ أنواعِ السلاح، وبلا شك إنه ماهر بالفروسيَّة، ولو استوى لي أن أهرب من موضعِي وأُلزِمَ هذا الْأَيْلَ وأخدمه وأطيعه فيما يأمرني به لقد كنتُ أتفرَّسَ، وكان هو أيضًا إذا رأى خدمتي ونصحي وإكرامي لم يبخِّلْ عَلَيَّ بِهبةً شَيْءٍ من السلاح، ولو لم يُرِدْ الله بي سعادةً جَدًّا ما ساقَ هذا الْأَيْلَ إلَيَّ، وإنَّ الْأَيْلَ لَمَّا رأى هيجانَ ذلك الحمار بقيَ مُتعجبًا لا يشرب، فقالَ الحمار: أظنَّ أنِّي قد أُعجِّبْتَ لِمَا رأى من شهامتِي وحسني وقد اشتغلَ قلبه بي.

ثم إنَّ صاحبَ الْأَيْلَ لَمَّا رأَاه لا يشرب رَدَّه إلى بيته، وكان بيت صاحبَ الْأَيْلِ بالقرب من الشط الذي كان الحمار مربوطًا فيه، ولم يزل الحمار يمْدُّ عينيه وينظر إلى الْأَيْلِ في رجوعِه إلى أن دخلَ بيت صاحبه، وعلَّمَ على الموضع علامَةٌ يعرفُ بها، ثم إنَّ صاحبَ الحمار رَدَّه أيضًا إلى بيته وشدَّه على معلَّفِه وطرحَ له عَلَفًا، فكانَ الحمار مشغولَ القلب بالمضيِّ إلى عندَ الْأَيْلِ فلمَّا يَهْنِه أكلَ ولا شربَ، وأخذَ يفكُّرَ في ذلك، وقالَ: ينبعُي أن أجعل هربيَّ إلَيْهِ في الليل؛ فلَمَّا جاءَ الليل واشتغلَ أصحابُه بالعشاءِ والشرب اجتهد حتى قلع مقوده وخرجَ هاربًا إلى الدار التي دخلَ فيها الْأَيْلُ، فلَمَّا انتهى إلَيْهِ وجدَ البابَ مغلقًا مستوثقًا منه فاطَّلَعَ من شَقِّ الباب فرأى الْأَيْلُ مُخْلَّى من رباطِه، وخشيَّ الحمار أن يراه الناسُ فوقَ في زاويةِ الحائط إلى الغداة، فلَمَّا كانَ بالغداة أخذَ الرجلُ الْأَيْلَ ومضى به إلى النهر ليسقيه، وكانَ الرجلُ يمشي قدامَه ويسوقه يحملُ مربوطَ في عنقه، فلَمَّا رأى الحمارَ ذلك اتبَعَه يماشيه ويخاطبه بلغته، ولم يكنَ الْأَيْلُ عارفًا بلغةِ الحميرِ فلمَّا يفهم عنه كلامَه ونفرَ منه، وأخذَ يقاتله، والتفتَ صاحبُ الْأَيْلِ وكانَ معه عصا فضربه، فقالَ الحمارُ في نفسه: ما يمنعني من كلامِ هذا الْأَيْلِ واللطفُ به والخدمةُ له وكشفُ ما عندي إلَّا هذا الرجلُ الذي يقوده؛ فوثبَ عليه وقبضَ على ظهره بأسنانه فعضَّه عَصَّةً شديدة، فما تخلصَ الرجلُ منها إلَّا بعدَ شدَّة، فقالَ الرجلُ: إنَّ أنا وآخذته لم آمنَ من بليَّةٍ يلقِيها بي، ولكنِّي أُودُّ أن أعلمَ فِيه عَلَمًا حتَّى إذا رأيته طالبتَ صاحبه بثاري، فأخرجَ سكينًا كانتَ معه فقطعَ بها أذنيَ الحمار، وعادَ الحمارَ إلى دارِ أصحابِه، وكانَ الذي نزلَ به من

صاحبِ أشدَّ من قطع أذنيه، فحينئذٍ فَكَرَ الحمار وقال: لقد كان آبائي أقدر مني على هذا، لكن خافوا من سوء عاقبته فامتنعوا منه.

قال الملك: قد سمعتَ مثلك هذا، وما سبilk أن تخاف من هذا الأمر، فإنه – والعياذ بالله – إن لم يتمَّ لنا ما نريده منه فلا بأس عليك وعلىَّ، فنحن قادرون على خلاص نفوسنا من سوء عاقبته. فلما رأى الوزير الملك مُشتھيًّا لهذا الأمر لم يمارِه بعدها فيه، ولكن دعا له.

ثم إنَّ الملك أمر بالمناداة في جميع أعماله ألا يبقى صغير ولا كبير إلَّا ويجيئه في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا بجملٍ حطب، فعمل الناس على هذا، وكان الملك قد عرف الوقت الذي ينقص فيه هبوب الرياح، فلما كان في ذلك الوقت أمر الناس بسد النقب بالحجارة والحطب والترب، وأن يبنوا عليه دَكَّةً عظيمةً، ففعلوا ذلك، وامتنعت الرياح التي كانت تخرج من ذلك النقب، وفقد البلد كل نسيم الهواء وهبوب الرياح، فجفت الأشجار ونشفت المياه، ولم يمض ستة أشهر حتى جفت العيون، ويبست كل حضرة في الجبل من الشجر والنبات، وبلغ ذلك إلى نحو من مائة فرسخ، وتماوت المواشي وسائر الحيوانات، ووقع الوباء في الناس، وهلك خلُقٌ كثير؛ فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد فوثب من بقيَ منهم ممَّن به رقم، وتجمعوا إلى باب الملك فقتلوه وزوجه وأهله ولم يبقَ منهم أحد، ثم مضوا إلى باب ذلك النقب فقلعوا الدكَّان والحجارة من الباب وطروحوا في ذلك الحطب نارًا فالتهبت، فلما بدأت في اللهيب عاد الناس إلى مواضعهم، ثم إنَّ الريح التي كانت قد احتقنت في مدة الستة أشهر خرجت بحميَّة شديدة فطرحت النار في سائر البلد، ودام هبوب الرياح يومين وليتين، فلم يبقَ في ذلك مدينة ولا قرية ولا حصن ولا شجرة إلَّا أحرقتها النار.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن ما يتوارث ويسري في الجنس صعب الزوال، ولكنَّ سبيل الإنسان إذا أراد أن يُباشر أمراً من الأمور، وكان بالقرب منه رجل حكيم، وأن يسأله أولاً ويسأوله ويأخذ رأيه فيه، وإن لم يكن بالقرب منه فسبيله أن يشاور العوامَّ فيه ويطلب البحث معهم والتقتيش؛ فإنه بهذه الطريق يمكنه أن يعلم ما في عاقبة هذا الأمر من الخير والشرّ عندما يمعن في الفحص والتنقيب.

فلما سمع الملك ذلك بدأ يُشاور الثلاثة وزراء بالعكس من أسفل إلى فوق، فقال لأصغرهم عنده: ما تقول أنت في هذا الأمر الذي نحن فيه، وما الذي يجب أن نَصْنَع؟ قال الوزير: عندي أن تُجعل أجراس كثيرة، ويعلَق كل جرس منها في عنقٍ واحدٍ من السنانير

ليكون كلما ذهب وجاء سمعنا صوت الجرس فحدّرنا منها ولم يَلْتَنَا مضرّة. فقال الملك للوزير الثاني: ما الذي عندك فيما أشار به صاحبك؟ قال: أنا غير حامد لمشورته، وَهُبْتاً أحضرنا أجراساً كثيرة، من ذا يقدر أن يتقدّم إلى السنّور حتى يُعلق عليه ذلك؟ وهبنا علّقنا الأجراس في رقبتها، فما الذي يمنع السنّور من الإضرار بنا؟ وما الذي يزيل عنّا الخوف؟ ولكن الذي عندي أن نخرج جميعنا من هذه المدينة ونقيم في البرّية سنة واحدة إلى أن يعلم أهل المدينة أنهم قد استغناوا بغيتنا عن السنّانير؛ لأنّه قد يلحق الناس مضرّة عظيمة من السنّانير، فإذا علموا أنه لم يبق في المدينة جُرَذ واحد قتلوا السنّانير وطربوها وتلهّربت، فإذا هلكوا عُدنا نحن بأجمعنا إلى المدينة كما كناً. قال الملك للوزير الثالث: ما عندك فيما قال الوزير؟ قال: أنا غير حامدٍ لما قال، وذلك لأنّا لو خرجنا بأجمعنا إلى البرّية، وأقمنا فيها سنة واحدة، فعلى كل حال ليس يمكن أن تفني السنّانير من هذه المدينة، ونلقى نحن في البرّية من الشقاء والبلاء ما ليس هو بدون فزعنا من السنّانير؛ لأنّا لم نتعتّد الشقاء قبل هذا، ثم إنّا لو رجعنا إلى المدينة لم يُدْمِ لنا ذلك الأمر إلّا مُدّة يسيرة، وذلك لأنّ الناس إذا عدنا وعاد فسادنا أعادوا السنّانير وعادت الحال في الفزع كما كان، ويمضي شقاوّنا وغربتنا فارغاً؛ قال له الملك: فقل الآن أنت ما عندك.

قال الوزير، وهو روزباد: لا أعرف في هذا الباب إلّا حيلة واحدة، وهو أن يُحضر الملك إلى حضرته جميع الجُرذان الذين في هذه المدينة ونواحيها، فيأمرهم أن يتّخذ كل واحدٍ منهم في البيت الذي يأوي فيه ثقباً يسع جميع الجُرذان، ويُعْدُ فيه زاداً لكافيتهم عشرة أيام، ويفتح للبيت سبعة أبواب مما يلي الحائط، وثلاثة أبواب مما يلي خزانة الرجل والثياب والفرش، فإذا فعلوا هذا قمنا بأجمعنا إلى دار بعض الموسرين من يكوّن له في داره سنّور واحد، وأقمنا على كل باب من السبعة أبواب نرصد السنّور كيلا يدخل علينا بفتحة، ويكون لنا عليه عين على ذهابه ومجيئه؛ لأنّه لا بدّ من أن يطمع ويقف على بعض الأبواب، ثم ندخل بأجمعنا من الثلاثة أبواب إلى خزانة المtau، ولا تعرّض للمأكول، ولكن نقصد إلى الفساد في الكسوة والفرش، ولا نُسرف في الفساد، فإذا رأى صاحب المنزل ذلك الفساد قال: لعلّ هذا السنّور لا يكفي! فيزيد آخر، فإذا فعل ذلك أكثرنا من الفساد وبالغنا فيه، فيميز ذلك صاحب المنزل ويقول: إنّ الفساد يزيدُ بكثرة السنّانير، ولكنني أجيّب بإخراج سنّور واحدٍ، فإذا فعل ذلك ونقص سنّور نقصنا نحن من الفساد قليلاً، فإذا أخرج الثاني نقصنا أيضاً من الفساد أكثر، فإذا أخرج الثالث خرجنا من ذلك المنزل إلى غيره وأجرينا أمره مجرى البيت الأول، فلا نزال ندور من منزل إلى منزل

ونملأ المدينة وندورها إلى أن يتبيّن للناس أنَّ الذي يلحقهم من المضَّرَّ العظيمة هي من قِبَلِ السنانيَّر، فإنَّهم إذا تبيّنوا ذلك لم يقتصرُوا على قتل السنانيَّر التي في البيوت فقط لكنَّهم يطلبون السنانيَّر البريَّة فيقتلونها.

فَفَعَلَ الْمَلِكُ وسَائِرُ الْجَرْذَانَ مَا أَشَارَ بِهِ الْوَزِيرُ، فَمَا مَضَتْ سَتَةُ أَشْهُرٍ حَتَّى هَلَكَ كُلُّ سَنُورٍ فِي الْمَدِينَةِ وَنَوَاحِيهَا، وَمَضِيَ ذَلِكَ الْجَيلُ مِنَ النَّاسِ، وَنَشَأَ بَعْدِهِمْ قَرْنٌ آخَرٌ عَلَى بِغْضَةِ السَّنَانِيَّرِ، فَكَانُوا مَتَى ظَهَرَ لَهُمْ أَدْنَى فَسَادٍ مِنَ الْفَأْرِ يَقُولُونَ: انتظِرُوهُمْ لَا يَكُونُ اجْتِازَ بِالْمَدِينَةِ سَنُورٌ، وَكَانُوا أَيْضًا مَتَى حَدَثَ بِالنَّاسِ أَوْ بِالْبَهَائِمِ مَرْضٌ يَقُولُونَ: يَوْشِكُ أَنْ يَكُونَ عَبْرَ بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ سَنُورٌ، فَبِهَذَا النَّحْوِ تَخَلَّصُ الْجَرْذَانُ مِنْ فَزَعِ السَّنَانِيَّرِ وَاطْمَأَنُوا مِنْهُمْ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْحَيْوَانُ الْمُضِعِيفُ الْمُهِينُ احْتَالَ بِمَثَلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ حَتَّى تَخَلَّصَ مِنْ عَدُوِّهِ، وَدَفَعَ الضررَ عَنْ نَفْسِهِ، فَمَا يَجِبُ أَنْ نَقْطِعَ الرَّجَاءَ مِنَ الْإِنْسَانِ – الَّذِي هُوَ أَكْيَسُ الْحَيْوَانِ وَأَكْمَلُهُ وَأَحْكَمَهُ – أَنْ يَدْرِكَ مِنْ عَدُوِّهِ مَا أَرَادَ بِحِيلَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ.

باب السّنور والجُرذ

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتَ المثل الذي ضربت، فاضرب لي الآن إن رأيت مثلَ رجلٍ كثُر عدوه وحصروه من كل جانب، فأشرف على الْهَلْكَة، فالتمس المخرج بموالة بعض العدو ومصالحته، فسلِّم ممّا يتخفّف، ووُفِّي لمن صالح منهم، فأخبرني عن موضع الصلح وكيف يُتمس ذلك؟

قال الفيلسوف: إن العداوة والمودة والبغضاء ليس كُلُّها تثبت وتدوم، وكثيرٌ من المودة يتحول بُغضاً، وكثيرٌ من البغض يتحول محبةً ومودةً عن حوادث العلل والأمور، وذُو الرأي والعقل يُهبي لكل ما حدث من ذلك رأياً، من الطمع فيما يحدث من ذلك قبل العدو، واليأس مما عند الصديق، فلا يمنعُ ذا العقل عداوةً كانت في نفسه لعدوه من مقاربته والتماس ما عنده، إذا طمع منه في دفع مخوف، ويُعمل الرأي في إحداث المواصلة والمواعدة، ومن أبصر الرأي في ذلك فأخذ فيه بالحزن ظفر بحاجته، ومن أمثال ذلك مثلُ الجُرذ والسنور اللذين اصطلاحاً حين كان ذلك الرأي لهما صواباً، وكان في صلحهما صلاحهما جميعاً ونجاتهما من الورطة الشديدة، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض سَرَنديب شجرة من الدُّوح،¹ وكان في أصلها جُحر

¹ هذا الباب مذكور في «المابهارتا»، واسم الشجرة التي في أصلها جُحراً الجرد والسنور في النسخة السريانية الحديثة: «بيروز»، وفي القديمة: «بيرات»، وبين هذين الاسمين واسم الشجرة التي ذكرت في نسختنا (باب البويم والغربان) مشابهة، وكأن أحد الاسمين محَرَّف عن الآخر أو هما محَرَّقان عن أصل واحد.

لْجُرَذ يُقال له فريدون، وجُحر لِسْنُور يُسمَّى رومي،^٢ وكان الصيادون ربما اجتازوا بذلك المكان يتلمسون صيد الوحش، وأنَّ صياداً مَرَّ ونصب حباله ذات يوم فوق فمها رومي، وخرج الجرذ يبتغي ما يأكل وهو مع ذلك حَذَر يلتفت وينظر، فلما رأى السُّنُور مقتنياً في الحال فرح، ثم التفت خلفه فأبصر ابن عرس قد تبعه، فنظر فوقه فإذا بومة على شجرة ترصدُه، فخاف إن انصرف راجعاً أن يثب عليه ابن عرس، وإن ذهب يميناً أو شمالاً أخذته البومة، وإن تقدَّم فالسُّنُور أمامه، فقال الجرذ: هذا بلاء قد اكتفي، وشرور قد تظاهرت عليَّ، ولا مُفزع لي إلَّا إلى عقلي وحيلتي، فلا يكونَ الدَّهش من شأنِي، ولا يذهبنَّ قلبي شعاعاً؛ فإنَّ العاقل لا يتفرق عليه رأيه، ولا يعزُّ عنه عقله على حال، وإنما عقول ذوي الرأي كالبحر الذي لا يُدرك غوره، ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجاهود عقله فيُهلكه، ولا الرخاء ينبغي له أن يبلغ منه مبلغاً يُسيطره ويُسْكِره ويُعمي عليه أمره.

ثم قال: لا أرى حيلةٌ أمثلٌ من التماس صلح السُّنُور؛ فإنَّ السُّنُور قد نزل به بلاء، ولعلَّي أقدر على صلاحة، ولعلَّه لو قد سمع مني ما أكلمه به من الكلام الصحيح الذي لا خداع فيه أن يفهم عني ويقطعن في معرفتي، ويسلِّس بذلك لصافي، ولعلَّه يكون له ولِي في ذلك نجاة، ثم دنا منه فقال: كيف حالك؟ فأجابه السُّنُور: كالذي تهوى، في الضنك والضيق! قال الجرذ: لا تكذيب لك، لعمري لقد كان يسرُّني ما ساعك، وأرى ما ضيق عليك لي سعة، ولكنَّ اليوم قد شاركتك في البلاء، فلا أرجو لنفسي خلاصاً إلَّا بالأمر الذي أرجو لك به الخلاص، فذلك الذي عطفني عليك، وستعرف مقالتي أنَّ ليس فيها ريبٌ ولا مخادعة، فإنه قد ترى مكان ابن عرس كامناً لي، والبومة تُريد اختطافي، وكلآهاماً لي ولك عدوٌ، وهما يخافانك ويهابانك، فإنَّ أنت جعلت لي أنْ تُؤْمنَني إنَّ أنا دنوت منك فأنجو بذلك منها؛ فإني مُخلصك مما أنت فيه، فاطمئنَّ إلى ما ذكرتُ، وثق به مني، فإنه ليس أحدٌ أبعدَ منَ الخير من الاثنين منزلتهما واحدة وصفتها مختلفة: أحدهما من لا يثق بأحد، والآخر من لا يثق به أحد، ولك عندي الوفاء بما جعلتُ لك من نفسِي، فاقبِلْ مني واسترسِلْ إلَيَّ وعجلْ ذلك ولا تؤخرْ، فإنَّ العاقل لا يؤخِّر عمله، ولتطبِّ نفسك ببقائي

^٢ في النسخة السريانية الحديثة اسم القطة: «رومي»، واسم الفأر: «أفريدييون»، وفي السريانية القديمة: «بريد» و«روما».

كما طابت نفسي ببقائك؛ فإنَّ كلَّ واحِدٍ مِنَّا ينجو بصاحبِه، كالسفينة والرَّكَاب في البحر، فبالسفينة يخرج الرَّكَاب من البحر وبالرَّكَاب تخرج السفينة.

فلما سمع السُّنُور مقالة الجرد سُرَّ بها، وعرف أنه صادق، فقال للجرذ: أرى قولك شيئاً بالحق والصدق، فأنا راغبٌ في هذا الصلح الذي أرجو لنفسي ولك فيه الخلاص، ثم أشكر لك ذلك ما بقيت وأجازيك به أحسن الجزاء. قال الجرد: فإذا دنوْتُ منك فلَيَرَ ابن عرس والبومة ما يعرفان به صلحنا فينصرفان آيسين، وأقبل أنا على قرضِ الحال؛ فلما دنا الجرد من السُّنُور أخذه فالالتزام، فلما رأى رأت البومة وابن عرس ذلك انصرفا خائبين، وأخذ الجرد في قطع حبائل السُّنُور فاستبطأه السُّنُور وقال للجرذ: ما أراك جائعاً في قطع رباطي، فإنَّ كنت - حين ظفرت بحاجتك - تبدلت عما كنت عليه وتواينت في حاجتي فليس هذا للكريم بخليق؛ أن يتواين في حاجة صاحبه إذا استمكن من حاجة نفسه، وقد كان لك في موْدَتي من عاجل المنفعة والاستقاذ من الهلة ما قد رأيت، وأنت حقيقُ أن تكافئني، ولا تذكر عداوةً ما بيني وبينك؛ فإنَّ ما حدث بيننا حقيق أن يُنسِيك ذلك، وإنَّ الكريم لا يكون إلَّا شكوراً غير حقود، تُنسِيه الخلة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة، وأعجل العقوبة عقوبة الغدر واليمين الكاذبة، ومن إذا تُصرَّع إليه وسُئل العفو لم يعُف ولم يصفح. قال الجرد: الأصدقاء صديقان: طائع ومضطَرُ، وكلاهما يلتمس المنافع ويحترس من المضار، فأمَّا الطائع منها فَيُسْتَرِسلُ إلَيْهِ ويوثُقُ به على كل حال، وأمَّا المضطَرُ فإنَّ له حالاتٍ يُسْتَرِسلُ إلَيْهِ فيها، وحالاتٍ يُتَقَّى فيها، فلا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجته ببعض ما يُتَقَّى وما يُخاف، وليس عامَة التواصل والتحاب بين الناس إلَّا التماس عاجل النفع، وأنا وافٍ لك بما جعلت على نفسي، ومحترسٌ من أن يصيبني مثلُ الذي أجايني إلى صلحك؛ فإنَّ لكل عملٍ حيناً، وإن لم يكن في حينه فلا عاقبة له، وأنا قاطعٌ حبائلك لوقتها، غيرَ أني تارك عُقدَةً واحدةً أرتهنك بها، فلا أقطعها إلَّا في الساعة التي أعرَفُ أنك عنِي فيها في شُغُلٍ، ففعل ذلك، وباتا يتحادثان حتى إذا أصبحا إذا هما بالصيَّاد قد أقبل من بعيد. فقال الجرد: الآن جاء موضع الجد في قطع بقية حبائلك، فقطع حبائله، ولم يدْنُ منها الصياد حتى فرغ الجرد، على سُوءِ ظُنْ من السُّنُور ودَهش، فلما أفلت عدا إلى الشجرة فصعدها، ودخل الجرد الجحر، فأخذ الصيَّاد حبائله مقطَّعةً وانصرف خائباً.

وخرج الجرذ بعد ذلك من جُحْره فرأى السنّور من بعيد، فكره أن يدنو منه، وناداه السنّور: أيها الصديق، ذا البلاء الحسن! ما يمنعك من الدُّنُونِ مِنْيَ لأجزيك بأحسن ما أبليتني؟ هلّم إلَّيْ ولا تقطع إخائي، فإنه مَنْ اتَّخذ صديقاً ثُمَّ أضاع وَدَ إخائه حُرْم ثمرة الإخاء، وأيُّس من مُنْفعة الإخوان، وإنَّ يدك عندي اليُّودُ التي لا تُنسى، فأنت حَقِيقٌ أَنْ تلتَمِسَ مكافأة ذلك مِنْيَ ومن إخواني وأصدقائي، فلا تخافنَّ مِنْيَ شيئاً، واعلم أَنَّ ما قبَّلي لك مبذول، ثم حلف له واجتهد على تصديق ما قال، فأجابه الجرذ أنه رُبُّ عداوة باطنة ظاهرُها صداقتَه، وهي أشدُّ ضرراً من العداوة الظاهرة، ومن لم يحترس منها وقع موقع مَنْ يركب نَابَ الفيل المغتالم ثم يغلبه النعاس، وإنما سُمِّي الصديق صديقاً لما يُرجُى من نفعه، وسُمِّي العدو عدوًّا لما يخاف من ضرره؛ فلن العاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقتَه، وإذا خاف ضرَّ الصديق أظهر له العداوة، أوَّلاً ترى أولاد البهائم تتبع أمهاتهن رجاءَ أَبَانَهَا، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنهَا؟ وكما أَنَّ السحاب يلتئم ساعه ويقتطع أخرى، ويَهْمِي ساعه ويُمسِك أخرى، كذلك العاقل يتلوّن مع متلوّنات الأمور عن اختلاف أحوال الأصحاب، فينبسط مرة وينقبض مرة، ويسترسل مرة ويحترس أخرى، وربما قطع المرءُ عن صديقه بعض ما كان يصله بفضله فلم يخف شره؛ لأنَّ أصل أمره لم يكن عداوة، فاماً من كان أصلُ أمره عداوة، وتحدث صداقته لحاجةِ حملته على ذلك، فإنه إذا ذهب الأمر الذي أحدث ذلك صار إلى أصل أمره، كالماء الذي يسخن بال النار، فإذا رُفِع عنها عاد بارداً، فلا عدوٌ أضرُّ لي منك، وقد كان اضطراري وإياك أَمْرُ آخر جنَا إلى ما صرنا إلَيْهِ من المصالحة، وقد ذهب الأمر الذي احتجتَ إلَيْهِ واحتَجَتْ إلَيْكَ فيه، وأخافُ أَنْ يكون مع ذهابه عَوْد العداوة بيَنِي وبينك، ولا خير للضعيف في قرب العدوِ القويِّ، ولا للذليل في قربِ العدوِ العزيزِ، ولا أعلمُ لك في حاجةٍ إلَّا أنْ تريِدُ أَكْلي، ولا أرى الثقة بك، فإِنِّي قد علمت أَنَّ الضعيف هو أقرب إلى أن يسلِم من العدوِ القويِّ إذا هو احترس منه ولم يغتر به، من القويِّ إذا اغتر بالضعف واسترسل إليه، والعاقل يصانع عدوه إذا اضطُرَّ إلَيْهِ ففيظهرُ له وُدَّه ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بِدَّا، ويعجِّل الانصراف عنه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً.

واعلم أن صريع الاسترسال^٣ لا يكاد يستقيل عثرته، والعاقل يفي لم صالح بما جعل له، ويتحقق بذلك من نفسه، ولا يثق لها بمثل ذلك من أحد، ولا يؤثر على البعد من

^٣ ما بين كلمة «الاسترسال» في هذا السطر والذى قبله ساقطٌ من نسختنا، وقد نقلناه عن نسخة شيخوا.

باب السُّنُور والجرذ

عدُوهُ، ما استطاع، شيئاً، والبعد لك من الصياد والبعد لي منكِ من أحزم الرأي، وأنا أؤدُك من بعيد، ولا عليك أن تَجْزِيني بمثل ذلك إن رأيت، وإلَّا فلا سبيل إلى اجتماعنا أبداً، والسلام.

باب الملك والطير قبرة

قال الملك^١ للفيلسوف: قد سمعت مثل الرجل يحيط به عدوه فيستظهر ببعضهم على بعض، ويصالحه حتى يتخلص بذلك مما يخاف وقد وف وسلم، فاضرب لي — إن رأيت — مثل أهل الترات والذي ينبغي لبعضهم من الاتقاء لبعض.

^١ هذه القصة مذكورة في «المابهارتا»، واسم الطائر في النسخ الأخرى «فنزة» أو «فنزدة» غير مشكول، وهو في النسخة السريانية الحديثة: «بنزه»، وفي القديمة: «بيزووه»، وهي صيغة أدق إلى أنها التحريف، وأصلها في السنسكريتية: «بوزاني». و«فنزة» أقرب الصيغ إلى الأصل، ولكننا لم نشاً تغيير الاسم «قَبْرَة» الذي في نسختنا لأنه قديم يرجع إلى عصر ابن الهبارية على الأقل، جاء في منظومة «كليلة ودمنة» لهذا الشاعر:

طيرٌ يربّيه يسمى قَبْرَة كُدمِيَّةٌ في حائط مصوَّرٍ

قال الفيلسوف: زعموا أنَّه كان ملك من الملوك يُقال له بَرْهَمُودٌ^٢ وكان له طائر يُقال له قُبَّرة، وكان ناطقاً كِيَسًا، ومعه فرخ له، فأمر الملك بِقُبَّرة وبفرخه فجعلا في مكان عند امرأة هي سيدة نسائه، وأمرها بالاستيقاء به، وأنَّ امرأة الملك ولدت غلاماً، فلما شبَّ قليلاً لَفَ الفرخ الغلام، فكانا يلعبان جميعاً ويأكلان معًا، وكان قُبَّرة يذهب إلى الجبل كل يوم فيجيء بثمرتين من فاكهة لا تُعرف فيطعم إداهما فرخه، والأخرى ابن الملك، فأسرع ذلك في نباتهما وقوَّتها حتى استبان ذلك للملك، فزاد قُبَّرة عنده كرامة، حتى إذا كان ذات يوم وقَبَّرة غائب في ابتغاء الثمرتين إذ وشب فرخ قُبَّرة في حجر الغلام، فغضب الغلام من ذلك وضرب بالفرخ الأرض فقتله.

فلما جاء قُبَّرة ورأى فرخه مقتولاً حزن وصاح وقال: قُبَّحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء! وويلٌ لمن ابْتُلِيَ بصحبته! فإنهم لا حميم لهم ولا حريم، ولا يحبُّون أحداً، ولا يكرُّم عليهم إلَّا أن يطمعوا عنده في غناء فيقرِّبُوه عند ذلك ويكرموه، فإذا قضوا منه حاجتهم فلا وُدٌّ ولا حِفاظاً، ولا الإحسان يجزون به، ولا الذنب يعفون عنه، الذين إنما أمرهم الفخرُ والرياء والسمعة، الذين كُلُّ عظيمٍ من الذنوب يركبونه، وهو عندهم صغير حقير هُنّ. ثم قال: لأنْتِقَمَنَّ اليوم من الكُفُور الذي لا رحمة له، الغادر بِإلفه وتربه، وصاحب ملاعيته ومواكلته، ثم وشب في وجه الغلام ففقأ عينيه برجليه، ثم طار فوق على مكانٍ مُشرِّف.

بلغ الملك ذلك وما فعل بابنه، فجزع جزاً شديداً، وطبع أن يحتال لقُبَّرة فيظفر به، فركب إليه ووقف عنده وناداه ودعاه باسمه، وقال: أنت آمن فأقبل إلينا؛ فأبى ذلك

^٢ في النسخة السريانية الحديثة وبعض النسخ العربية أنَّ هذا الملك كان في كشمير، وكأنها محرفة أو مبدلة من الاسم الذي في السريانية القديمة: «كامبليا»، واسم الملك في النسخ العربية المطبوعة: «بريدون»، وفي الفارسية: «ابن مدین»، وفي السريانية الحديثة: «برمزير»، وفي القديمة: «برمشرين»، ويُظنُّ أن هذه الصيغ كلها ترجع إلى السنسكريتية: «بِرَهَمَدَتاً». ومن البَيْنَ أنَّ أقرب الأسماء إلى الأصل السنسكريتي ما في نسختنا: «برهمود»، وتتوافقها منظومة ابن الهبارية:

قال نعم كان لبِرْهَمُودَ الملك المعظم المحسود

قَبْرَةٌ وَقَالَ: أَيْهَا الْمَلِكُ، إِنَّ الْغَادِرَ لَا يُجَازِ لَهُ بَغْدَرَهُ، وَإِنَّ أَخْطَأَهُ عَاجِلُ الْعَقُوبَةِ لَمْ يَخْطِئْهُ أَجْلَهَا، حَتَّى تَدْرَكَ الْأَعْقَابَ وَأَعْقَابَ الْأَعْقَابِ، وَإِنَّ ابْنَكَ غَدَرَ بَابِنِي، فَعَجَّلَتْ لَهُ الْعَقُوبَةِ.

قَالَ الْمَلِكُ: قَدْ – لَعْمَرِي – فَعَلَنَا ذَلِكَ بَكْ، فَانْتَقَمْتُ مِنْهُ، فَلَيْسَ لَنَا قَبْلَكَ وَلَا لَكَ قَبْلَنَا وَتَرْ مَطْلُوبٌ، فَارْجَعْ إِلَيْنَا آمِنًا، قَالَ قَبْرَةٌ: لَسْتُ رَاجِعًا إِلَيْكَ، فَإِنَّ ذُوِّ الرَّأْيِ قَدْ نَهَا عَنْ قُرْبِ الْمَوْتَوْرِ، وَقَالُوا: لَا يَزِيدَنَكَ لَطْفُ الْحَقُودِ وَلِيْنُهُ وَتَكْرَمُهُ إِلَّا وَحْشَةً مِنْهُ، فَإِنَّكَ لَا تَجُدُّ لِلْمَوْتَوْرِ الْحَقُودَ أَمَانًا هُوَ أَوْثُقُ مِنَ الدُّعْرِ وَالْبَعْدِ عَنْهُ وَالْاحْتِرَاسِ. وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ الْعَاقِلَ إِنَّمَا يَعْدُ أَبُوِيهِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ، وَيَعْدُ الْإِخْوَةِ مِنَ الرِّفَقاءِ، وَالْأَزْوَاجِ إِلَفَاءِ، وَالْبَنِينَ ذِكْرًا، وَالْبَنَاتِ خَصِيمَاتِ، وَالْأَقْارِبِ غَرَماءِ، وَيَعْدُ نَفْسَهُ فَرِدًا وَحِيدًا، وَأَنَا الْيَوْمُ الْفَرَدُ الْوَحِيدُ قَدْ تَزَوَّدَتْ مِنْ عَنْدِكُمْ مِنَ الْحَزْنِ عَيْنًا ثَقِيلًا لَا يَحْمِلُهُ مَعِيْ أَحَدٌ، وَأَنَا ذَاهِبٌ فَعَلَيْكَ السَّلَامُ.

فَقَالَ الْمَلِكُ: إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَكُنْ اجْتَزَيْتَ مِنْهَا مَا صَنَعْنَا بِكَ، وَلَوْ كَانَ صَنَعِيكَ بَنَا مِنْ غَيْرِ ابْتِدَاءٍ مِنَّا إِلَيْكَ بِالْغَدَرِ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ، فَأَمَّا إِذْ كَنَّا نَحْنُ بِدَأْنَاكَ فَمَا ذَنَبْتَ؟ وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثَّقَةِ بَنَا؟ فَهَلَّمَ فَارْجَعْ فَإِنَّكَ آمِنٌ، قَالَ قَبْرَةٌ: إِنَّ الْأَحْقَادَ فِي الْقُلُوبِ لَمَوْجَعَ مُوْجَعَةَ خَفِيَّةٍ، فَالْأَلْسُنَ لَا تَصْدُقُ عَنِ الْقُلُوبِ، وَالْقُلُوبُ أَعْدَلُ عَلَى الْقُلُوبِ شَهَادَةً مِنَ الْلِسَانِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ قَلْبِي لَا يَشْهُدُ لِلْسَّانِكَ، وَلَا قَلْبِكَ لِلْسَّانِيَ؛ قَالَ الْمَلِكُ: أَسْتَعْلُمُ أَنَّ الضَّغَائِنَ وَالْأَحْقَادَ تَكُونُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ كَانَ عَلَى إِمَاتَةِ الْحَقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ؟ قَالَ قَبْرَةٌ: إِنَّ ذَلِكَ لَكَمَا ذَكَرْتَ، وَلَيْسَ ذُو الرَّأْيِ مَعَ ذَلِكَ بِحَقْقِيْ أَنَّ يَظْنَنَ بِالْمَوْتَوْرِ أَنَّهُ نَاسٌ مَا وَتَرَهُ بِهِ وَمَنْصُرُّ عَنِهِ، وَذُو الرَّأْيِ جَدِيرٌ بِأَنَّ يَتَخَوَّفَ الْحِيَلَ وَالْخُدُودَ، وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْدَاءِ لَا يُسْتَطِعُ بِالشَّدَّةِ وَالْمُكَابِرَةِ حَتَّى يُصَادَ بِالرَّفْقِ وَالْمُلَائِنَةِ كَمَا يُصَادُ الْفَيْلُ الْوَحْشِيُّ بِالْفَيْلِ الدَّاجِنِ. قَالَ الْمَلِكُ: إِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَتَرَكُ إِلَفَهُ، وَلَا يَقْطَعُ إِخْوَانَهُ، وَلَا يُضِيعُ الْحِفَاظَ، وَإِنَّهُ هُوَ خَافٌ عَلَى نَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّ هَذَا الْخُلُقُ لِيَكُونَ فِي أَوْضَعِ الدَّوَابِ مِنْزَلَةً، وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ نَاسًا يَذْبَحُونَ الْكَلَابَ وَيَأْكُلُونَهَا، فَيَرِيْ ذَلِكَ الْكَلَبَ الَّذِي قَدْ أَفْهَمْنَا، فَيَمْنَعُهُ إِلَفَهُ إِيَّاهُمْ مِنْ أَنْ يُفَارِقُهُمْ، قَالَ قَبْرَةٌ: إِنَّ الْأَحْقَادَ مُخَوَّفَةٌ حِيثُ كَانَتْ، وَأَشْدُهَا مَا كَانَ فِي أَنْفُسِ الْمُلُوكِ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بِالْأَنْتِقَامِ، وَيَرِونَ الْطَّلْبَ بِالْوَتَرِ مَكْرُمَةً وَفَخْرًا، وَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَغْتَرَّ بِسُكُونِ الْحَقُودِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الْحَقْدِ فِي الْقُلُوبِ، مَا لَمْ يَجِدْ مُتَحَرِّكًا، مَثَلُ الْجَمَرِ الْمَكْنُونِ مَا لَمْ يَجِدْ حَطَبًا، فَلَا يَزَالُ الْحَقْدُ يَتَطَلَّعُ إِلَى الْعُلُلِ كَمَا تَبَتَّغِي النَّارُ الْحَطَبَ، فَإِذَا وَجَدَ عَلَّةً أَسْتَعَرَ اسْتِعَارَ النَّارِ، فَلَا يُطْفَئُهُ مَاءٌ وَلَا كَلَامٌ وَلَا لِينٌ وَلَا رُفْقٌ وَلَا خَضْوعٌ وَلَا تَضْرُعٌ وَلَا شَيْءٌ دُونَ تَلْفِ الْأَنْفُسِ، مَعَ أَنَّهُ رُبٌّ وَاتِّرٌ يَطْمَعُ فِي مَرَاجِعَةِ الْمَوْتَوْرِ لَمَا يَرْجُو أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ وَالْدَّفْعَ عَنِهِ، وَلَكِنِي

أضعف من أن أقدر لك على ما يذهب ما في نفسك، ولو كانت نفسك لي على ما تقول كان ذلك عنّي مغبّياً، فأنا لا أزال في خوفٍ وسوءٍ ظنٌ ما اصطحبنا، وليس الرأي إلا الفراق، وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك: قد علمت أنه لا يستطيع أحداً لأحدٍ ضرراً ولا نفعاً، وأنه لا شيء من الأشياء صغيراً ولا كبيراً يصيب أحداً إلا بقدرٍ مقدور، وكما أنَّ خلقَ ما يُخلقُ وولادةَ ما يُولدُ وبقاءَ ما يبقىَ ليس إلى الخلائق منه شيءٌ، كذلك فناءَ ما يفنى وهلاكَ ما يهلك، فليس لك عندي فيما صنعت بابني ولا لابني في هلاك فرخك ذنب، إنما كان ذلك قدرًا مقدورًا، وكذا له عللاً، فلا تؤاخذنا بما أتاك به القدر. قال قبرة: إن أمر القدر لكتما ذكرت، ولكن ليس ذلك حقيقةً أن يمنع الحازم منْ توقي المخوف والاحتراض من المحترس منه، ولكنه يجمع تصديقاً بالقدر وأخذًا بالقوّة والحزم، وأنا أعلم أنك تحدثتني بغير ما في نفسك، والأمر فيما بيني وبينك غيرُ صغيرٍ، إنَّ ابنك قتل فرخي، وفقلاتُ أنا عينيه، فأنت الآن تُريد بي القتل، وتخاتلني عن نفسي لتشتفي مني، والنفس تأبى الموت، وقد كان يُقال: الفاقعة بلاء، والحزنُ بلاء، وقربُ العدوِّ بلاء، وفارقُ الأحبةِ بلاء، والسفقُ بلاء، والهرمُ بلاء، ورأس البلايا كلها الموت، وليس أحد أعلم بما في نفس الموجع المهزون ممَّن ذاق مثلَ ما به، وأنا بما في نفسك مني عالمٌ؛ للمثال الذي عندي من ذلك، فلا خيرٌ لي في صحبتك؛ فإنك لن تذكر صنيعي بابنك ولن أذكر صنيع ابنك بفرخي إلا أحدهُما لقلوبنا تغييراً.

قال الملك: إنه لا خيرٌ فيمن لا يستطيع الإعراض عمّا في نفسه، ويمتهن ويتناساه، حتى لا يذكر منه شيئاً، ولا يكون له في نفسه موقع؛ قال قبرة: إنَّ الرجل الذي في باطن قدمه قُرحةٌ إن هو حرص على خفة الشيء فلا بدَّ أن ينكمأها، والرجل الرمد إذا استقبل الريح فقد تعرّض لإنكاء عينيه، وكذلك الموتور إذا دنا من عدوه فقد عرّض نفسه للهَلَكة، ولا يستطيع صاحب الدنيا إلا توقي المتألف وتقدير الأمور وقلة الاتكال على القوّة والحيلة، وقلة الاغترار بمن لا يأمن، فإنه من اتكل على قوته حمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف، ومن سلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف نفسه، ومن لا يقدر طعامه وشرابه فحمل على نفسه وأعضائه ما لا يطيق فربما قتل نفسه، ومن لم يقدر لقمه فأعظمها فوق ما يسع فوه غصّ بها فمات، ومن اغترَّ بكلام عدوه وضياع الحذر فهو أعدى لنفسه من عدوه، وليس على الرجل النظرُ في القدر الذي لا يدرى ما يأتيه منه وما يُصرّف عنه، ولكن عليه العمل بالحزم، والأخذ بالقوّة في أمره، ومحاسبة نفسه في ذلك، والعاقل لا يُخيف أحداً ما استطاع، ولا يقيم على المخوف وهو يجد مذهبًا، وأنا كثيرٌ



المذاهب أرجو ألا أتووجه في وجه منها إلا وجدت فيه ما يغبني؛ فإن خلاً خمساً من تزودهن بلغنه في كل وجه وطريق، وقربن له البعيد، وانسّن له الغربية، وأكسبّنْه المعيشة والإخوان: كفُ الأذى، وحسنُ الأدب، ومجانبةُ الريبة، وكرمُ الخلق، والنبلُ في العمل، وإنما خاف العاقل على نفسه طابت نفسه عن الأهل والولد والوطن؛ فإنه يرجو في ذلك خلأً ولا يرجو من النفس خلأً، وشرُ المال ما لا يُنفق منه، وشرُ الأزواج التي لا تُواتي البعل، وشرُ الولد العاصي، وشرُ الإخوان الخاذل لإخوانه، وشرُ الملوك الذي يخافه البريء، وشرُ البلاد بلادٌ ليس فيها أمن ولا خصب، وإنه لا أمن بي أيها الملك معك، ولا طمأنينة لنفسي في جوارك.

ثم ودع الملك وطار.

باب الأسد وابن آوى

قال الملك للفيلسوف: قد سمعتُ هذا المثل، فاضرب لي مثل الملوك فيما بينهم وبين قرابينهم، وفي مراجعة من يراجع منهم بعد عقوبة أو جفوة تكون عن ذنبٍ يُدْنِبه أو ظلمٍ يُظَلِّمه.

قال الفيلسوف: إنَّ الملك لو كان لا يراجع من أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم اجترمه أو ظلمَه أضرَ ذلك بالأمور والأعمال، ولكن الملك حقيقٌ أن ينظر في حال من ابْتِلَى بشيءٍ من ذلك وما عنده من الغناء الذي يرجو منه النفع، فإنَّ كَانَ مَنْ يُسْتَعَانُ به ويُوثَقُ برأيه وأمانته كَانَ الملك حقيقةً بالحرص على مراجعته؛ فإنَّ المُلُك لا يُسْتَطَاعُ إلَّا بالوزراء والأعوان، ولا يُنْتَفَعُ بالوزراء والأعوان إلَّا بالمُوَدَّة والنُّصيحة، ولا مُوَدَّة ولا نُصيحة إلَّا مع أصالة الرأي والعفاف، وأعمال الملك كثيرة، ومن يحتاج إليه من العَمَالِ والأعوان كثير، ومن يجمع منهم الذي ذكرت من النُّصيحة وأصالة الرأي والعفاف قليل، وإنما السبب في الوجه الذي به يُسْتَقِيمُ العملُ أن يكون الملك عالِمًا بمودة مَنْ يُرِيدُ الاستعانة به، وما عند كل رجلٍ منهم من الرأي والغناء، وما فيه من العيوب، فإذا استقرَ ذلك عنده من عِلْمه أو علم غيره، وعَلِمَ ما يُسْتَقِيمُ به وجَهَ لِكُلِّ عملٍ مَنْ قد عرف أنَّه من الأمانة والنِّجدة والرأي ما يُسْتَقِلُ بذلك العمل، وأنَّ الذي فيه من العيب لا يضرُ بذلك العمل، ويتحفظُ من أن يوجَه أحدًا في وجهه لا يحتاج فيه إلى مُروءة إن كانت عندَه، ولا تؤمن عيوبه وعاقبة ما يكره منه، ثم على الملك بعد ذلك تعاُدُ عَمَالُه والتَّفَقُّدُ لأمورهم حتى لا يخفي عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء، ثم عليهم بعد ذلك^١ إلَّا

^١ جملة «ثم عليهم - مسيئاً». ساقطة من الأصل، ونُقلَت عن شيخو.

يتركوا مُحِسِّنًا بغير جزاء، ولا يقرُّوا مسيئًا ولا عاجزًا على العجز والإساءة، فإنهم إن ضيَّعوا ذلك وتهاونوا به تهاون المحسن واجترأ المساء ففسد الأمر وضاع العمل، ومثل ذلك مثل الأسد وابن آوى. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض كذا وكذا ابن آوى، وكان متألِّهًا متغففًا، وكان مع ذئاب وثعالب وبنات آوى، ولم يكن يصنع ما يصنعون ولا يُعِير كما يُغِيرون، ولا يأكل لحمًا، فخاصمته تلك السباع وقلَّ له: لا نرضى بسيرتك ولا برأيك الذي أنت عليه، مع أن تألهك لا يُعني عنك شيئاً، وأنت لا تستطيع أن تكون إلَّا كأحدنا فتسعي معنا وتتفعل فعلنا، فما الذي يُشبه كفك عن الدماء وترك اللحم؛ قال ابن آوى: إنَّ صحبتي إياكم لا تؤْتمني إن لم أؤْتُم نفسي؛ لأنَّ الآثام ليست من قِبَل الأماكن والأصحاب، ولكنها من قِبَل القلوب والأعمال، فلو كان صاحبُ المكان الصالح يكون عمله فيه صالحًا، وصاحبُ المكان الشُّرّ يكون عمله فيه سيئًا، إذن كان مَن قَتَل الناسك في محاربه لم يأثم، ومن استحياه في معركة القتال أثم، وإنما صحبتكم بنفسي،^٢ ولم يصحبكم مَنْ قلب ولا عمل؛ لأنني أعرف ثمرة الأعمال.

فثبت ابن آوى على حاله تلك، وشُهِر بالنسك والتأله حتى بلغ من الصدق والعفاف والأمانة أَفْضَلَ ما بلغ أحدُ من النساك، وبلغ ذلك أَسْدًا كان ملك السباع بتلك الناحية، فرَغَب فيه وأرسل إليه وكلمه وفتَّشه ودعاه إلى صحبته، فقال له: إنَّ مُلْكِي عظيم وأعمالي كثيرة، وأنا إلى الأعوان محتاج، وقد بلغني عنك نُبل وعفاف، ثم قدمتَ عليَّ فازدَدتُ بك إعجابًا، وفيك رغبة، وأنا مُولِيك من عملي جسيماً، ورافع منزلتك إلى منزلة الأشرف، وجاعلُ لك مَنِي خاصة. قال ابن آوى: إنَّ الملوك أَحَقُّ باختيار الأعوان فيما يهتمُون به من أعمالهم وأمورهم من غير أن يُكِرِّهوا على ذلك أحداً؛ لأنَّ المكرَّه لا يستطيع المبالغة في العمل، وأنا لعمل السلطان كاره، وليس لي به تجربة، ولا بالسلطان رفق، وأنت ملك السباع، عندك من أجناس السباع عدُّ كثير، وفيهم أهل نبل وقوَّة، ولهم على العمل حرص، ولهم به رفق، فإن استعملتهم أغْنَوا عنك، واغتبطوا لأنفسهم بما أصابوا من

^٢ «إنما صحبتكم بنفسي». كذلك جاءت في النسخ الأخرى، والأشبه بالصواب ما في المنظومة:

وإنما صحبتكم بجسمِي ليس بقلبي وبصدق عزمِي

ذلك. قال الأسد: دع عنك هذا فإني غير مُغفِيك من العمل؛ قال ابن آوى: إنما يستطيع العمل وصحبة السلطان رجلان لست بواحدٍ منهم: إما فاجرٌ مُصانع يبال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعه، وإما رجلٌ مهينٌ مغفلٌ لا يحسُدُ أحداً، فأمّا من أراد أن يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف لا يخلط ذلك بمصانعه فقلماً يستقيم له صحبتهم؛ لأنَّه يجمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، إما الصديق فينافسه في منزلته ويبغي عليه فيها ويعاديها، وأمّا عدو السلطان فيغضُّن عليه بنصيحته لسلطانه وغنائه عنه، فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان كان قد تعرَّض لهلاكه. قال الأسد: لا يكونَ بغيُ أصحابي عليك وحسدُهم لك مما يعرض في قلبك، فإني كافيك ذلك، وبالغُ بك في الكرامة والإحسان غاية همتك، قال ابن آوى: إذا كان الملك يريد الإحسان بي فليدعني أعيش في هذه البرية آمناً من أن أحُسَدَ، فإني قليل الهم، راضٌ بمعيشتي من الماء والخشيش، وقد علمت أنَّ صاحب السلطان يصل إليه في ساعة واحدة من الأذى والخوف ما لا يصل إلى غيره طول دهره، وأنَّ قليلَ الغذاء في أمن وطمأنينة خيرٌ من كثيره في خوفٍ ونصب. قال الأسد: قد سمعتُ كلامك فلا تخافْ شيئاً مما أراك تتخوَّفه، ولا بدَّ من الاستعانة بك، قال ابن آوى: إن أراد الملك بي هذا فليجعل لي عهداً، إن بغي على أحدٍ عنده ممن هو فوقِي خوفاً على منزلته أو ممن هو دوني لينازعني منزلتي؛ فذَكَر عند الملك منهم ذاكرٌ بلسانه أو بلسانِ غيره ما يُريده به تحميل الملك علىَّ ألا يُعجل علىَّ وأن يتثبت فيما يُرفع إليه ويُذكَر له من ذلك، ويُفحص عنه ثم يقضي فيه بما بدا له، فإذا أنا ثقت من الملك بذلك أعننته ببني myself، وعملت له فيما ولاني بنصيحة واجتهاد وحرِّص علىَّ ألا يجعل على نفسي سبيلاً؛ قال الأسد: ذلك لك.

فولَّه خزانته، واختصَّه دون أصحابه بالرأي والمشورة والمنزلة، وازداد به على الأيام عجبًا، فزاده كرامةً وعملاً، فتقل ذلك على من كان يُطيف بالأسد من قرابينه وأصحابه وعماله، وعادوه وحسدوه وأتَمُّروا ليحملُوا عليه الأسد ويُهلكوه، فلماً اجتمعوا على ذلك من كيدهم دبَّوا ذات يوم للحِمِّ كان الأسد استطرفة واستطابه، فأمره برفعه في موضع طعامه ليعاد إليه، فسرقوه ثم أرسلوا به إلى بيت ابن آوى فخَبَّئوه في موضع لا يطلع عليه أحد، فلماً كان من الغد ودعا الأسد بعذائه فقد ذلك اللحم، والتمسه فلم يجده، وابن آوى غائبٌ والقومُ الذين أرادوا المكر به حضور، فلماً رأوا الأسد قد احتشد في طلب اللحم وغضِّب نظر بعضهم إلى بعض فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بدَّ لنا أن نُخْبِرَ الملك بعلمنا فيما يضرُّ به وينفعه، وإن شَقَّ ذلك على من شَقَّ عليه، إنه بلغني أن

ابن آوى كان ذهب باللحم إلى منزله، قال آخر: أراه شبّيهَا أن يكون فعل ذلك، ولكن انظروا وافحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة، قال آخر: أجل، لعمري ما تقاد السرائر يُطلع عليها، ولكن إن فحصتم فوجدمتم ذلك في منزل ابن آوى فكل شيء كان يُذكر لنا من عيوبه وخيانته حقٌّ، وحقيقة أن نذرره ونصدق كلَّ ما كان قيل لنا فيه، فقال آخر: كيف يسلم من خاتَّل السلطان، وكيف يخفي ذلك له، ومخالفة الأصحاب لا تقاد تخفي؟ قال آخر: لقد أخبرني مخبر عن ابن آوى بأمرٍ عظيم، فما وقع في نفسي حتى سمعت كلامكم، قال آخر: لم يَكُنْ عَلَيْهِ أُمْرَهُ وَخَبَثَهُ أَوْلَى مَا رَأَيْتَهُ، وقد قلت مراراً واستشهدت فلاناً: إنَّ هَذَا الْمَخَادِعَ الْمَتَخَسِّعَ يُوشِكُ أَنْ يَفْتَشَ عَنْ خِيَانَةٍ فَاحِشَةٍ وَذِنْبٍ عَظِيمٍ، قال آخر: لئنْ كَانَ هَذَا الْمَتَّالِهُ الْمَتَخَسِّعُ الَّذِي يَرِينَا أَنْ عَمَلَ النَّسَاكَ خَانَ هَذِهِ الْخِيَانَةَ، إِنَّ ذَلِكَ لَمْ أَعْجَبْ الْعَجَبَ، قال آخر: لئنْ وُجِدَ هَذَا الْأَمْرُ حَقًّا فَإِنَّهَا لَيْسَ خِيَانَةً فَقَطَّ، بل مع الخيانة كفر النعمة والجرأة على الذنب، قال آخر: أنتم أهل العدل والفضل، ولا أستطيع أن أكذبكم، ولكن يستبين صدق هذا من كذبه لو قد أرسل الملك إلى بيت ابن آوى ففتشه، قال آخر: إنَّ كَانَ مَنْزَلَهُ مَفْتَشًا فَالْعَجَلَ؛ فَإِنَّ عَيْوَنَهُ وَجْوَاسِيْسِهِ مَبْثُوتَةٌ بكل مكان، قال آخر: قد علمت أنَّ ابن آوى لو فُتِّشَ مَنْزَلَهُ وَاطَّلَعَ عَلَى عِيَوبِهِ وَخِيَانَتِهِ سِيَحْتَالُ بِمَكْرَهٍ حَتَّى يُشَبِّهَ عَلَى الْمَلِكِ فَيُعَذِّرُهُ.

فلم يزالوا بهذا الكلام وأشباهه حتى وقع ذلك في نفس الأسد، وحقق الاتهام لابن آوى، فدعا به فقال: ما صنعت باللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟ قال: دفعته إلى فلان صاحب الطعام – وكان ممن تابع القوم – فسألَهُ الملك عن اللحم، فقال: ما دفع إلى شيئاً، فوجَّهَ الأسد أبناءه إلى بيت ابن آوى فوجَدَ اللحم في بيته فأتوا به الأسد، فدنا إلى الأسد نَبِّئْ لم يكن ليتكلَّم بشيءٍ من تلك الأمور، وكان يُظْهِرُ أنه من أهل العدل الذين لا يتكلَّمون إلا فيما صَحَّ عندهم واستبيان لهم أنه حقٌّ، فقال: أما إذا اطلَعَ الملك على خيانة ابن آوى فلا يغفَونَ عنه، فإنه إن عفا عنه لم يَعُدْ أحد يُطلع الملك على خيانة خائن ولا ذنب مذنب؛ فأمرَ الأسد بabin آوى أن يُخرجَ من عنده ويُحتفظَ به، فقال عند ذلك بعض جلساء الأسد: إنِّي لأَعْجَبُ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالْأَمْرَوْرِ، كَيْفَ يَخْفِي عَلَيْهِ أَمْرَ هَذَا الْمَخَادِعَ؟ وَقَالَ آخَرٌ: فَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنِّي لَا أَرَاهُ إِلَّا سِيَصْفِحُ عَنْهُ بَعْدِ الْذِي ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْهُ.

ثم إنَّ الأسد أرسل إلى ابن آوى بعضهم لينظر ما يكون من عذرٍ، فجاء الأسد منه برسالةٍ كذبٍ، فغضَبَ الأسد من ذلك، وأمرَ بabin آوى أن يُقتل، وبَلَغَ ذلك أَمَّ الأسد

فعلمت أنَّ الأسد قد عَجَلَ في أمره، فأرسلت إلى الذين أُمِروا بقتله أن يُؤْخِرُوه، ودخلت على الأسد فقالت له: لأيِّ ذنبٍ أمرت بابن آوى أن يُقتل؟ فأخبرها الأسدُ بالأمر، فقالت له: قد عَجَلت يا بُنَيَّ، وإنما يسلم العاقل من التدama بترك العجلة. والأنأة والتثبُّت، ولا يزال يجيئني ثمرة الندامة وضعف الرأي من لم يتثبت في الأمور؛ وليس أحدُ أحوج إلى التؤدة والتأني من الملوك؛ فإنَّ المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلم بالعلم، والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعقل، والعقل بالثبت، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه وإنزاله إياهم منازلهم، واتهام بعضهم على بعض، فإنه إن وجد بعضُهم إلى هلاك بعضٍ سبيلاً، وإلى تهجين بلاء المبلين وإحسان المحسنين، والتغطية على إساءة المسيئين، لم يدعوا ذلك، وذلك سريعاً في إضاعة الأمر، وجلي عظيم الخطر والضرر، وقد كنتَ بلوت ابن آوى واختبرته قبل استعانتك به وتفويفتك إليه فلم تزل عنه راضياً، تزيدك الأيام له استصلاحاً، وإليه استرسلاً، وفيه رغبةً.

فأمرت بقتله في طابق من لحم فقدته، فعسى أصحابك أن يكونوا قد ألموا من ذنبه باطلًا، لحسدهم له وتعاونهم عليه، واعلم أنَّ الملوك إذا وَكَلُوا إلى غيرهم ما ينبعي لهم مباشرته بنفسهم، وألموا نفوسهم ما ينبعي لهم تفويفه إلى الكفالة ضاعت أمورهم ودعوا الفساد إلى أنفسهم، والملوك يحتاجون إلى النظر في وجوه شتى، فإذا آثروا النظر في بعض تلك الوجوه على بعض لم يأمنوا خطأ البصر وزلل الرأي، كصاحب الخمر إذا أراد شراءها احتاج إلى اختبار لونها وطعمها وريحها، فإنَّ هو آخر بالاختبار بعض ذلك دون بعض لم يأمن الغبن والخسنان، وكالرجل الذي يرى بين عينيه شعرًا من المرض وليس بشعر، فلا يتثبت في القضاء أنه ليس بشعر من المرض، ويعلم أنه لو كان شعراً أبصره غيره كما أبصره هو ليخبره ويعتبر مرضه، وكالريارة يراها الجاهل في ظلمة الليل فيقضي عليها بالمعاينة، قبل أن يلمسها، أنها نار، فإذا لمسها تبين له خطأ قضائه، وقد كنتَ حقيقةً أن تنظر في خطأ ابن آوى نظر متثبت فتعلم أنه – إذ لم يأكل اللحم الذي كنتَ ربَّما أمرت له بالكثير منه فكان يجعله في طعامك وطعام جندك – ليس بخليق لسرقة قليلٍ من اللحم أمرته بالاحتفاظ به، فافحص عن أمره فإنه لم ينزل ذلك^٣ عادةً

^٣ جملة: «لم ينزل ذلك عادة الأرذال والأندال حسدُ أهل المروءة.» فيها رائحة العبارة الفارسية، يؤتى باسم الإشارة ثم يفسَّر.

الأرذال والأنذال؛ حسد أهل المروءة والفضل واستثقالهم، ولم يزل جهال الناس يحسدون علماءهم، ولئامهم يحسدون كرامتهم، ويشرارهم يحسدون خياراتهم، ولابن آوى مروءة وفضل، فعسى أعداؤه من أصحابك فطنوا لوضع ذلك اللحم فجعلوه في منزله من غير علم منه، فإن الحدأة إذا أصابت البَضْعَةَ من اللحم نافسها فيها كثيرٌ من الطير، والكلب إذا كان في فيه العظم تعاون عليه عدّةً من الكلاب، وإنَّ خصماء ابن آوى لم ينظروا فيما يضرُك ولم يرغبو فيه عنك إلَّا لعاجل منفعة أنفسهم، فانتظر أنت فيما ينفعك لنفسك إن لم ينظر لك أحد، ولا تمالئهم على ما يضرُك؛ فإنَّ أعظم الأشياء ضرراً على الناس عامَّةً وعلى الولاة خاصةً أمران: أنْ يُحرِمُوا صالح الأعوان والوزراء والإخوان، وأن يكون وزراؤهم وإخوانهم غير ذوي مروءة ولا غباء، ولم يزل غباء ابن آوى عنك عظيمًا، يؤثر منفعتك على هواه، ويشتري راحتك بنصبه، ورضاك بسخطه، لا يطوي عنك أمراً، ولا يكتمك سرًّا، ولا يرى شيئاً احتمله منك أو بذله لك عظيمًا، فمن كان من الأصحاب هذه صفتة؛ فإنما منزلته منزلة الآباء والأبناء والإخوان.

في بينما أُمُّ الأسد في كلامها إذ دخل على الأسد بعضُ من كان مكر بابن آوى فأطلَع الأسد على أمره، فلما علمت أُمُّ الأسد أنَّ الأسد قد اطلع على براءة ابن آوى قالت للأسد: أما إذا اطلعت على براءة ابن آوى وجرأة أصحابك عليه، فلا ترضيَنَّ بذلك منهم، ولا تدعَنَّ تشتيت ذاتِ بينهم حتى تقطع منك الشفقةُ عليهم، فيتحذوك مرتكباً فتعودَهم الاحتمال منك وتجرئُهم على ضرُك وشينك، ولا تغرنَّ بسلطانك عليهم؛ فيدعوك ذلك إلى استصغرهم والتهاون بأمرهم فإن الحشيش الضعيف إذا جمعُ قُتل منه الحبل القوي الذي يوثق به الفيل المغتالم الشديد، فأعد لابن آوى منزلته وخاصته، ولا يؤيِسَنَك من مُناصحته ما فرط إليه منك من الإساءة؛ فإنه ليس كل من أسيء إليه ينبغي أن يُتخوَّفَ غُشه وعداوتة، ويعيَسَ من نصيحته ومودَّته، لكن ينبيغي أن يُنزل الناس في ذلك على اختلاف ما بينهم، فإنَّ منهم من إذا ظُفر بقطيعته كان الرأي أن يُغتنم ذلك منه ويُمتنع من معاودته، ومنهم من لا ينفي تركه وقطعه على كل حال. فمن عُرف بالشرارة ولؤم العهد، وقلة الوفاء والشك، والبعد من الورع والرحمة، والجحود لثواب الآخرة وعقابها، والحسد وإفراط الشره والحرص، والسرعة إلى سوءِ الظن والقطيعة، والإبطاء عن المعاودة والمراجعة، فقطعه أحزن للرأي؛ ومن عُرف بالصلاح وكرم العهد، والشك والوفاء والمحبة للناس، والسلامة من الحسد والحدق، والبعد من الأدب، والاحتمال

للأصحاب والإخوان وإن ثقلت عليه منهم المؤنة، فهذا حقيقة أن تُغتنم صحبته وصلته
ويمتنع من قطعه.

واحدٌ من الخلطاء الثمانية: الكفور النعمة الغادر بما يُعهد إليه، والذي لا يؤمن
ببيوم الحساب والثواب والعقاب، والمفرط في حرصه وهمه وغضبه، ومن يُسخنه اليه
بغير علة، ومن لا يرضي بشيء وإن كان كثيراً جسيماً، وذو المكر الدهلي الغامض مكرًا،
واللهج بالزنا والخمر، والسيءُ الظنُّ المتألونُ المتهجُّمُ القليلُ الحياء. واعتقد من الخلطاء
والأصحاب: الشكُور النعمة الوفيَّ العهد، والكريم عند تصاريف الأمور، وهذا الدين المتقي
الورع، والمستريح الصدر بالخيرات، والعالم الدينُ المحبُّ الخيرُ للناس، والرحيمُ القليلُ
الحقدُ الصافحُ عن ذنوبِ أخلائهُ المحافظُ عليهم غيرُ الناسِ لودُّهم، والمخبرُ بالعفة
والحياة.

فلما ظهر للأسد براءة ابن آوى مما قُرِف به ازداد له تكراً، وبه شقة، فدعاه
واعتذر إليه مما كان منه في أمره، وقال له: إنَّ الذي كان من الأمر قد زاد فيما كان
من ثقتي بك ثقة، وزاد ظلُّي بك إلى ما كان من حسنِه حسناً، فأقام على ما كنت عليه
من أمرنا وعملنا. قال ابن آوى: إني قائلٌ لك أيها الملك قولاً فلا يُنلُظنَ عليك، فإنَّ أحقَّ
من قَبْلِ من أهل الحجَّ الحَكَّام، وإنك إن كنت أحدثت بي ثقة وحسنَ ظنَّ فليس شيئاً
تفضَّلت به على فتعمتد من نفسك صنيعةً عندي أو طَوْلَاً علىَ، ولكن قد أحدثت بك أيها
الملك سوءَ ظنٍّ، وقلةً ثقةً، لما ظهر لي من سرعة استماعك لأهل الكذب، وإفسادك الكثير
من حُسن البلاء الذي لا تنكره بالقليل الحقير من القذف الذي لا تعرفه، وتقبل بك إلى
بالباءقة والجائحة قبل التثبت والإذار، فقد صرَّيتني في حدٍ لا تثق بي ولا أثق بك، لما
صَرَّيت لهم علىَ من السبيل؛ لأنَّه لا ينبغي للملك أن يثق بهذه الأصناف من قد عوقب
العقوبة الكبيرة عن غير جرم، ومن ناله الضُّرُّ العظيم منهم، ومن عزلوه عن ولایة وعمل
كان في يديه، ومن سلبوه أمواله وعقاراته، ومن كان في الثقة عندهم فأقصوه وقطعوا
طمعه بغير سبب، وذى المروءة والنبل إن تُنْزَلَ غير منزلته، أو قدَّمْ عليه أكفاوه ونظراؤه
والمظلوم الطالب للنَّصْفَ غير النَّصَفَ، ومن يرجو المنفعة والصلاح بمضرَّةِ السلطان،
ومن استُقْبِلَ بما يكره في المحافل، وذى الحرص القليل التبرع، والمذنب الراجحي للعفو فلم
يُعْفَ عنه، فهذه الأصناف أعداء الملك وأعدائي، وقد صار لهم السبيل إلى والاستخفاف
بي والجرأة علىَ. قال الأسد: ما أخشى كلامك وأغلظه؛ قال ابن آوى: أيها الملك، لا يُغاظنَ
عليك ولا يُخْشَنَ الحقُّ والصدقُ إنْ خَفَّ عليكِ الكذبُ والباطلُ مما حُمِّلت به علىَ، ولا

تحمّل جوابي لك والغلوظة في محاورتي إياك على سفه رأي وقلة بصر بما أقول، ولكن قد قلت ذلك لخصلتين: منها أن في القصاص تسلية الضغائن وإطلاقاً لعقد الحقد، وأحببت أن أخرج ما في نفسي مما وترتني به ليس لك صدري من الصُّغن ولخلاصك منه سلامة العتب، ومنهما أني أحببت أن تكون أنت الحكم على نفسك، وألا تكون أنا الحكم عليك، مع أنني لم أجترئ على هذه المقالة حتى استعهذتك من نفسك. قال الأسد: ألم أحسن التثبت في أمرك؟ قال ابن آوى: إنما كان التثبت من أمّ الملك، وكان التعجيز بقتلي من قبلك أيها الملك، قال الأسد: ألم تزعم أن التجاوز عن إساءة العمد أفضل ما يكون من الإحسان؟ فكيف لا يكون ذلك لأهل الخروج عن الخطأ على الكره إلى الإحسان على علم؟ قال ابن آوى: إنني لم أقل ما قلت لأوقف الملك على إساءة في أمري، ولا على الخطأ في أمره وحكمه في شأني، ولكنني أيضاً قد تخوّفت موضعًا حدث لأهل المكر يجدون به فيما بينك وبينك مدخلًا. قال الأسد: وما ذاك الموضع؟ قال: يُقال لك أيها الملك: قد دخلت قلب ابن آوى عليك ضفينةً فيما أدخلت عليه من التهمة والوحشة، وما أشربت به قلبه من الإشراف على الْهَلْكَة، فقال كذا وكذا، وهذا سبب مظنون بالملوك من أصابته منهم عقوبة أو جفوة أو تغيير منزلة أو عزل عن سلطان أو أوثر غيره عليه من هو دونه في المنزلة والحال.

قال الأسد: إنك لست من يصدق عليه القبيح، وقد عرفتك بالأثر الحسن، وإنك عندنا من يشكر الحسنة ويحمل السيئة ويدرك جميع ما أبلى، فلا يعرض بك تخوّف لقبولي فيك قبيحاً يأتي به آتٍ، ولا يسُوءُ ظنك ما حسن ظننا فيك، وأقم على ما ولّيناك من أمرنا؛ فإنّا منزلك منزلة الكرام الأخيار، وال الكريم تنسيه الخلّة الواحدة من الإحسان ألف خلّة من الإساءة.

وأضعف له الملك الكرامة، وازداد به ثقة وإليه تفويضًا وبه افتباطًا حتى هلك.

باب السائح والصواغ

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت مثل الملوك فيما يجري بينهم وبين قرابينهم، فأخبرني عن الملك، إلى من ينبغي أن يصنع المعروف؟ ومن يحق له أن يثقل به؟

قال الفيلسوف: إنَّ الملوك وغيرهم جُدُرُّ أن يأتوا الخير إلى أهله، وأنْ يُؤملوا من كان عنده شكر، ولا ينظروا إلى أقاربهم وأهل خاصتهم، ولا إلى أشراف الناس وأغنيائهم وذوي القوَّة منهم، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف إلى أهلي الضعف والجهد والفاقة؛ فإنَّ الرأي في ذلك أن يجربوا ويختبروا صغار الناس وعظاماءهم، في شكرهم وحفظهم الود، وفي غدرهم وقلة شكرهم، ثم يكون عملهم في ذلك على قدرِ الذي يبدو لهم؛ فإنَّ الطبيب الرفيق لا يداوي المرضى بالمعاينة لهم فقط، ولكنه ينظر إلى البول ويُجسِّسُ العروق، ثم يكون العلاج على المعرفة وقدرها، ويتحقق على المرء اللبيب إذا وجد قوماً لهم وفاءً وشكراً أن يحسن فيما بيته وبينهم لعلَّه يحتاج إليهم يوماً من الدهر فيكافئوه؛ فإنَّ العاقل ربما حذر الناس ولم يأمن على نفسه أحداً منه، وأخذ ابن عرس فأدخله كمَّه والطير فوضعه على يده^١ وقد قيل: ينبغي لذى العقل ألا يحقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير أن يبلوهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر الذي يرى منهم،

^١ «وأخذ ابن عرس فأدخله في كمه، والطير فوضعه على يده»، هذه الجملة ليست في نسختنا، وقد نقلناها من شيخو بعد تصحيحها؛ لأنَّ السياق يقتضيها، ولأنَّ النسخ متفقة على معناها، والمراد أن الإنسان قد يحذر الناس ويأمن الحيوان فيدخله في كمه أو يضعه على يده؛ وفي اليازجي: «وأخذ ابن عرس فأدخله في كمَّه وأخرجه من الآخر، وأخذ الطير الجارح فوضعه على يده، فإذا صاد شيئاً أبقى له منه نصبياً»، وقربُ منه في طبارة والمصرية.

وقد مضى في ذلك مثلٌ ضربه بعض الحكماء، قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ أناساً انطلقوا إلى مغار فحفروا فيه زُبْبة للسباع، فوقع فيها رجل صائغ وببر وحية وقدر، فلم يهجن ذلك الرجل ولم يجدوا لهم مخلصاً، فمرَّ رجلٌ سائح بهم فاطلع فيها، فلما رأهم فكرَ في نفسه وقال: ما أراني مقْدِمَاً لآخرتي شيئاً أفضَلَ من أن أخلص هذا الإنسان من بين هؤلاء الأعداء، فأخذ بِلَادَه فتعلَّقَ به القرد لخَفْته فأخرجه، ثم دلَّاه الثانية فتشبَّثَ به البَبْرُ فأخرجَه، ثم دلَّاه الثالثة فالتوتَ به الحَيَّةُ فأخرجَها، فشكَرَ له صنيعه، وقلَّن: لا تخرج هذا الإنسان من الرُّبْبةِ، فإنه ليس في الأرض أقلُّ شكرًا من الإنسان، ولا سيما هذا الرجلُ خاصَّةً. وقال القرد: إنَّ وطني في جبل كذا وكذا إلى جانب مدينة يقال لها براجون.^٢ وقال البَبْرُ: وأنا أَيْضًا في أَجْمَةٍ إلى جانبها. وقالت الحَيَّةُ: وأنا أَيْضًا في سور تلك المدينة، فإنْ أتَيْتها يوماً من الدهر أو مررت بها فاحتاجت إلينا فنادينا حتى نخرج إليك ونجازيك بما أوليتنا وأتيت إلينا. ثم إن السَّيَّاحَ أدى الحبل إلى الصائغ، ولم يلتفت إلى ما ذكره القرد والبَبْرُ والحيَّةُ من قَلَّةِ شكره، واستخرجَه فسجد له وأثنى عليه وقال له: إنك قد أوليتني معرفةً جسيماً، وأنا حقيقٌ بشكره وحفظه، فإنْ قُضِيَ لك أن تأتي مدينة براجون — وهي المدينة التي ذكرها القرد وصَاحْبَاه — فسل عنِّي؛ فإنَّ منزلي بها، لعلي أجازيك بجميل ما كان منك إلَّي.

ومضى كُلُّ واحدٍ منهم لوجهه، ومكث السَّيَّاحُ حيَّاً ثم عرضت له حاجة نحو تلك المدينة، فسار إليها فلقِيه القرد وسجد له وقبَّل يديه ورجليه واعتذر إليه، وقال: إني لا أملك شيئاً، ولكن أنظرني ساعة حتى آتِيك ما تصيب منه. فمضى القرد ولم يلبث أن جاءه بفاكهةٍ طَيِّبةٍ فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته، ثم توجَّه نحو المدينة فاستقبله البَبْرُ حَيَّاً وسجد له وقال: قد أوليتني جميلاً، فلا تبرح حتى أرجع إليك، وذهب إلى ابنة الملك فقتلها وأخذ حلبيها وأتاه به فدفعه إليه من غير أن يُعلمه، فقال السَّيَّاحُ في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا وصنعته بي، فكيف لو انتهيت إلى الصوَّاغ؟ فإنه إن كان مُعرِّضاً لا شيء له فإنَّ أقلَّ ما يصنع أن يبيع لي هذا الحَلْيُ بثمنه، فيعطيوني بعضه ويأخذ بعضاً.

^٢ اسم هذه المدينة في النسخ العربية المطبوعة إلا نسخة شيخو: «نواردخت»، وليس مسمَّاة في السريانية.

ثم إنَّ السَّيَّاح دخل المدينة فأتى منزل الصَّوَاغ، فرَحِبْ به وأدخله منزله، فلَمَّا بُصِرَ بالحَلْفِ عرفه فقال: اطمئنْ حتى آتِيك بشيءٍ تأكله، فإني لا أرضي لك بما في منزلي، فانطلق الصائغ حتى أتى الملك فقال: إنَّ الرجل الذي قتل ابنته وأخذ حليها قد أخذته، وهو محبوسٌ عندي، فلا تطالبينَ به أحدًا، فإني قد ظفرت به ومعه الحلي، فأرسل الملك ب أصحابه مع الصواغ، فهمجوا على السَّيَّاح فأخذوه وأتوا به إلى الملك، فلَمَّا رأى الحلي معه أمر به أن يعذَّب وأن يُطاف به في المدينة ثم يُصلب، فلَمَّا فعل به ذلك وظيفَ به المدينة، جعل يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أتني أطعنت القرد والببر والحياة فيما أمرتني به لم يصبني هذا البلاء، فسمعت بذلك الحياة فخرجت من جُحْرها، فلَمَّا بصرت به اشتَدَ عليها أمره، وفكَّرت في الاحتياط لخلاصه، فانطلقت إلى ابن الملك فلديعه على رجله، فبلغ الملك ذلك فدعوا له أهل العلم ليرقوه فلم يُغنو عنه شيئاً، فنظروا له في النجوم واحتالوا له حتى تكلَّم فقال: إني لا أبدأ حتى يأتيني هذا السائح فيرقيني ويمسح بيده علىَّ، فإنك أيها الملك أمرت بقتله ظلماً وعدواناً.

وقد كانت الحياة تقدَّمت إلى أختٍ لها من الجن فأخبرتها بخبر السائح وفعاله بها وما قد أصابه، فذهبت إلى ابن الملك فأرته ذلك في منامه فنطق به بحضور المنجمين، فانطلقت الحياة إلى السَّيَّاح فأعلمه بذلك وقالت له: ألم أنهك عن هذا الإنسان فلم تعطني؟ وأعطيته شجرة تنفع من سُمِّها، وقالت له: إذا صرَّت إلى الملك فارق الغلام واسقه من هذه الشجرة فإنه يبرأ، واصدق الملك الحديث فإنك تنجو إن شاء الله. فلما سمع الملك ذلك من ابنة: أنَّ شفائي^٣ عند الناسك الذي أخذته وأمرت بعذابه، أمر الملك أن يُكَفَ عن عقوبة الناسك وأن يؤتى به، فأنَّى به، فأمره أن يرقى ابنة، فقال: لست أحسن ما أمرتني به، ولكن أدعوا الله - عزَّ وجَلَّ - بدعوةٍ أرجو أن يكون فيها شفاءً ما به: فقال الملك: إنما دعوتك لتخبرني ب حاجتك في هذه المدينة، وما أقدمكَها، فقال السَّيَّاح وقصَّ عليه أمره، وما كان من صنعه إلى الصواغ والقرد والحياة والببر، والذي قلن له في أمر الصواغ، وما حمله على أن يأتي مدینته؛ ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنِّي صادق فيما ذكرت فعجل لابن الملك إبراءه مما هو فيه والشفاء والعافية، فبرئ الغلام مما كان

^٣ «فلَمَّا سمع الملك ذلك من ابنة: أنَّ شفائي»، في الجمع بين «ذلك» و«أنَّ» في هذه الجملة محاكاة للعبارة الفارسية، وقد تقدم أمثل هذَا (انظر المقدمة).

به وُكُشف عنه الألم، فأعطى الملك السياح، ووصله وأحسن جائزته، وأمر بالصائغ أن يُضرب حتى يموت ويُصلب.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنع الصائغ بالسياح وكفره به — بعد استنقاذه إياه من الم Krooh — ومكافأة البهائم له وتخلص بعضها له من القتل عبرة للمعتبر، وفكرةً لمن يفكّر، وأدبٌ في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قرّبوا أم بعدها: لما في ذلك من صوابِ الرأي وجليِّ الخير وصرف الم Krooh.

باب ابن الملك وأصحابه

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ ما يحقُّ على الملك من التوخي بمعروفة أهل الشكر قرُبوا أم بعُدو، فأخربني ما باُل الرجل السفيه يصيبُ الرفعة والشرف، والحكيم اللبيب لا يخلو من الهمِّ والجهد؟

قال الفيلسوف: كما أنَّ الرجل لا يُبصر إلَّا بعينيه ولا يسمع إلَّا بأذنيه، كذلك العلم إنما تمامه الحلم والعقل والتثبت، غير أنَّ القضاء والقدر يغلبان كل شيء، وإنما يُريدان أدنى علة^١ فيمُولان صاحبها أو يهلكانه، ومثل ذلك مَثُلُ ابن الملك الذي رُئيَ على باب مدينة يُقال لها مَطْوَن^٢ جالسًا وقد كتب على الباب:

إنَّ العقل والجمال والاجتهاد والقوية وما سوى ذلك إنما ملاكه القضاء والقدر.

^١ «إنما يُريدان أدنى علة ... إلخ.» ليس في النسخ المطبوعة هذه الجملة أو ما يقابلها. وفي نسخة شيخو: «فإنما يزيدان عليه فيمُولان صاحبها أو يهلكانه»، وفي نسختنا: «يريدان أدنى عله»، وهي محرَّفة عن «يريدان أدنى علة»، ودليل هذا ما في منظومة ابن الهبارية:

لكنه يُريد أدنى سببٍ وموجٌ يوجب كل موجب

^٢ اسم المدينة في النسخ الأخرى إلَّا نسخة شيخو: «مطرون»، وفي شيخو: «مطون»، وفي شيخو: «مطون»، وفي منظومة ابن الهبارية: «قطون»، وفي الفارسية: «نسطور»، وفي نسختنا: «مطرن». والظاهر أنَّ الراء فيها محرَّفة عن الواو؛ لاتفاق النسخ على هذا الحرف، وليس في السريانية تسمية للمدينة.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ أربعة نفر اصطحبوا: أحدهم ابن ملك، والأخر ابن تاجر، والأخر ابن شريفٍ من أتم الناس حُسناً وجمالاً، والأخر ابن أكَّار. وكانوا جميعاً محتاجين قد أصابهم ضُرٌّ وجهد، لا يملكون شيئاً إلَّا ما عليهم من ثيابهم؛ فبینما هم يمشُون إذ قال ابنُ الملك: إنَّ أمر الدنيا كله بقدر، قال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء، قال ابن الشريـف: الجمال خير مما ذكرتـم، قال ابن الأكَّار: الاجتهاد أفضـل من ذلك كله. ثم مضوا نحو مدينة يُقال لها مَطْوَن، فلماً انتهـوا إلى تلك المدينة أقاموا في ناحية منها، وقالوا لابن الأكَّار: انطلق فاطلب لنا باجتهادك الـيـوم طعاماً ليومـنا هذا، فانطلق ابن الأكَّار يـسـأـلـ: أيُّ عـمـلـ إـذـا عـمـلـ الرـجـلـ مـنـ غـدوـةـ إـلـىـ اللـيلـ كـسـبـهـ ما يُشـعـبـ أربـعـةـ نـفـرـ؟ـ فـقـيلـ لـهـ:ـ لـيـسـ شـيـءـ أـعـزـ مـنـ الـحـطـبـ،ـ وـكـانـ عـلـىـ رـأـسـ فـرـسـخـ مـنـهـ،ـ فـتـوـجـهـ إـلـيـهـ فـحـمـلـ طـنـاـ مـنـ حـطـبـ،ـ فـجـاءـ بـهـ فـبـاعـهـ بـنـصـفـ دـرـهـمـ،ـ ثـمـ اـشـتـرـىـ بـهـ مـاـ يـصـلـحـ أـصـحـابـهـ،ـ وـكـتـبـ عـلـىـ بـابـ المـدـيـنـةـ:ـ (ـاجـتـهـادـ يـوـمـ وـاحـدـ تـبـلـغـ قـيـمـتـهـ نـصـفـ دـرـهـمـ)،ـ وـأـتـاهـمـ بـمـاـ اـشـتـرـىـ فـأـكـلـوهـ.

فلماً أصبحوا قالوا لابن الشريـفـ: انطلق فـاكـسـبـ لـنـاـ بـجـمـالـ بـعـضـ مـاـ يـقـوـتـنـاـ الـيـومـ،ـ فـانـطـلـقـ فـفـكـرـ فـيـ نـفـسـهـ،ـ وـقـالـ:ـ لـسـتـ أـعـرـفـ شـيـئـاـ مـنـ الـأـعـمـالـ وـأـسـتـحـيـ أـنـ أـرـجـعـ إـلـىـ أـصـحـابـيـ بـغـيـرـ شـيـئـ،ـ وـهـمـ أـنـ يـفـارـقـهـ،ـ فـأـسـنـدـ ظـهـرـهـ إـلـىـ شـجـرـةـ فـيـ المـدـيـنـةـ،ـ فـبـيـنـماـ هوـ مـهـمـومـ إـذـ مـرـرـتـ بـهـ اـمـرـأـ لـبـعـضـ عـظـمـاءـ أـهـلـ المـدـيـنـةـ فـأـعـجـبـهـ جـمـالـهـ،ـ فـأـرـسـلـتـ إـلـيـهـ جـارـيـتهاـ فـأـتـتـ بـهـ إـلـىـ مـنـزـلـهـ،ـ ثـمـ أـمـرـتـ بـهـ فـنـظـفـ،ـ ثـمـ خـلـاـ بـهـ يـوـمـ كـلـهـ فـيـ نـعـيمـ وـسـرـورـ،ـ فـلـمـاـ أـمـسـىـ أـمـرـتـ لـهـ بـخـمـسـمـائـةـ دـيـنـارـ،ـ فـلـمـاـ قـبـضـهـ تـوـجـهـ إـلـىـ أـصـحـابـهـ وـكـتـبـ عـلـىـ بـابـ المـدـيـنـةـ:

جمال يوم واحد بخمسمائة دينار

فلماً أصبحوا قالوا لابن التاجر: انطلق أنت الـيـومـ فـاكـسـبـ لـنـاـ بـعـقـالـ وـتـجـارـتـكـ شـيـئـاًـ،ـ فـذـهـبـ اـبـنـ التـاجـرـ،ـ فـمـاـ لـبـثـ قـلـيـلاـ حـتـىـ أـبـصـرـ سـفـيـنةـ عـظـيـمةـ فـيـ الـبـحـرـ قـدـ أـرـسـتـ إـلـىـ الشـطـ غـيـرـ بـعـيـدـ مـنـ المـدـيـنـةـ،ـ وـقـدـ خـرـجـ إـلـيـهـ أـنـاسـ كـثـيرـ لـيـشـتـرـوـ مـاـ فـيـهـ،ـ فـسـاـوـمـوـ أـصـحـابـهـ،ـ ثـمـ قـالـ بـعـضـهـمـ:ـ اـنـصـرـفـوـ يـوـمـكـمـ هـذـاـ حـتـىـ يـكـسـدـ عـلـيـهـمـ وـيـرـخـصـوـهـ عـلـيـنـاـ،ـ فـجـاءـ اـبـنـ التـاجـرـ فـاشـتـرـىـ مـاـ فـيـهـ بـمـائـةـ أـلـفـ دـيـنـارـ،ـ فـلـمـاـ بـلـغـ الـقـوـمـ ذـلـكـ أـتـوـهـ فـأـرـبـحـوـهـ مـائـةـ أـلـفـ دـرـهـمـ،ـ فـأـخـذـهـاـ مـنـهـمـ وـأـحـالـ صـاحـبـ السـفـيـنةـ عـلـىـ التـاجـرـ،ـ وـرـجـعـ إـلـىـ أـصـحـابـهـ،ـ فـلـمـاـ مـرـ بـبـابـ المـدـيـنـةـ كـتـبـ عـلـيـهـ:ـ (ـعـقـلـ يـوـمـ وـاحـدـ بـمـائـةـ أـلـفـ دـرـهـمـ).ـ

فلماً أصبحوا في اليوم الرابع، قالوا لابن الملك: انطلق أنت اليوم فاكسب لنا شيئاً، فذهب حتى أتى بباب المدينة، فجلس على دُكَان بالباب، فُقْضيَ أنَّ ملك المدينة هلك في ذلك اليوم، ولم يخلف ولداً ولا أخاً ولا قرابةً، فمُرُوا عليه بالجنازة فبصروا به لا يتحرَّك ولا ينحاش ولا يحزن لموت الملك، فسألَه رجل فقال:^٣ من أنت؟ وما الذي يقعدك على باب المدينة لا يحزنك موت الملك؟ فلم يجبه، فشتمه وطرده، فلماً مضوا رجع إلى مكانه، فلماً انصرفوا رأه الذي طرده فقال: ألم أنهك عن هذا الموضع، وأنقدم إليك؟ فأخذه وحبسه. ثم إنهم اجتمعوا ليُلْمِكُوا عليهم رجلاً يختارونه، فقام الذي كان أمر بالفتى إلى الحبس فحدَّثهم بقصته، وقال: إني أخوَّفُ أن يكون عيناً علينا لعدونا، فبعثوا إليه فأتوا به فسألوه من هو، وما أمره، وما الذي أقدمه بلهذه؟ فقال: أنا ابن أصطهر ملك أرض قورماه،^٤ تُوفَّى والدي فغلبني أخي على الملك، وأنا أكبر منه، فهربت منه حذراً على نفسي، فعرفه من كان وطئ أرضهم فأتناه عليه، وملَكُوه عليهم، وكان سنتهم إذا ملَكُوا الرجل طافوا به على الفيل الأبيض، وتركوا^٥ التاج على رأسه وجالوا به بالمدينة، فلماً مرَّ على باب المدينة فأبصر ما كتبه أصحابه أمرَ أن يُكتب مع ذلك:

إِنَّ الاجتِهادَ والجمَالَ والعلَقَلَ وَمَا أَصَابَ الْمَرءَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فِي بَقِيَّةِ أَيَّامِهِ وَقَدِيرٌ
اعْتَبِرُوا ذَلِكَ بِمَا سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ.

ثم إنَّ الملك أتى مجلسه وقعد على سرير ملكه، وأرسل إلى أصحابه فأنوه فمولهم وأعطاهم وأغناهم، ثم جمع الناس والعَمَالَ وذوي الرأي من أهل مملكته؛ فقال: أمَّا أصحابي فقد استيقنوا أنَّ الذي رزقهم الله من الخير إنما كان بقدَرِ فأعان عليه ببعض ما ذكرنا، وأمَّا أنا فإنَّ الذي منحني الله ورزقني ووهبه لي لم يكن من الجمال، ولا من العقل، ولا من الاجتِهاد، وما كنت أرجو – إذ طردني أخي – أنْ أُصِيبَ هذه المنزلة، ولا أنْ أكون بها؛ لأنَّي قد رأيتُ من أهل هذه الأرضَ مَنْ هو أَفْضَلُ مِنِّي جمالاً وحسناً، وعلمت أنَّ فيها مَنْ هو أَكْمَلُ مِنِّي عَقْلًا ورأياً وأَشَدُّ اجتِهاداً، فساقني القضاء والقدر

^٣ فسألَه رجل فقال: هذه الجملة تذكر بالتعبير الفارسي: «بر سيده كفت».

^٤ اسم المدينة في نسخة شيخو: «قروناد»، وفي النسخ الأخرى: «قويران»، وليست مسماة في السريانية.

^٥ «وتركوا التاج على رأسه». استعمال «تركوا» هنا يُشبه التعبير الفارسي «كذاشتند».



إلى أن اغتربت فملكت أمراً قد علمه الله وقدره، وقد كنت راضياً أن أعيش بحال خشونة وضيق معيشة؛ فقام سياح كان في جمعهم ذلك فقال: أيها الملك، قد تكلمت بحلم وعقلنا فحسن ظننا بك، وعظام رجاؤنا فيك، وعرفنا ما ذكرت، وصدقناك فيما وصفت، وعلمنا أنك كنت لما ساق الله إليك من ذلك أهلاً بفضل قسمه لك، وتابع نعمه عليك؛ فإنَّ أسعد الناس في الدنيا والآخرة وأولاهم بالسرور فيها من رزقه الله ما رزقك، وجعل عنده مثل ما عندك، وقد أرانا الله الذي نحبَّ إذ ملكت علينا، فنحمد الله على ما أكرمنَا به من ذلك وامتنَّ به علينا. وقام سياح آخر فأثنى على الله تعالى ومجدِه وذكر آلاءه وقال: أيها الملك، إني قد كنت – وأنا غلامٌ قبل أن أكون سائحاً – أحدِم رجلاً من أشراف الناس، فلما بدا لي أن أرفض الدنيا فارقته، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين، فأردت أن أتصدق بأحدهما وأنفق الآخر، فقلتُ: أليس أعظم الأجر أن أشتري نفساً بدينار وأعتقها لوجه الله؟ فأتيت السوق فوجدت مع صياد حمامتين، فساومته بهما فأبى أن يبيعهما بأقلَّ

من دينارين، فجهدت على أن يعطيهما بدينارٍ فأبى، فقلتُ: لعلهما أن يكونا زوجين أو أخوين، فأخاف أن أعتق أحدهما فيموت الآخر، فاشترىتهما منه بالثمن الذي سمي، وأشفقت – إن أنا أرسلتهم في أرض عامرة – لَا يسعطها أن يطيرا من الهمز واللقيا من الجَهد، فذهبت بهما إلى مكانٍ كثيَّ الرعي فسرحْتهما فطارا فوقعوا على شجرة، ثم انصرفت راجعاً، فقال أحدهما للأخر: لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذي كنَا فيه، وإنَّ لحقيقة أن نُجازيه بفعله، فقلالا لي: قد أتيت إلينا معروفاً، ونحن أحَقُّ أن نشكرك به ونجازيك عليه، وإنَّ في أصل هذه الشجرة جَرَة مملوقة دنانير، فاحتفِر عندها فخذها؛ فأتت الشجرة وأنا في شُكٍّ مما قالا، فلم أحفر إلَّا قليلاً حتى انتهيت إليها فاستخرجتها ودعوت الله لها بالعافية وقلتُ لهم: إذا كان علمكم على ما أرى، وأنتما تطيران بين السماء والأرض، فكيف وقعتما في هذه الورطة التي نجيتكم منها؟ فقلالا لي: أيها العاقل، أما تعلم أن القدر يغلب كل شيء، ولا يستطيع أحدٌ أن يجاوزه أو يقصُّ عنه!

ثم قال الفيلسوف للملك: ليعرف أهل النظر في الأمور والعمل بها أنَّ الأشياء كلها بقضاءٍ وقدرٍ، لا يجلب أحدٌ منها إلى نفسه خيراً ولا يدفع عنها مكروهاً، وأنَّ ذلك كلُّه من الله عز وجل، وأنَّ الله يفعل فيها ما أراد ويقضي فيها ما أحب، فلتُسْكُن إلى ذلك الأنفُس، وللتطمئنَّ إليه القلوب؛ فإنَّ ذلك لِمَن ألهمه الله ووفقَ له، سعةً وراحةً.

باب اللبوة والشعر^١

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من أمر القضاء والقدر وغلبتهما للأشياء، فأخبرني عمن يدع ضرًّا غيره لما يُصيبه من الضرّ، ويكون له فيما ينزل به واعظٌ وزاجرٌ عن ارتكاب الظلم والعدوان من غيره.

قال الفيلسوف: إنه لا يُقدم على طلب ما يضرُّ الناس ويسوءهم إلَّا أهلُ الجاهلة والسفهاء، وسوء النظر في عواقب الأمور في الدنيا والآخرة، وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقم، ويلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا يحيط به القول؛ فإن سلم بعضهم من بعض لمنية عرضت قبل نزول وبال ما صنعوا، اعتبر^٢ بهم الآخرون بما ينقطع فيه الكلام والوصف من الشدة وعظم الهول، وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يُصيبه من المكروه من غيره، فارتدع عن أن يبتلي أحداً بمثل ذلك من الظلم والعدوان، ورجا نفع ما كف عنه في الآخرة، ونظير ذلك حديث الأسوار واللبوة والشعر، فقال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنَّ لبوة كانت في غيضة ولها شبلان، وأنها خرجت ذات يومٍ تطلب الصيد وخلفتها، فمرَّ بها أسوار فرمأهما حتى قتلها، وسلم

^١ في النسخ كلها إلَّا نسخة طبارة: «الشعر»، ولم أجده في كتب اللغة. وفي نسخة طبارة: «الشغب»، وهو كما في كتب اللغة ضربٌ من بنات آوى، وهذا الباب ناقصٌ من منظومة ابن الهبارية.

^٢ في الأصل: «اعتبروهم الآخرون»، وفي نسخة شيخو: «فإن سلم بعضهم من بعض لفتنة عرضت قبل نزول وبال ما صنعوا اغترَّ بهم الآخرون»، وفي نسخة اليازجي: « وإن سلم بعضهم من ضرر بعض باتفاق عرض له قبل أن ينزل به وبال ما صنع لم يسلم في كل مرة»، ونسخة طبارة والنسخ المصرية توافق نسختنا في المعنى، فاختلاف النسخ بين كلمة «منية» و«فتنة» وكلمة «اعتبر» و«اغتر».

جلودهما، ومضى بهما إلى منزله، ثم إنَّ اللبؤة رجعت فرأت ما بِشَبَلِيهَا من الأمر الفظيع فصرخت وصاحت وتقلبت ظهراً وبطناً.

وكان إلى جانبها شعهر جارٌ لها، فلما سمع بكاءها وصرخها وجزعها خرج إليها فقال لها: ما هذا الذي أراه بك؟ وما جرى عليك؟ فأخبرني به لأشاركك فيه؛ قالت: إنَّ شبليَّ مَرَّ عليهما أسوار فقتلهم وأخذ جلودهما وألقاهم بالغراء. قال الشعهر: لا تحزني ولا تصرُخي، وأنصفي من نفسك، واعلمي أنَّ هذا الأسوار لم يأت إليك شيئاً إلَّا وكتَّ ركبَتْ من غيرك مثلَه، ولم تجدي من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلَّا وقد كان من كنت تفعلين بأحبابه ما تفعلين يجد مثلَه أو أفضل منه،^٣ فاصبري من غيرك على نحو ما صبر عليه غيرُك منك؛ فإنَّه قد قيل: كما تدين تدان، وإن ثمرة العمل الثوابُ أو العقابُ، وهما على قدره في القلة والكثرة، كالزارع إذا حصد الحصاد أعطيَ على قدر بذرته. قالت اللبؤة: أشرح لي ما تقول وأوضحه، قال الشعهر: كم لك من العمر؟ قالت اللبؤة: مائة سنة؛ قال: ما الذي كان يقوتك ويُعيشك؟ قالت اللبؤة: لحوم الوحش؛ قال الشعهر: ومن كان يطعمك ذلك؟ قالت اللبؤة: نفسي، قال: أما كان لتلك الوحش آباء وأمهات؟ قالت اللبؤة: بل، قال الشعهر: فما لنا لا نسمع من تلك الآباء والأمهات من الضجة والجزع والصرخ ما نسمع ونرى منك؟ أما إنه لم يصبك ذلك إلَّا لسوء نظرك في العواقب، وقلة تفكُّرك فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضرُّها! فلما سمعت اللبؤة ذلك عرفت أنها هي اكتسبت ذلك على نفسها وجرَّتها إليها، وأنها هي الظالمة الجائرة، وأنه من عمل بغير الحقِّ والعدل انتقم منه وأدَّيل عليه، فتركت الصيد وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار، وأخذت في الزهد والنسك والعبادة.

ثم إنَّ الشعهر — وكان عيشه على الثمار — رأى كثرة أكل اللبؤة إياها، فقال لها: لقد ظننتُ — لقلة الثمار وكثرة أكلك إياها — أنَّ الشجر لم يحمل إلا نَزَراً العام، ولما رأيت أكلك لها — وأنت صاحبة لحم — ورفضَك رزقك وما قسم الله لك، وتحولَك إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه، علمتُ أنَّ الشجر قد أثمر كما كان يُثمر فيما خلا، وأنما هذه النزورة في ذلك من قِبَلِك، فويُلُّ للشجر وللثمار ولمن كان عيشه منها!

^٣ في الأصل: «يجد مثله أو أمثل منه»، وفي شيخو: «أو أفضل منه»، وقد رجحنا روایة شيخو لأنَّ «أفضل» ربما تدل على الزيادة فقط، و«أمثل» لا تقال إلَّا في الخير.

فما أسرع هلاكهم ودمارهم إذ قد نازعهم في ذلك مَنْ لَا حَقًّ لَهُ فِيهِ وَلَا نَصِيبٌ! فتركت
أكل الثمار وأقبلت على أكل العشب.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لأنَّ الجاهل رُبِّما انصرف لمكرورِ يحلُّ به عن ضرِّ الناس،
كاللبؤة التي تركت — بما لقيت من شبلها — أكل لحوم الوحش، ولقول الشعهـر، أكل
الثمار، وأقبلت على النسك والعبادة.

ثم قال الفيلسوف للملك: فالناس أحقُّ بحسن النظر في الأمر الذي لهم الحظُّ فيه؛
فإنه قد قيل: ما لا ترضاه لنفسك لا ترضه لغيرك، وما لا تحبُّ أن يُصنع بك فلا تصنعه
بغيرك؛ فإنَّ في ذلك العدل، وفي العدل رضا الله تعالى.

باب الناسك والضيف

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من أمرٍ من يدعُ ضرًّا غيره لضرٌّ نفسه، فأخبرني عَمَّن يدع عمله الذي يعرفه ويليق به ويطلب سواه فلا يقدر عليه، فيراجع الذي كان في يده من عمله فيفوتته ويبقى حيران متلداً.

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان في أرض يُقال لها الْكَرْخ ناسكٌ مجهودٌ في النسك، فنزل به ضيفٌ ذات يوم فدعا له بتمرٍ ليُطْرِفه به، فأكلًا منه جميًعاً، ثم إنَّ الضيف قال: ما أحلى هذا التمر وأطيبه! وليس في بلادي التي أسكنها نخلٌ، مع أنه إن لم يكن فيها فإنَّ هنالك من الشمار ما أكتفي به؛ فإنه من يقدر على التين وما أشبهه من حلو الفاكهة يُجزيه ويقضيه منه حاجة، هذا مع وخامة التمر وقلة موافقته للجسد. قال الناسك: إنَّه لا يُعُدُّ سعيدًا من احتاج إلى ما لا يجد وليس بمقدورٍ عليه، فتشرَّه لذلك نفسه، ويقلُّ عنه صبره، ويصلُّ إليه من ثقل ذلك واغتمامه ما يُضُرُّ به ويُدخل المشفقة عليه، وإنك أنت العظيمُ الجَدُّ الجزيُّ الحظُّ حين قنعت بما رُزِّقت وزَهَدت فيما لا تظفر به ولا تدرك طَلْبِتك منه. قال الضيف: وُفِّقت ورَشِّدت، وقد سمعت منك كلامًا عِبرانيًّا أعجبني فاستحسننته، فلو عَلِمْتنيه! فإنَّ لي فيه رغبة، وأنا عليه حريص، فقال الناسك: ما أَخْلَقَكَ أَنْ تقع فِيمَا ترَكْتَ مِنْ كلامك وتتكلَّفت مِنْ كلام العبرانية في مثل ما أصاب الغراب، قال الضيف: وكيف كان ذلك؟ قال الناسك: زعموا أنَّ غرَابًا رأى حَجَّةً تدرُّج، فأعجبته مشيتها، فطمع في تعلُّمها، فراض نفسه فلم يقدر على إحكامها، فانصرف إلى مشيتها التي كان عليها فلم يُحْسِن، فبَقَى حيران متلداً لم يدرك ما طلب ولم يحسن لما كان في يده الحِفْظَ.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك خليقٌ – إن تركت لسانك وتتكلّفت علمَ ما لا يُشاكّك من كلام العبرانية – ألا تدركه وأن تنسى الذي كان في يديك من غيره، فإنه قد قيل: يُعدُّ جاهلاً من حاول من الأمور ما لا يشبهه، وليس من أهله، لم يدركه آباؤه ولا أجداده من قبله، ولا يُعرفون به.

ثم قال الفيلسوف للملك: فالولاة في قلة تعاهدهم للرعاية في هذا وأشباهه ألوم وأسوأ تدبّرا؛ لأنَّ تنقل الناس من بعض المنازل إلى بعض فيه صعوبة ومشقة شديدة، ثم إنَّ الأشياء في ذلك تجري على منازل حتى تنتهي إلى الخطر الجسيم من مضادة الملك في ملكه.

فلما انتهى الملك والفيلسوف إلى باب الناسك والضيف سكت الملك، وقال الفيلسوف: عشت أيها الملك ألف سنة، ومُلكَ الأقاليم السبعة، وأعطيت من كل شيء سبيلاً، وبِلْغته في سرور منك برعيتك، وقرة عينِ منهم بك، ومساعدة من القضاء والقدر، فلقد كمل منك الحلم، وزكا منك العقل والقول والنية، فلا يوجد في رأيك نقص ولا في قولك سقط ولا في فعلك عيب، وجُمع فيك النجدة واللين، فلا توجد جباناً عند اللقاء، ولا ضيقَ الصدر فيما ينوبك من الأشياء.

وقد شرحت لك الأمور، ولخصت لك جواب ما سألتني عنه، واجتهدتُ لك فيرأيي، ونظرتُ بمبلغ فطنتي في التماس قضاء حاجتك، فاقض حقي بحسن النية منك بإعمال فكرك وعقلك فيما وصفت لك، فإنَّ الأمر بالخير ليس بأسعد به من المطیع له فيه، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح له بها، ولا المعلم بأسعد بالعلم من تعلمه منه؛ فمن تدبَّر هذا الكتاب بعقله، وعمل فيه بأصالة رأيه، ثم فَكَرَ فيه، كان قمناً للمراتب العظام والأمور الجسمان، والله يوفقك أيها الملك ويصلح منك ما كان فاسداً.

فأمر الملك عند ذلك بفتح أبواب حزائنه، وأن يحكِّم فيها الفيلسوف فيأخذ ما احتكم من الأموال، ومن صنوف الدرِّ والجوهر والذهبِ والفضةِ، وألا يُمنع شيئاً من ذلك، وأقطعه إقطاعاً كثيراً، ورفع درجته ومرتبته إلى الغاية التي لا يسمو إليها أحدٌ من نظرائه.